سلسلة
المختصرات العلمية

الجزء الخامس

مختصر إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد

اختصار

عجاب بن مقبل العازمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

فائدة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قال الشيخ ابن عثيمين ﵀:

«وهل نقول: لو أن الإنسان وقَّف شيئًا على طباعة كتب العلم، فهل يدخل في الصدقة الجارية، أو في العلم الذي ينتفع به، أو في الاثنين؟ نقول: في الاثنين؛ لأنه صدقة جارية، وعلم ينتفع به؛ لأن الإعانة على العلم لها أجر العلم».

فتح ذي الجلال والاكرام بشرح بلوغ المرام (١٠/ ٢٧٨).

سلسلة المختصرات العلمية

(١٤)

مختصر

إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد

للشيخ

صالح بن فوزان الفوزان

حفظه الله تعالى

اختصار

عجاب بن مقبل العازمي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول: كتاب التوحيد

....

قوله: «كتاب»: مصدر كَتَبَ، والكَتْب في اللغة معناه: الجمعُ، سُمّيَ الكتاب كتاباً لأنه جمع الكلمات والنصوص، ففيه معنى الجمع، ولذلك سُمّي كتاباً[1].

و «التّوحيد» معناه لغةً: إفراد الشي عن غيره.

أما معناه شرعاً: فهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

و«التّوحيد» ثلاثة أنواع على سبيل التفصيل:

النوع الأول: توحيد الربوبية، وهو: إفراد الله تعالى بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، وتدبير الخلائق. وهو: توحيده بأفعاله ﷻ.

وهذا النوع من أقرّ به وحده لا يكون مسلماً؛ لأنه قد أقرّ به الكفار، كما ذكر الله ﷻ في القرآن في آيات كثيرة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]، ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي أخبر الله أن المشركين يقرّون بأن الله هو الخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ومع هذا لا يكونون مسلمين؛ لأنهم لم يأتوا بالنوع الثاني، الذي هو مدار المطلوب.

النوع الثاني: توحيد الألوهية، ومعناه: إفراد الله تعالى بالعبادة؛ بأن لا يُعبَد إلا الله ﷻ

(١) انظر: «الكليات» للكفوي (٧٦٧)؛ و«تيسير العزيز الحميد» (٣٢).

لا يُصَلّى، ولا يُدعى، ولا يُذبَح، ولا يُنذَر، ولا يُحج، ولا يُعتَمر، ولا يُتصَدق.. إلخ؛ إلا لله سبحانه، يبتغى بذلك وجه الله سبحانه. وهذا هو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرسل والأمم.

ولهذا لما قال لهم النبي ﷺ: «قولوا: لا إله إلاَّ الله تفلحوا»(1) قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾[ص:٥-٩]، فهم أبوا أن يقولوا (لا إله إلاَّ الله) مع أنهم يعترفون بتوحيد الربوبية، لكن أبوا أن يعترفوا بتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، بمعنى: أننا نثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسول الله ﷺ من الأسماء والصفات، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فنثبت لله الأسماء كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

وكذلك الصفات، نصِف الله عز وجل بما وصف به نفسه؛ أنه عليم، وأنه رحيم، وأنه سميع بصير، يسمع ويُبصر سبحانه وتعالى، ويعلم، ويرحم، ويغضب، ويُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع. وهذه صفات الأفعال.

(١) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٨٢) وابن حبان (١٤/ ٥١٨) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٦٦٨) وقال: حديث صحيح الإسناد.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، **وقوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[النحل: ٣٦]. ....

وصفات الذات كذلك؛ أنَّ له وجهاً سبحانه، وأن له يدين، وأن له ﷻ الصفات الكاملة، نثبت لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله من صفات الذات ومن صفات الأفعال، ولا نتدخل بعقولنا وآرائنا وأفكارنا، ونقول: هذه الصفات أو هذه الأسماء موجودة في البشر، فإذا أثبتناها شبهنا، كما يقوله المعطِّلة، بل نقول: إن لله ﷻ أسماءً وصفات تليق بجلاله ﷻ، وللمخلوقين أسماء وصفات تليق بهم، والاشتراك في الاسم، أو الاشتراك في المعنى؛ لا يقتضي الاشتراك في الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يُبيِّن الله ﷻ الحِكمة من خلقه للجن وخلقه للإنس، وهي: أنه إنما خلقهم لشيء واحد، وهو: العبادة، وخلق كل الأشياء لمصالحهم، سَخَّرها لهم ليستعينوا بها على عبادته ﷻ.

ومعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: يفردوني بالعبادة، أو تقول بعبارة أخرى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوحِّدون، لأن التّوحيد والعبادة شيء واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فالله أمرنا بعبادته ﷻ واجتناب الطاغوت، والمراد بالطاغوت هنا: كل ما عُبِد من دون الله من الأصنام والأوثان، والقبور والأضرحة وغير ذلك، لكن من عُبد من دون الله ولم يرضَ بذلك فهذا لا يُسمى طاغوتاً، ولكن عبادتهم عبادة للطاغوت الذي هو الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ **الآية** [الإسراء: ٢٣] **وقوله:** ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ الآية [النساء: ٣٦] ....

قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ ﴿وَقَضَىٰ﴾ معناه: شرع ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، والله لم يشرع عبادة غيره أبداً، لم يشرع عبادة الأصنام، ولم يشرع عبادة الأولياء والصالحين، ولم يشرع عبادة الأضرحة والقبور، ولم يشرع عبادة الأشجار والأحجار، أبداً، هذا شرعه الشيطان، أما شرع الله فهو عبادة الله سبحانه وحده لا شريك له.

قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر من الله ﷻ بعبادته ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ هذا نهي عن الشرك، وهذا هو معنى (لا إله إلاَّ الله)؛ لأن (لا إله إلاَّ الله) معناها: نفي الشرك وإثبات العبادة لله ﷻ، ومعنى ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة.

والعبادة في الشرع فهي كما عرّفها شيخ الإسلام ابن تيمية(١) رحمه الله: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة»، فالعبادة هي: فعل ما شرعه الله ﷻ.

مثل: الصلاة، والجهاد في سبيل الله، هذا ظاهر على الجوارح، تتحرك، تعمل، ومنها ما هو على اللسان مثل: الذكر «سبحان الله والحمد لله» هذه عبادة باللسان، ومنها ما هو بالقلب مثل: الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، هذه أعمال قلوب؛ فالعبادة تكون على القلوب، وتكون على الألسنة، وتكون على الجوارح.

---

(١) في كتابه «العبودية» (٣٨)

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ الآيات. قال عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية [الأنعام: ١٥١-١٥٣][2].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآيات الثلاث: «من أراد أن ينظر إلى وصّية محمد ﷺ التي عليها خاتَمه فليقرأ هذه الآيات الثلاث»[3].

﴿أَتْلُ﴾ أي: أقرأ، ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ دلّ على أن التحليل حقٌّ للربوبية؛ فالرب هو الذي يحلّل ويحرِّم؛ لا ما حرّمتموه، أو حرّمه أولياؤكم من الشياطين من الإنس والجن.

بدأ بأعظم المحرَّمات فقال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فأعظم المحرمات هو: الشرك بالله سبحانه، وهو: عبادة غيره معه ﷻ بصرف أيِّ نوع من أنواع العبادة لغير الله.

وكلمة ﴿شَيْئًا﴾ يعني: أي شيء من الأشياء لا يجوز أن يُصرف له شيء من عبادة الله.

وأيضاً ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ يشمل كل أنواع الشرك الأكبر والأصغر، فليس هناك شيء من الشرك يُتَسامَح فيه لا أكبر ولا أصغر.

---

(١) **ابن مسعود:** هو عبدُ الله بنُ مسعودِ بن غافلِ بنِ حبيبِ الهذليُّ، صحابيٌّ جليلٌ مِنَ السابقين الأولين، من كبارِ علماءِ الصحابةِ، لازمَ النبيَّ ﷺ، وتُوفِّي سنة ٣٢هـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠٦٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٩١٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٩٣).

عن معاذ(١) بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، قلت: أفلا أبشّر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فَيَتَّكِلُوا» أخرجاه في الصحيحين(٢).

قوله: «أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله» هذه مسألة عظيمة.

فقال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» هذا هو حق الله سبحانه وتعالى على عباده، من أولهم إلى آخرهم، أن يعبدوه، ولا يكفي هذا، بل ولا يشركوا به شيئاً، لأن العبادة لا تكون عبادة إلاَّ إذا خَلَصَتْ من الشرك، لأن الشرك يُبطل العبادة، ويُبطل سائر الأعمال، ولا يصحُّ معه عمل.

فالعبادة وسائر الأعمال لا تصح إلاَّ بشرطين:

الشرط الأول: الإخلاص لله عز وجل.

الشرط الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

قوله: «حق العباد على الله» يعني: الحق الذي تفضل الله تعالى به، وأوجبه على نفسه، من دون أن يوجبه عليه أحد من خلقه، بل هو الذي أوجبه على نفسه، تكرّماً منه.

قوله: «أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً» فدلّ هذا على أن من سَلِم من الشرك الأكبر

---

(١) معاذٌ: هو معاذُ بنُ جبلِ بنِ عمرو بنِ أَوسِ بنِ كعبِ بن عمرو الخزرجيُّ الأنصاريُّ صحابيٌّ جليلٌ مشهورٌ من أعيانِ الصحابةِ، وكان متبحرًا في العلمِ والأحكامِ والقرآنِ، شهدَ غزوةَ بدرٍ وما بعدَهَا واستخلفه النبيُ ﷺ على أهلِ مكةَ يومَ الفتحِ يعلِّمُهُم دينَهُم ثُمَّ بعثَه إلى اليمنِ قاضيًا ومعلمًا، مات بالشام سنة ١٨ هـ وله ٣٨ عامًا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

والأصغر فإنه يسلم من العذاب.

فالتّوحيد يَعصم من الخلود في النار، وإذا كان التّوحيد كاملاً فإنه يَعصم من دخول النار أصلاً، وإذا كان ناقصاً فإنه يَعصم من الخلود فيها، ولا يعصم من الدخول فيها.

الباب الثاني
بَاب فَضلُ التّوحيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ **الآية** [الأنعام:٨٢].

قال ﵀ تعالى: «**وقول الله تعالى** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ **[الأنعام: ٨١]**، قوله: ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ يعني: بشركٍ، هذا هو الذي فسَّرها بِهِ رسول الله ﷺ، فإنها لَمَّا نزلَتْ هذه الآية شقَّتْ على الصحابةِ، قالوا: يا رسول الله أيُّنا لم يظلمْ نفسَهُ قال رسولُ الله ﷺ: «**إنُّه ليس بالذي تَعْنُونَ، إنه الشِّركُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إلى قَوْلِ العَبْدُ الصَّالِحُ** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾»(١) [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ هل المرادُ: الأمنُ المطلقُ يعني: أنهم لا يعذبونَ أبدًا، أو المرادُ مطلقُ الأمنِ أي أنَّهم وإنْ عُذِبوا فلا بدَّ أنْ يَدْخلوا الجنة؟ الآيةُ محتملةٌ، وعلى كلا التفسيرين فالآيةُ تدلُّ على فضلِ التّوحيد، دلّتِ الآيةُ بمفهومِها على أنَّ مَنْ أشركَ بالله وخلطَ توحيدَهُ بشركٍ أنه ليس له أمنٌ والعياذُ بالله، فهذا خطرُ الشركِ، وأنَّ مَنْ عبدَ الله، ولكنهُ يدعو مع الله غيرَه، ويستغيثُ بالموتى، ويذبحُ للقبورِ، ويطوفُ بالأضرحةِ مُسْتعينًا بها، فهذا خلطَ إيمانَهُ بشركٍ، وليسَ لهُ أمنٌ أبدًا حتى يتوبَ إلى الله ﷻ، ويُخلصَ التّوحيدَ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ هذه مزيّةٌ ثانيةٌ من مزايا التّوحيدِ، وهي حصولُ الهدايةِ للموّحدينَ المخلصينَ لله، أنهم في الدنيا يكونون مهتدين في أعمالِهم، يعبدون الله على بصيرةٍ، سالمينَ من الشركِ في الأعمال، وسالمينَ من البدعِ والخرافاتِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢)، وأخرجه مسلم (١٢٤).

عن عُبَادَةَ(١) **بن الصَّامتِ** رضي الله عنه **قال: قالَ رسول الله** ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**» **أَخْرَجَاهُ**(٢).

قوله: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ**»، يعني: نطق بالشهادةِ عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها، موقنًا بها، بأن يُفردَ الله بالعبادةِ، ويترْك عبادةَ ما سواه، فإذا لم ينطقْ بها فإنهُ لا يُحكَمُ بإسلامِهِ، ولو كانَ يعرفُها بقلبِهِ، ولو كانَ يعبدُ الله في أعمالِهِ، لكنَّهُ أبى أَنْ ينطقَ بالشهادةِ، فهذا لا يعتبرُ مسلمًا، حتى ينطقَ بالشهادةِ، لقولِهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»(٣) وكذلك من نطَقَ بها بلسانِهِ ولكنهُ لا يعتقدُها في قلبِهِ، هذا أيضًا ليسَ بمسلمٍ، بل هو منافقٌ، فالمنافقونَ يقولونَ: لا إلهَ إلَّا الله، وهم في الدركِ الأسفلِ من النارِ؛ لأنهم لا يعتقدونَ معناها.

ومعنى: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله سبحانه وتعالى.

قوله: «**وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**» كلمتان جيء بهما للتأكيد.

«وحدَهُ»: تأكيدٌ للإثبات. «لا شريك له»: تأكيدٌ للنفي.

قوله: «**وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ**»: هذا يدلُّ على أنه لا يكفيهِ شهادةُ أَنْ لا إله إلَّا الله، بل لا بدَّ معها من شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ الله.

قوله: «**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»: (عبده) هذا نفيٌ للإفراطِ والغلوِ في حقِّ الرسولِ ﷺ بجعلِ شيءٍ لهُ من الربوبيةِ، فالرسولُ ﷺ عبدٌ ليسَ له من الرُّبوبيةِ شيءٌ.

---

(١) عبادةُ بنُ الصامتِ بن قيسٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ أحد النقباءِ بدريٌّ مشهورٌ توفي سنة ٣٤ وله ٧٢ سنة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)؛ ومسلم (٢١).

قوله: «**ورسوله**»: هذا ردٌّ على أهلِ التفريطِ، الذينَ لا يقدّرونَ الرسولَ حقَّ قدرِهِ، إما يجحدونَ رسالتَهُ ﷺ، وإما أنَّهم يقرُّونَ برسالتِهِ، لكنهم لا يتبعونَهُ الإتباعَ المطلوبَ، فهؤلاءِ لم يشهدوا أنه رسولُ الله، وشهادتُهم إما باطلةٌ وإما ناقصةٌ.

قوله ﷺ: «**وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» هذا فيه ردٌّ على اليهودِ لأنهم جَحَدوا رسالةَ عيسى عليه السلام. وفيه ردٌّ على النَّصارى الذينَ لم يُقرُّوا بأنَّ عيسى عبدُ الله، وإنَّما ادعُّوا أنه ابنُ الله، أَوْ أنهُ ثالثُ ثلاثةٍ، أو أنهُ هو الله.

قوله: «**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**» الكلمةُ قولهُ تعالى لعيسى: «**كُن**»؛ لأنَّ عيسى وُجِدَ مِنْ غيرِ أبٍ، بَلْ وُجِدَ بكلمةِ «**كُن**» وليسَ هو الكلمةَ، وإنما سُمِّيَ بالكلمةِ لأنه خُلِقَ بها.

قوله: «**وَرُوحٌ مِنْهُ**»: ليسَ المرادُ أنَّ عيسى روحٌ من الله، بمعنى أنهُ من ذاتِ الله، وإنَّما من روحِهِ المخلوقِ، لأنَّ الله خلقَ الأرواحَ جميعًا، ومنها روحُ عيسى عليه السلام، فكلمةُ ﴿مِّنۡهُ﴾ لابتداء الغايةِ، يعني كلمةٌ مبتدأةٌ من الله، وروحٌ مبتدأةٌ من الله، كما تقولُ مثلًا هذا الرزقُ من الله، معناه أنَّ الله هو الذي يسّرَ هذا الشيءَ، وهو الذي هيأَهُ وخلقَهُ.

قوله: «**والجنة حق، والنار حق**» يعني: ومَنْ شَهِدَ أنَّ الجنةَ وهي دارُ المتقين، والنَّارَ دارُ الكافرينَ؛ كُلٌّ منهما حقٌّ، وأنهما دارانِ موجودتانِ مخلوقتانِ، وباقيتانِ لا تفنيانِ أبدًا.

والشاهدُ من هذا الحديثِ للبابِ: «**باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب**» أنَّ الرسولَ قالَ في آخرِه: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**» هذا وَعْدٌ من الله سبحانه وتعالى لأهلِ التَّوحيدِ بأنَّ الله يُدخِلُهم الجنةَ، وأهلُ التوحيدِ هم: الذينَ شهدوا أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا

وَلَهُما فِي حَدِيْثِ عِتْبَانَ[1]: «**فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[2].

رسولُ الله، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُهُ، وكلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ، هؤلاءِ هم أهلُ التّوحيدِ، وعَدَهُم الله أن يدخلوا الجنةَ، فهذا فيه فضلُ التّوحيدِ، وأنه سببٌ لدخولِ الجنَّةِ. لكِنْ ما معنى: «**عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**»؟ في ذلك قولانِ لأهلِ العلمِ:

القولِ الأول: أدخلَه الله على ما كانَ من العملِ، يعني: ولو كانَ له سيئاتٌ دونَ الشركِ فإنَّ ذلك لا يَحُولُ بينَهُ وَبينَ دخولِ الجنَّةِ، إما من أولِ وهْلَةٍ، وإمَّا في النهايةِ.

والقول الثاني: أي: أنه يدخُلُ الجنَّةَ، فتكونُ منزلتُهُ فيها بحسب عملِهِ؛ لأن أهلَ الجنةِ يتفاوتون في منازلِهِم بحسبِ أعمالهم، فمنهم مَنْ هو في أعلى الجنةِ، ومنهم مَنْ هو دونَ ذلك.

قوله: «**حَرَّمَ عَلَى النَّارِ**» التحريم: المنعُ، أي: منعَهُ من دخولِ النَّارِ، أو مَنَعَ النَّارَ أنْ تمسَّهُ.

قوله: «**مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أي: نطَقَ بها بلسانِهِ وأعْلَنَها.

قوله: «**يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**» أي: مخلصًا له بها، لم يقُلْها رياءً ولا سمعةً ولا نِفاقًا، بل يعتقدُ ما دلّتْ عليهِ من إفرادِ الله بالعبادةِ، وتركِ عبادةِ ما سواهُ، واعتقادِ بُطلانِها، والبراءة منها ومن أهلِها.

---

(١) هو عتبانُ بنُ مالكِ بنِ عمروِ بنِ العجلانِ الأنصاريُّ من بني سالمِ بنِ عوفٍ صحابيٌّ مشهورٌ مات في خلافَةِ معاويةَ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٥)؛ ومسلم (٣٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ[(١)] رضي الله عنه **عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا رَبِّ عَلِّمنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قَالَ: يَا رَبِّ، كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذا. قَالَ: يَا مُوسَى، لَو أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيرِي وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ**[(٢)].

قوله: «**قال موسى: يا رب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به**» طَلَبَ من ربِّهِ أن يعلِّمَهُ كلامًا يعظِّمُهُ بِهِ، ويَطْلُبُ منهُ به حاجاتِهِ، ويتوسلُ بِهِ إليهِ.

قوله: «**قل يا موسى: لا إله إلَّا الله**» أي: لا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله.

قوله: «**قال**» أي: موسى، «**يا رب، كل عبادك يقولون هذا**» أي: وإنَّما أريدُ شيئًا تخُصُّني به من بين عمومِ عبادِكَ.

قوله: «**قال**» أي: الربُّ سبحانه وتعالى مبينًا لموسى وغيرِهِ فضلَ هذهِ الكلمةِ على غيرها من ألفاظِ الذكرِ، «**لَو أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ**» أي: الطِّباق، «**وعامرهن**» أي: من فيهن من العُمَّار «**غيري**» أي: غير الله سُبحانَهُ في السَّماءِ.

«**فِي كِفَّةٍ**» أي: إحدى كفتي الميزان، «**وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ**» أي: في الكفةِ الأُخرى، «**مَالت بِهِنَّ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» أي: رجَحَتْ بالسَّمَوَاتِ السبعِ ومَنْ فيهنَّ غَيْرَ الله، وبالأرضينَ السبعِ ومن فيهنَّ، وذلك لما اشْتَمَلتْ عليهِ هذه الكلمةُ من نفي عبادةِ غيرِ الله، وإثباتِ العبادةِ لله،

---

(١) **أبو سعيدٍ الخدريُّ**: هو أبو سعيدِ الخُدريُّ سعدُ بن مالكِ بنِ سنانٍ الخزرجيُّ الأنصاريُّ الخدريُّ نسبةً إلى بني خدرةَ، صحابيٌّ جليلٌ وابنُ صحابيٍّ، روى عَنِ النبيِّ ﷺ أحاديثَ كثيرةً، مات سنة ٧٤هـ.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيح» (٦٢١٨)؛ والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٨) وصححه، ووافقه الذهبي؛ وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٥٨٨).

وَلِلتِّرْمِذِي -وَحَسَّنَهُ- عَن أَنَسٍ(١): سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ»(٢).

وتقريرِ التوحيدِ، وإبطال الشِّركِ.

قوله: «**عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا**» قُرَاب الأرض: ملؤها أو ما يقاربُهُ «**لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ**».

فيه: أنَّ مغفرةَ الذنوبِ مشروطٌ بتجنبِ الشركِ، وفيه فضلُ التّوحيدِ، وفيهِ الردُّ على الخوارجِ الذين يكفّرونَ بالكبائرِ، وفيهِ سعةُ فضلِ الله ورحمتِهِ.

---

(١) **أنسٌ**: هو أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ الأنصاريُّ الخزرجيُّ خادمُ رسولِ الله ﷺ، خدمَهُ عشرَ سنين، وقال النبيُّ ﷺ: «**اللّهُمَ أكثرْ مالَهُ وولَدَهُ وأدخِلْهُ الجنةَ**»، ماتَ سنة ٩٢ وقِيلَ سنة ٩٣هـ وقد جاوزَ المائةَ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من طريق كثير بن فائد حدثنا سعيد بن عبيد قال: سمعت بكر ابن عبد الله المزني يقول: حدثنا أنس... وذكره. قلت: رجال إسناده ثقات غير كثير بن فائد، وثقه ابن حبان فقط، وذكر الحافظ في بالتقريب»، أنَّه مقبول. لكنْ للحديث شاهد يصح به من حديث أبي ذر عند مسلم (٢٦٨٧) ولفظه: «... ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا، لقيته بمثلها مغفرة»، وآخر عن ابن عباس عند الطبراني في «الكبير» (١٢٣٤٦) و«الأوسط» (٥٤٨٣) و«الصغير» (٨٢٠).

الباب الثالث

بَاب مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قوله: «**مَنْ حَقَّقَ التّوحيدَ دخَلَ الجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ**» تحقيقُ التوحيدِ: تصفيتُهُ من الشركِ والبدعِ والذنوبِ.

فإنْ قيلَ: «**باب فضل التوحيد**»، و«**باب من حقَّقَ التّوحيد**» ما الفرقُ بينهما؟

الفرقُ: فضلُ التّوحيدِ في حقِّ الموحِّدِ الذي ليسَ عندَهُ شركٌ، ولكنْ قَدْ يكونُ عندَهُ بعضُ المعاصي التي تُكَفَّرُ بالتوحيدِ. أما هذا البابُ فهو أعلى من البابِ الذي قبلَه: «**من حقق التوحيد**» يعني: أنه لم يُشْركَ بالله شيئًا، ولم يكُنْ عندَهُ شيءٌ من المَعاصي، هذا تحقيقُ التّوحيدِ ومن بلغَ هذه المرتبةَ دخَلَ الجنَّةَ بلا حسابٍ.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[**سورة النحل: ١٢٠**]» وصفَهُ الله تعالى في هذهِ الآيةِ بأرْبَعِ صفاتٍ، كُلُّها من تحقيقِ التّوحيدِ:

الصفة الأولى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ والأُمَّةُ معناها: القُدْوَةُ في الخيرِ، فهو إمامٌ للناسِ، قُدْوة لأَهلِ الخيرِ إلى أَنْ تقومَ السَّاعةُ.

الصفة الثانية لإبراهيم أنه: ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾أي: مداومًا وثابتًا على طاعةِ الله، لا يتزحزحُ عنها. وكذلك ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾يعني: أنهُ يعملُ هذا مُخْلصًا لله، لا يقصدُ به رياءً ولا سُمْعةً.

الصفة الثالثة: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيفُ من الحَنَف، والمرادُ به هنا: الإقبالُ على الله، وأنه مُعْرِضٌ عَنِ النَّاسِ مُقبلٌ على الله ﷻ، يطلُبُ الخَيْرَ من الله وحدَهُ.

وقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٥٩].

وعَن حُصَينٍ[١] بنِ عَبدِ الرَّحمنِ قَالَ: كنتُ عِندَ سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ[٢] فقَالَ: أيُّكُمْ رَأى الكَوكَبَ الَّذِي انقَضَّ البَارِحَةَ؟ ....

الصفة الرابعة: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ وهذا محلُّ الشَّاهِدِ من البابِ، ومعناه: أنه تبرَّأ من المشركينَ، براءةً تامَّةً، أي: قطَعَ ما بينَهُ وبينَ المشركينَ مِنَ المودَّةِ من أجلِ الله ﷻ؛ لأنَّهم أعداءُ الله، والمؤمنُ لا يحبُّ أعداءَ الله.

فإبراهيمُ عليه السلام لم يكنْ من المشركينَ لا بقليلٍ ولا بكثيرٍ، قطَعَ صلةَ المحبةِ بينَهُ وبينَهُم، أما صلةُ التعاملِ الدُّنيويِّ في المصالحِ المباحةِ فهذا شيءٌ آخرُ، إنَّما المرادُ قطعُ صلةِ المحبةِ والموالاةِ والمُناصرةِ، هذا هو المطلوبُ، أما التعاون الدُّنيويُّ فيما فيهِ نفعٌ للمسلمينَ، فهذا لا بأسَ به.

ثمَّ قالَ الشيخُ رحمه الله: «**وقال:** ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

هذا هو تحقيقُ التّوحيدِ، لا يشركونَ أبدًا، شركًا أصغرَ ولا شركًا أكبرَ، يعني: لا يقعُ منهم شركٌ أبدًا، هؤلاءِ الذينَ حققوا التّوحيدَ وَسلِموا من الشركِ الأكبرِ والأصغرِ والخفيِّ والجَليِّ، وكلِّ أنواعِ الشركِ والبدعِ والمخالفاتِ.

قال: «**عَنْ حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟**» الكوكبُ معناه: الشِّهابُ الذي يُرمَى به الشياطينُ الذين يَسْتَرِقُون السَّمْعَ، «**الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ**»، أي: الذي سقَطَ.

---

(١) هو حصينُ بنُ عبدِ الرحمنِ السلميُّ الحارثيُّ، من تابعي التابعين، ماتَ سنة ١٣٦هـ وله ٩٣ سنة.

(٢) **سعيدُ بنُ جبيرٍ**: هو الإمامُ الفقيهُ من أجِلةٍ أصحابِ ابنِ عباسٍ، قتلَهُ الحجاجُ سنة ٩٥هـ ولم يُكملَ الخمسينَ.

فَقُلتُ: أَنَا، ثم قُلتُ، أَمَا إِنِّي لَم أَكُن فِي صَلَاةٍ، وَلكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعتَ؟، قُلتُ: ارتَقَيتُ(١). قَالَ: فَمَا حَمَلكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشّعْبيّ(٢). قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُم؟ قُلتُ: حَدَّثَنَا عَن بُرَيدَة(٣) بنِ الحُصَيْبِ؛ أَنَّهُ قَالَ: لا رُقيَةَ إِلَّا مِن عَينٍ أو حُمَةٍ. ....

قوله: «**فقُلْت: أَنَا**» يعني: أنا رأيتُ الكوكبَ، فدلَّ هذا على أنَّ هذا الرجلُ لم يَنَمْ. ثُمَّ إنه خَشِيَ على نفسِه من الرياءِ، فاستدركَ وقال: «**أَمّا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ**» يعني: لا تظنوا أني سهِرْتُ أتهجَدُ، خشِيَ على نفسِهِ الرياءَ، أن يُمْدَحَ بشيءٍ ليس فيه.

قوله: «**وَلكِنِّي لُدِغْتُ**» يعني: السَّبب في كوني كُنْتُ مستيقظًا وقتَ نزولِ الشِّهابِ أنني لُدِغْت، واللّدْغ معناه: إصابةُ ذاتِ السمومِ من العقاربِ ونحوِها.

قوله: «**قَالَ: فَمَا صَنَعْت؟**» لأنَّ من عادةِ المَلْدُوغِ أنه يتعاطى شيئًا من العلاجِ.

قوله: «**ارْتَقَيْتُ**» يعني: طلبتُ من يَرْقِينِي بالقرآنِ.

قوله: «**قالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى هذَا**» هذا فيه أنَّ السلفَ يطلبونَ الدليلَ على ما يفعلونَ وما يقولونَ.

قوله: «**قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنِيهُ الشَّعْبِيُّ**» يعني: هذا دليلي على ما فعلتُ.

«**قال: وما حدّثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحُصيب أنه قالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**» لا رُقيةَ يعني: أَنْفَعَ وأَشْفى إلَّا من عينٍ، أي: إصابة العينِ بسببِ الحسدِ الذي يكونُ في بعضِ الناسِ، إذا نظرَ إلى الأشياءِ أُصيبتْ على أثرِ نظرتِهِ، لأنَّ نظرَهُ مسمومٌ، وهذا من عجائبِ

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ، والذي في مسلم (٢٢٠): استرقيتُ.

(٢) **الشَّعبيُّ**: اسمُهُ عامرُ بنُ شُراحيلَ الهمدانيُّ، وُلِدَ فِي خلافةِ عمرَ، من ثقاتِ التابعين، ماتَ سنة ١٠٣هـ.

(٣) **بريدةُ**: بضمِّ أولِهِ وفتح ثانيه، ابنُ الحصيبِ بنِ الحارثِ الأسلميُّ، صحابيٌّ شهيرٌ، مات سنة ٦٣هـ.

قَالَ: قَد أَحسَنَ مَنِ انتَهَى إِلى مَا سَمِعَ. وَلَكِن حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ[١] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، ....

خلقِ اللهِ ﷻ وقدرتِهِ، أنه يجعلُ بعضَ الأنظارِ مسمومةً، إذا نظَرَ صاحبُها إلى شخصٍ، أو إلى حيوانٍ، أو إلى شيءٍ، أُصيبَ بإذنِ اللهِ ﷻ.

قوله: «**أَوْ حُمَةٍ**» الحُمَة هي: اللَّدْغةُ من ذواتِ السّموم، وهذا محلُّ الشاهدِ من الحديثِ لما فعلَهُ حصينٌ رحمه الله.

قوله: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**» قال العلماء[٢]: هذا من بابِ التأكيدِ، لا من بابِ الحَصْرِ، فالرُّقيةُ تنفعُ من غيرِ العينِ والحُمَةِ أيضًا ومِنْ سائرِ الأمراضِ، ولكنْ أنفعُ ما يُشْفى بالرُّقيةِ هذانِ المرضانِ: العينُ والحُمَة.

ولما أتى حُصينُ بنُ عبدِ الرحمنِ بالدليلِ على ما فَعَلَ، قالَ لهُ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رحمه الله: «**قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ**» أثنى عليه، وصوَّبَهُ على هذا العملِ، وأنه عَمِل عملًا جائزًا ومباحًا، واستدلَّ بدليلٍ صحيحٍ عن النبيِّ ﷺ، فتأدّبَ سعيدٌ معَ الحديثِ.

قوله: «**وَلَكن: حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ**» معناه أنَّ: سعيدَ بنَ جُبيرٍ عندَهُ دليلٌ آخرُ، العملُ به أحسنُ من العملِ بحديثِ حُصينِ بنِ عبدِ الرحمنِ، فأرادَ أنْ يُرَقِّيَه من الحسنَ إلى الأحْسنِ.

قال: «**عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ**» أي: أُرِيَ الأُمم السَّابقة. قيل: كان هذا ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ.

---

(١) **ابنُ عباسٍ**: هو الصحابي الجليل عبدُ الله بنُ عباسِ بنِ عبد المطلبِ. ابنُ عمِّ النبيِّ ﷺ دعا له النبيُّ ﷺ فقالَ: **اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدينِ وعلِّمْهُ التأويلَ**» فكانَ كذلك، وماتَ بالطائفِ سنة ٦٨هـ.

(٢) انظر: «عون المعبود» (١٠/ ٢٧١)؛ و«تحفة الأحوذي» (٦/ ١٨١)؛ و«فيض القدير» (٦/ ٤٢٦).

فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فظَنَنتُ أَنَّهُم أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَومُهُ. فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ» ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنزِلَهُ. فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولئِكَ، ....

«**فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ**» الرَّهْط: هم الجماعةُ دونَ العشرةِ، يعني: لم يتبَعهُ من أمتِهِ إلَّا دون العَشْرة، وبقيةُ الأمةِ كفروا به.

«**وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُل والرَّجُلانِ**» هذا أقلُّ، تبعَهُ مِنْ قومِهِ رجلٌ أو رجلانِ، والبقيةُ أَبَوْا أن يؤمنوا باللهِ ورسولهِ.

«**وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» فيه من الأنبياءِ مَنْ كذَّبهُ قومُهُ كلُّهم، ولم يتبعْهُ أحدٌ.

قوله: «**إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ**» السواد هو: الأشباحُ البعيدةُ.

«**فظننتُ أَنَّهُم أُمَّتِي**» ظنَّ النبيُّ ﷺ أنَّ هذا السوادَ العظيمَ هُوْ أمتُهُ.

«**فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ**» هذا فيه فضلُ موسى عليه السلام، كليمُ اللهِ، وأنه اتَّبعَهُ من قومِهِ خَلْقٌ كثيرٌ، آمنوا به واتبعوه.

قوله: «**فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُم سَبْعُونَ أَلفًا يَدخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ**».

قوله: «**ثُمَّ نَهَضَ**» أي: قام.

«**وَدَخَلَ مَنْزِلَهُ**» دونَ أن يبيِّنَ من هم هؤلاءِ السبعون الألف.

قوله: «**خَاضَ النَّاس فِي أُولَئِكَ**» يعني: بحثوا مَنْ هم؟

فَقَالَ بَعضُهم: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبوا رَسولَ الله ﷺ. وقَالَ بَعضُهم: فَلَعَلَّهُم الذين وُلِدُوا في الإسلَامِ فَلَم يُشرِكُوا بِالله شَيئًا. وذَكَروا أَشياءَ. فَخَرجَ عليهِم رَسُولُ الله ﷺ فَأخبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَكتَوونَ، ولا يَتَطَيَّرُون، ....

قوله: «**فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ**» لأنَّ أفضلَ الأمةِ همُ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا أحد يساوي الصحابةَ في الفضيلةِ.

قوله: «**وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَعَلَّهُمِ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا**» يعني: الذين وُلدوا بعد بِعْثَةَ النبيِّ ﷺ من أولادِ المسلمينَ، وبقُوا على الفطرةِ الصحيحة، وآمنوا بالله ورسوله، ولم يشركوا بالله شيئًا.

يدلُّ على خطرِ الشركِ، وأنَّ الإنسانَ لو وُلِدَ في الإسلامِ فإنَّ هذا لا يَكْفي، لا بُدَّ أن يَسْلمَ من الشركِ، ولا يَسْلمُ من الشِّرْكِ إلَّا إذا عرفَهُ وعرَفَ طرقَهُ، حتى يتجنَّبَهُ ويحذِّرَ منه.

قوله: «**ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهُم رَسُولُ الله ﷺ فَأَخْبَرُوهُ**» ذكروا ما بَحثوا فيه، وما خاضوا فيهِ، والاجتهادات التي أبدَوْها حولَ هذا الأمرِ.

قوله: «**قَالَ: هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ**» يعني: لا يطلبونَ من غيرِهم أن يَرقِيَهُم؛ لأنَّ طلبَ الرُّقيةِ من النَّاسِ سؤالٌ للمخلوقِ، والسؤالُ للمخلوقِ فيهِ ذِلَّةٌ، فهم يستغنونُ عن النَّاسِ، ويعتمدونَ على اللهِ ﷻ، وهذا مِنْ تمامِ التّوحيدِ: أنَّ الإنسانَ لا يسألُ النَّاسَ.

قوله: «**وَلَا يَكْتَوُونَ**» كذلك لا يطلبونَ من غيرِهم أن يكويَهم بالنَّارِ من أجلِ العلاجِ.

قوله: «**وَلَا يَتَطَيَّرُونَ**» التطيُّر هو: التشاؤم بالطيورِ وغيرِها.

فهؤلاءِ السبعونَ الألف استحقوا هذهِ المنزلةَ، لأنَّهم تركوا أمورًا محرّمةً وهي الطيرةُ، أو

وعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عُكّاشَةُ[1] بنُ مِحْصَنٍ، فقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجْعَلَنِي مِنْهم قَالَ: «أَنتَ مِنهُم»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَني مِنهُم، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكّاشَةُ»[2].

مكروهةً، وهي طلبُ الرُّقيةِ والكيِّ من الناسِ، فهم تركوها استغناءً عن النَّاسِ، وتوكلًا على الله ﷻ. أما أنَّ الإنسانَ يَرْقِي نفسَهُ أو يَرْقِي غيرَهُ، فهذا فعلَهُ النبيُّ ﷺ فرقَى نفسَهُ ورقَى غيرَهُ ورقاهُ غيرُهُ فلا كراهةَ في ذلكَ. تبقى قضيةُ التداوي بالمباحِ كالحبوبِ مثلًا، أو بالأعشابِ، أو بإجراء العمليَّات الجراحيّةِ واستئصالِ الأورامِ أو الزوائدِ؛ فهذا مباحٌ، مِنْ غيرِ كراهةٍ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**تَدَاوَوْا ولا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[3].

قوله: «**فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ**» هذا فيه مشروعيةُ طلبِ الدعاءِ من أهلِ الخيرِ، الأحياءِ.

«**قال: أَنْتَ مِنْهُمْ**» أخبرَ ﷺ أنَّ عُكَّاشةَ من السبعينِ الألف الذينَ يدخلونَ الجنةَ بلا حسابٍ ولا عذابٍ، وقد وَقَعَ ما أخبَرَ به ﷺ، فإنه قُتِلَ شهيدًا في سبيلِ الله ﷻ.

«**ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادعُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي مِنهُم، قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكّاشَةُ»**» كأنَّ الرسولَ ﷺ علِمَ أنَّ هذا الرجلَ لا يصلُ إلى هذهِ المرتبةِ، ولكنْ ما جابَهَهُ بكلامٍ يكرهُهُ، ولم يقلْ له: أنتَ لا تَسْتَحق، أو أَنْتَ لستَ من أهلِ هذه المنزلةِ، وهذا من حُسن أدبِ الرسول ﷺ بل جاءَ بكلمةٍ لم تُؤَثِّرْ على الرجلِ، وهي وافيةٌ بالمقصودِ، فقال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

---

(١) **عُكَّاشَةُ**: هو عكاشةُ بنُ محصنِ بنِ حرثانَ الأَسديُّ كانَ مِنَ السابقينَ إلى الإسلامِ، هاجرَ وشهدَ بدرًا وقاتلَ بها، واستشهدَ في قتالِ الردةِ مع خالدِ بنِ الوليدِ سنة ١٢هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)؛ ومسلم (٢٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٨٧٤)؛ والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٥).

الباب الرابع
بَاب الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ

وَقولُ الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. **وَقَالَ الخَلِيلُ** عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. **وَفِي الحَدِيثِ قَالَ: «أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: «الرِّيَاءُ»**(١).

هذا البابُ في ضدَّ التَّوحيدِ وهو الشِّرْكُ، لأنه لا يكفي أنّ الإنسانَ يعرفُ التّوحيدَ ويعملُ به، بل لا بدّ أن يعرفَ ضدَّه وهو الشركُ، خشيةَ أن يقعَ فيه، ويُفسدَ عليه توحيدَه.

قال: «**وقول الله** ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ **[النساء: ٤٨]**». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ هذا فيه خطورةُ الشركِ، فالله لا يَغْفرُ للمشركِ مع أنَّ رحمَتَهُ وسعَتْ كُلَّ شيءٍ، ولكنَّ المشركَ لا يدخلُ فيها، لعِظمِ جريمتِهِ والعياذُ بالله، فمَنْ ماتَ على الشِّرْكِ فإنه لا يُغْفرُ له.

قوله: «**وقال الخليلُ** عليه السلام: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ **[سورة إبراهيم: ٣٥]**».

قوله: «﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾» أي أَبعدْني واجْعلني في جانبٍ بعيدٍ «﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾» خافَ مِنْ عبادتِها. مع هذهِ المنزلةِ العظيمةِ التي نالَها إبراهيمُ عليه السلام مِنْ ربِّه، ومعَ أنه قاومَ الشركَ وكسَرَ الأصنامَ بيدِهِ، وتعرَّض لأشدِّ الأذى في سبيلِ ذلك حتى أُلقيَ في النارِ، مع ذلكَ خافَ على نفسِهِ من الوقوعِ في الشِّركِ، لأنَّ القلوبَ بينَ أصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ، والحيُّ لا تؤمنُ عليهِ الفتنةُ.

قال: «**وَفِي الحَدِيثِ**» أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ لأصحابِهِ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ**

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨)؛ والبغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥).

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ الله نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» رواهُ البُخاريُّ[1]. **وَلِمُسلِمٍ**[2] **عَن جَابِرٍ**[3] **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ النَّارَ».**

الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فسُئِلَ عنه فقالَ: «**الرِّيَاءُ**» والرياءُ معناه: أن الإنسانَ يتصنَّعُ أمامَ النَّاسِ بالتقوى، والعملِ الصالحِ، وإتقانِ الصلاةِ، وغيرِ ذلك، من أجلِ أنْ يمدحوهُ، فالرياءُ من الرؤيةِ.

والرياءُ شركٌ خفيٌّ، لا يدري عنهُ الناسُ، لأنه في القلب، لا يعلمُهُ إلَّا الله ﷻ، وهو الشركُ في النيّةِ والإرادةِ، فالإنسانُ إذا سَلِم من الشركِ الأكبرِ فإنه قد لا يسلمُ من الشركِ الأصغرِ الذي يكونُ في القلوبِ، وهذا مما يُعطي المؤمنَ الحذرَ الشديدَ.

قال: «**وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قال: مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**» هذا خبرٌ من الرسول ﷺ أنَّ مَنْ ماتَ على الشركِ فهو من أهلِ النارِ، ولا يُغفرُ له. ولاحظوا كلمةَ «شيئًا» تعمُّ الشركَ كلَّه، ما أشركَ معَ الله من نبيٍّ أو وليٍّ أو ملكٍ، لأنَّ الشركَ لا يقبلُهُ الله أبدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨].

قال: ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ**» هذا فيه فضلُ التّوحيدِ، وأنَّ مَنْ ماتَ عليهِ دخلَ الجنةَ، وهذا وعدٌ من الله ﷻ، والله لا يُخلفُ وعدَه، حتى ولو كانَ عندَه ذنوبٌ ومعاصٍ دونَ الشرك، فقد يغفرُها الله له ويدخلُهُ الجنةَ من

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٩٧).

(٢) برقم (٩٣).

(٣) **جابرٌ**: هو جابرُ بنُ عبدِ الله بن عمروِ بنِ حرامٍ الأنصاريُّ السلميُّ، صحابيٌّ جليلٌ مكثرٌ، ابن صحابيٍّ، ماتَ بالمدينةِ بعدَ السبعينَ وله أربعٌ وتسعونَ سنةً.

غيرِ عذابٍ، وقد يعذبُهُ الله بها ثم يدخلُهُ الجنة، فمآلُ الموحِّد إلى الجنةِ، إما ابتداءً وإما في النهايةِ.

فقوله: «**مَنْ لَقِيَ اللهَ**» يعني: مات.

«**وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**» هذا مثلُ حديثِ ابنِ مَسْعود، مَنْ مات على الشِّركِ، فإنه من أهلِ النَّار، نسألُ اللهَ العافيةَ.

فهذا فيهِ الحذرُ مِنْ سوءِ الخاتمةِ.

الباب الخامس
بَاب الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَن لا إِلَهَ إلا اللّٰهُ

وَقَولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ **الآية** [يوسف: ١٠٨].

قالَ المؤلفُ رحمه الله: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**» أي: الدعوةُ، وأنّ المُسْلمَ الذي مَنَّ اللهُ عليهِ بمعرفةِ التَّوحيدِ، ومعرفةِ الشِّركِ الأكبرِ والأصغرِ، ويَسْكت على ذلك، كما هو واقعٌ كثيرًا من طلبةِ العلمِ والعلماءِ. بهذا ضيَّعوا واجبًا عظيمًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قلْ يا محمدُ للنَّاسِ.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ السبيلُ معناها: الطريقُ التي أسيرُ عليها.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ إلى توحيد الله عز وجل وإفرادِهِ بالعبادةِ.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ البصيرةُ معناها: العلمُ، بل هي أَعْلى درجاتِ العلمِ.

وفي هذا دليلٌ على أنَّهُ يُشْتَرَطُ في الداعيةِ أن يكونَ على بصيرةٍ، أي: على علمٍ بما يدعو إليهِ.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ أي: وأَتْباعي يدعونَ إلى الله على بصيرةٍ، فدلَّ على أنَّ مَنْ لم يَدعُ إلى الله لم يُحقِّق اتباعَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم وأنَّ مَنْ دعا إلى الله على جهلٍ لم يُحقِّق اتباعَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، بل إنَّهُ أدخلَ نفسَهُ فيما ليسَ مِنْ شأنِهِ، وصارَ خطرًا على الدعوةِ، وعلى الدُّعاةِ.

ثُمَّ قالَ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سبّحَ بمعنى: نَزَّه الله عما لا يليقُ به من الشركِ والقولِ عليه سبحانه وتعالى بلا علمٍ.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذه براءةٌ من الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركينَ.

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله. (وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَّحدُوا الله). فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. ....

قوله: «**بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ**» البعثُ معناه: الإرسالُ.

قوله: «**قال له: إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**» المرادُ بهم: اليهودُ والنَّصارى، سُمُّوا أهل الكتابِ لأنَّ الله أنزلَ علَيْهم التوراةَ والإنجيلَ. وقصْدُ النبي ﷺ من هذا أن يتأهّبَ معاذٌ لَمَنْ سيقدمُ عليهم، وأنهم أهلُ كتابٍ يحتاجون إلى استعدادٍ علميٍّ للمجادلة والمُناظرةِ.

قوله: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدعُوهُم إِلَيهِ: شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله**» هذا فيه التدرّجُ في الدعوةِ، وأنه يبدأ بالأهمِ فالأهمِّ، وهذهِ طريقةُ الرُّسلِ، أنهم أولُ ما يبدؤونَ بالدعوةِ إلى شهادةِ أنَّ لا إلهَ إلَّا الله، لأنَّها الأصلُ والأساسُ، الذي يُبنى عليه الدينُ، ثم بعدَ ذلك يأمرهُم ببقيةِ أوامرِ الدِّينِ.

قوله: «**وفي رواية: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ**» جاءَ الشيخُ بهذه الروايةِ، لأنَّها تفسِّرُ شهادةَ أن لا إله إلَّا الله، بأنَّ معناها: توحيدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإفرادُه بالعبادةِ.

قول: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ**» يعني: شهدوا أَنْ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسولُ الله وعملوا بمقتضاهما.

قوله: «**فَاَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**» هذا الركنُ الثاني. لما حققَ الركنَ الأولَ والأساسَ، انتقلَ إلى الركن الثاني وهو الصلاةُ، وهذا يدلُّ على أهميةِ الصلاةِ، وأنها تأتي بعدَ التّوحيدِ مباشرةً.

فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ. فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَلِهِمْ. وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ». أَخرَجَاهُ[1]. وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ[2] بنِ سَعْدٍ ﵁: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَومَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ ....

قوله: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**» هذه هي الزكاةُ، وهي قرينةُ الصلاةِ في كتابِ اللهِ وفي سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ وهي الركنُ الثالثُ من أركانِ الإسلامِ.

قوله: «**فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَلِهِمْ**» الكرائمُ جمعُ كريمة وهي: النفيسةُ من المالِ، يعني: لا تَأْخُذْ مِن الزكاة أحسنَ الأموالِ، لأنَّ هذا فيه إجحافٌ بهم، كما أنك لا تَأْخُذْ أردأ المالِ، لأنَّ هذا فيهِ ظلمٌ للفقراءِ، ولكنْ خُذ المتوسطَ، بينَ النفيسِ وبينَ الرديءِ.

قوله: «**وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ**» يجبُ على الراعي والأميرِ وكلِّ مسلمٍ أن يحذَرَ من دعوةِ المظلومِ، فإنه ليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ، أي دعوةُ المظلومِ مستجابةٌ، حتى ولو كانَ كافرًا.

قوله: «**عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قالَ يوم خيبر لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ**»، الرايةُ هي: العَلَمُ الذي يحملُهُ الجُندُ، مِنْ أجلِ أَنْ يهتدوا به، ويَلْتَفُّوا حولَه في القتالِ.

قوله: «**رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**»، هذه مِيزةٌ عظيمةٌ لهذا الرجلِ الذي يُعطيه رسولُ اللهِ ﷺ الرايةَ، ففيهِ فضلُ عليِّ بن أبي طالبٍ ﵁.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦)؛ ومسلم (١٩)؛ والرواية المشار إليها أخرجها البخاري (٧٣٧٢).

(٢) **سهلُ بنُ سعدٍ**: هو سهلُ بنُ سعدِ بن مالكِ بن خالدٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ الساعديُّ، صحابيٌّ شهيرٌ مات سنة ٨٨هـ.

يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ». فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا. فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَن يُعطاها، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟». فَقِيلَ: هُوَ يَشْتكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرسَلُوا إِلَيهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ؛ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ. فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ

قوله: «يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ» هذه الميزةُ الثانيةُ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ أنَّ اللهَ ﷻ يفتحُ هذا البلدَ المستعصيَ على يدِ هذا الوليِّ من أوليائِهِ.

قوله: **«فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ»** يعني: ذهبوا إليهِ مُبكِّرينَ.

قوله: «كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا» أي: كلٌّ يرجو أن يكونَ هو ذلكَ الرجلُ، لرغبتهم في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وإعلاءِ كلمةِ اللهِ، والحصولِ على هذهِ البشارةِ العظيمةِ.

قوله: «قال: أين علي؟» هذا تَفَقُّدٌ للجندِ.

قوله: «قيل: هو يشتكي عينيه» أي أصابَهُ رمدٌ، وهو مرضٌ من أمراضِ العيونِ.

قوله: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ» أرسلَ إليه من يَأْتي به.

قوله: «فَأُتِيَ بِهِ، فبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ» يعني: تفلَ مِنْ ريقهِ الطيبِ الطاهرِ في عيني علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «وَدَعَا لَهُ» بالشفاءِ.

قوله: «فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ» وهذا أيضًا من معجزاته ﷺ.

قوله: **«فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ»** دفعها إليه، ثم إنهُ ﷺ أرشدَهُ وأوصاه وقال: **«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ»** **«انْفُذْ»** يعني: امضِ، **«عَلَى رِسْلِكَ»** يعني: على هيئتك لا تُسرعْ في المشي ولا يكونُ هناكَ أصواتٌ

حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالى فِيهِ فَوَاللهِ لَأَن يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ»[١]. يَدُوكُونَ أَي: يَخُوضُونَ.

أو صخبٌ، بل يكونُ هناك هدوءٌ تامٌ، وسيرٌ بالرفقِ.

قوله: «**حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ**» أي: حتى تنزلَ قريبًا من الحصنِ.

وقوله: «**ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسلَامِ**» هذا محلُّ الشاهدِ من الحديثِ للباب، «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**».

حيثُ قال: «**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**» فهذا فيه دليلٌ على وجوبِ الدعوةِ إلى الإسلامِ، وأنَّ العدوَ يُدعى قبلَ أن يُقاتَلَ، ولا يُبدَأُ بالقتالِ قبلَ الدعوةِ.

قوله: «**وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ تَعَالَى فِيهِ**» يعني: اشرحْ لهم معنى الإسلامِ، وبيّنه لهم، وما يجبُ عليهم مِنْ حقِّ اللهِ تعالى فيه من الصلاةِ، والزكاةِ، والصيامِ، والحجِّ، وغير ذلك من أركانِ الإسلامِ.

ثم بيَّنَ ﷺ فضيلةَ الدعوةِ إلى اللهِ، فقال: «**فَوَاللهِ**» أَقْسَمَ ﷺ وهو الصادقُ المصدوقُ.

«**لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ**» هذا ترغيبٌ في الدعوةِ إلى اللهِ ﷻ. «**حُمْرُ النَّعَمِ**» الإبل الحُمْر، جَمْع حَمْراء، وهي الناقةُ النفيسةُ، لأنَّ الإبلَ الحُمْرَ أنفسُ أموالِ العربِ. فكيفَ إذا اهتدى على يديكَ جماعةٌ؟ أو اهتدى على يدكَ أمةٌ، أو اهتدى على يدِكَ أجيالٌ تأتي مِنْ بعدك؟ هذا فيه: فضلُ الدعوةِ إلى الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٢)؛ ومسلم (٢٤٠٦).

الباب السادس

بَاب تفسير التوحيدِ وشَهَادَةِ أَن لا إِلَهَ إلا الله

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

مناسبةُ هذا البابِ لما قبلَه ظاهرةٌ؛ لأنَّ البابَ الذي قبلَه: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله**»، وهذا البابُ في تفسيرِ هذهِ الكلمةِ، وبيانِ معناها؛ لأنَّ الذي يدعو إلى شيءٍ ويطلبُ من النَّاسِ أَنْ يفعلوهُ، فلا بدَّ أَنْ يُبينه لهم، ويُوضّحَه لهم توضيحًا تامًّا.

وقولُ الشيخ: «**تفسير التّوحيد، وَشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» هذا من عطفِ الدَّالِّ على المدلولِ، المدلولُ هو التّوحيدُ، وشهادةُ أَنْ لا إله إلَّا الله هو الدالُّ، والشيخُ جمعَ بينهما في الترجمةِ ليبيِّنَ أنَّ معناهما واحدٌ، فمعنى التّوحيدِ هو لا إله إلَّا الله، ومعنى لا إله إلَّا الله هو التّوحيدُ.

قوله تعالى: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾»، بيَّنَ ﷻ أنَّ هؤلاء الذين تدعونَهم من دونِ الله أنهم عبادٌ لله، هم بأنفسِهم يدعونَ اللهَ ﷻ؛ يرجونَ رحمتَهُ، ويخافونَ عذابَهُ، فالملائكةُ وعيسى عليه السلام وأُمُّه، وعُزَيْر، وكلُّ الصالحينَ، والأولياءِ بهذهِ المثابةِ، كلهم يبتغونَ إلى ربِّهم الوسيلةَ.

والوسيلةُ معناها في الأصلِ: السببُ الذي يُوَصِّلُ إلى المقصودِ.

وأمَّا معناها هنا: فالوسيلةُ: الطاعةُ والقُربُ، كلُّهم يتقربونَ إلى الله بالطاعةِ، يعبدونَ اللهَ لأجلِ أيِّ شيء؟ ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ كلُّ واحدٍ يرجو أن يكونَ أقربَ إلى الله ﷻ، يتقرّبونَ إليه بطاعتِهِ، ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فدلَّ على أنَّهم عبادٌ فقراءُ إلى الله ﷻ، يرجونَ رحمةَ اللهِ لأنهم بحاجةٍ إليها، ويخافونَ عذابَ اللهِ أن ينزلَ بهم، إذًا هم لا يستطيعونَ

وَقَولُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية [الزخرف: ٢٦-٢٧].

أَنْ يجلبوا لأنفسِهم النفعَ، ولا يستطيعونَ أن يدفعوا عنها الضررَ، فكيفَ يملكونَ ذلك لكم يا مَنْ تَعْبُدونهم؟

هذهِ الآيةُ: تدلُّ على أنَّ مِنْ مَعْنى لا إله إلَّا الله أن يُصرَفَ الدعاءُ والتقرّبُ والعبادةُ لله ﷻ، لا تُصرَفُ لأحدٍ من خلقِهِ بحجَّةِ أنه واسطةٌ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه ﷻ، لأنَّ اللهَ ليسَ بينَه وبينَ عبادِهِ واسطةٌ مِنْ هذا النوعِ.

قوله ﷻ «﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾».

«﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾» أولُ ما بدأَ بأبيهِ. «﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾» الذينَ بعثَه اللهُ إليهم، وهم الأمةُ التي كانَتْ تعبدُ الكواكبَ، وهم الصابئةُ المشركونَ الذينَ كانوا يعبدونَ الكواكبَ.

وقوله: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾» براءٌ وبريءٌ بمعنًى واحدٍ، معناه: قطعُ الصِّلةِ والبعدِ عن المُتبَرَّأ منه.

«﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾» يعني مما تعبدونَ مِنَ الأصنامِ والكواكبِ وغيرِهما.

«﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾» يعني: الله ﷻ، و«﴿فَطَرَنِى﴾» يعني: خلقَني.

وهذا معنى: «**لا إله إلَّا الله**»، لأنَّ قولَه: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾» معناه: النفي؛ لا إله، «﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾» معناه: الإثبات؛ إلَّا الله. فهذهِ الآيةُ فيها معنى لا إله إلَّا الله، إذًا فهي تُفَسِّر «**لا إله إلَّا الله**» بأنَّ معناها تركُ عبادِ الأصنامِ، والبراءةُ منها، وإخلاصُ العبادةِ لله ﷻ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **الآية** [التوبة: ٣١].

«﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ﴾» جعلَ (**لا إله إلَّا الله**) كلمةً باقيةً في عَقِبه، في ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام، فلا يزالُ فيها من يقولُ هذهِ الكلمةَ ويعملُ بها إلى أن بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ بها، ودعا إليها. فلم تَخْلُ الأرضُ من التوحيدِ ولله الحمدُ، ولا تخلوا إلَّا عندَ قيامِ الساعة.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها، ويُحقِّقونها، وهذا حاصلٌ والحمدُ لله، فإنه وإن حصَلَ الشركُ وكثُرَ، فإنَّ من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلام مَنْ يرجعُ إلى التوحيد الصحيح ويدعو إليهِ ويُجدّدُه للناسِ، فهذا من رحمةِ الله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تتمة الآية: ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾ الأحبارُ: جمعُ حَبْر، أو حِبر، وهو العالمُ. والرهبانُ: جمعُ راهبٍ، وهو العابدُ.

والأحبارُ والرهبانُ موجودونَ في اليهودِ والنَّصارى، فاليهودُ والنَّصارى اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دونِ الله بأنَّهم أطاعوهم في تحليلِ الحرامِ وتحريمِ الحلالِ؛ فدلَّ هذا على أنَّ من أطاعَ مخلوقًا في تحليلِ ما حرّمَ اللهُ أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ، فقد اتخذَهُ ربًّا يعبُدُه من دونِ اللهِ، وهذا ما يسميهِ العلماءُ بشركِ الطاعةِ.

والشاهدُ من الآيةِ للبابِ: أنها دلّتْ على أنَّ من معنى (**لا إله إلَّا الله**): أَنْ لا يُطاعَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وأَنَّ مَنْ أطاعَ أحدًا في تحليلِ ما حرَّمَ اللهُ أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ فقد اتَّخَذَهُ ربًّا من دونِ اللهِ.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قوله: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾» تتمة الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

«﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾» بعضُ الناسِ يعني: المشركين.

«﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» يعني: غَيْرِ اللهِ.

«﴿أَندَادًا﴾» جمعُ نِدٍّ، والنِّدُّ معناه: الشبيهُ والنَّظير والمثيلُ.

فاتِّخاذُ الأندادِ مِنْ دونِ اللهِ معناه اتخاذُ الشركاءِ، سُمُّوا أندادًا لأنَّ المشركينَ سوّوهم باللهِ ﷻ، وشبّهوهُم باللهِ ﷻ وأحبُّوهُم محبةَ عبادةٍ وتذلُّلٍ.

«﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾» فالمشركونَ اتخذوا من الأحجارِ والأشجارِ والأصنامِ شركاءَ للهِ سوّوهُم باللهِ في المحبةِ، يحبونَهُم كما يحبونَ الله ﷻ، فالمرادُ هنا محبةُ العبادةِ، فالمشركون يحبونَ أصنامَهم كما يحبونَ اللهَ ﷻ محبةَ عبادةٍ وتذلُّلٍ.

«﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾» من المشركينَ للهِ، فالمشركونَ يحبونَ اللهَ، والمؤمنون يحبونَ اللهَ، ولكنَّ المشركينَ يحبونَ اللهَ ويحبونَ معَهُ غيرَهُ، أما المؤمنونَ فيحبونَ اللهَ وحده، ولا يُشْركونَ معهُ غيرَهُ في المحبةِ.

فدلَّت الآيةُ الكريمةُ على: أنَّ من تفسيرِ **(لا إله إلَّا الله)** وتفسيرِ التّوحيدِ إفرادَ الله بالمحبّةِ، وأَنْ لا يُحَبَّ معَهُ غيرُهُ محبةَ عبادةٍ بل يُفرَدُ اللهُ ﷻ بالمحبّةِ، ولا يُحَبُّ معه غيرُهُ، محبةَ العبادةِ.

وَفِي «الصَّحِيحِ[1] **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله ﷻ». وشرحُ هذِهِ التَّرجمةِ ما بعدَها مِنَ الأبوابِ.**

«**عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله؛ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله**» عَلَّقَ حُرمةَ المالِ والدمِ على شيئينِ:

الشيء الأول: أَنْ ينطقَ بكلمةِ (**لا إله إلَّا الله**).

الشيء الثاني: أَنْ يكفرَ بما يُعبدُ مِنْ دونِ الله، فإذا تحقَّقَ هذانِ الشيئانِ حرُم مالُهُ ودمُهُ، لأنه صارَ مسلمًا، والمُسْلمُ يحرُم دمهُ ومالُه.

«**وَحِسابُهُ عَلَى الله**» فإِنْ كانَ صادقًا في قولِ هذهِ الكلمةِ فإنه يكونُ مسلمًا حقًّا باطنًا وظاهرًا ويدخلُ الجنَّةَ، وإِنْ كانَ قالَهَا ظاهرًا فقطْ فهذا هو النِّفاقُ، وذلكَ يحقنُ دمَهُ ويحرِّمُ مالَه، ولكنَّه في الآخرةِ يكونُ في النَّارِ.

قالَ رحمه الله: «**وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**» أي: أنَّ الأبوابَ الآتيةَ إلى آخرِ كتابِ التّوحيدِ، كلُّها تفسيرٌ لهذهِ الكلمةِ، مثلَ بابِ: (النهي عن لبس الحَلْقَةِ والخيطِ، والتبرك بالأشجارِ والأحجارِ)، وباب (السِّحر)، وباب (التَّنْجيم)، وباب (ما جاء في الطِّيَرة)، وباب (الرُّقى والتمائم)، إلى آخرِ ما في هذا الكتاب من الأبواب، كلُّه يفسِّرُ التّوحيدَ ويفسِّرُ معنى: (**لا إله إلَّا الله**).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣).

الباب السابع

بَاب مِنَ الشركِ: لُبسُ الحَلْقةِ والخَيْطِ ونحوِهِما لرفعِ البلاءِ أَو دَفعِهِ

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ **الآية** [الزُّمر: ٣٨].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «**باب من الشرك**» أي: من أنواعِ الشركِ، «**لبس الحلقة والخيط ونحوهما**» مما يعلَّقُ على أجسامِ الأطفالِ، وعلى السيارات، والدكاكين، والبيوتِ، قَصْدُهُم من ذلكَ أنَّ هذهِ الأشياءَ تدفعُ عنهم الشرورَ والمحاذيرَ، وهذا من الشركِ لأنه تعلُّقٌ على غيرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لأنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا هو الذي يدفَعُ الشرَّ.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، تتمة الآية: ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [**الزُّمر: ٣٨**]».

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: أخبروني: ﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ﴿مَّا﴾ عامَّة لكل ما يُدعَى مِنْ دونِ اللهِ، لا يُستثنى منها شيءٌ سواءٌ كان من البشرِ أو مِنَ الجمادِ أو غير ذلك.

﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ يعني: بضررٍ، أو بفقرٍ، أو بموتٍ، أو أرادني بضياعِ مالٍ، أو إصابةٍ في قريبٍ، أو غيرِ ذلك مما يضرّني.

﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ هَلْ هذهِ المعبوداتُ التي تعبدونَها تستطيع أن تكشِفَ الضرَّ عمّن دعاها؟

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ من صحةٍ وغنى وغيرِ ذلك من أنواعِ الرحمةِ، هل أحدٌ من الخلقِ

عَن عِمْرَانَ[(١)] بِنِ حُصَينٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالَ: مِنَ الوَاهِنَةِ. فَقَالَ: انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، ....

يستطيعُ أَنْ يمنعَ نزولَ الرحمةِ على أحدٍ من عبادِ اللهِ؟ فظَهَرَ بذلكَ عجزُ آلهةِ المشركين.

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو كافيني ولن يستطيعَ أحدٌ أَنْ يَضُرَّني مِنْ دونِ اللهِ أو ينفعني مِنْ دونِ الله.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ولا يتوكلونَ على الحلْقةِ والخيطِ والصَّنمِ والقبرِ والولي أو غيرِ ذلكَ، بل الذي يُتوكَّلُ عليهِ هو اللهُ ﷻ، لأنهُ بيدِهِ مقاديرُ الأشياءِ.

قوله: «**أن النبي ﷺ رأى رجلًا وفي يده حلقة**» الحلْقة هي: الشيءُ المستديرُ الذي يُدارُ على العضدِ، أو على الذِّراعِ، أو على الأصبعِ، فالشيءُ المستديرُ يسمَّى حلْقةً.

قوله: «**من صُفر**» الصُّفر نوعٌ من المعدنِ معروفٌ.

قوله: «**فقال النبي ﷺ: ما هذا؟**» الظاهرُ أنه سؤالُ إنكارٍ، وقيل: إنه سؤالُ استفهامٍ، فالنبيُّ ﷺ سألَه عن قصدِهِ في هذه الحلقةِ.

قوله: «**قال: من الواهنة**» يعني: لبسْتُها من أجلِ دفعِ الواهنةِ، لتقيني منها، والواهنةُ مرضٌ يصيبُ اليد.

«**فقال النبي ﷺ: انزعها**» أي: ارفعها مسرعًا بنزعها ونشيطًا في رفعِها لا تتوانى، في تركِها على جسمِك، لأنها مظهرُ شركٍ والعياذُ باللهِ.

---

(١) **عمرانُ**: هو عمرانُ بنُ حصينِ بنِ عبيدِ بنِ خلفٍ الخزاعيُّ، صحابيٌّ ابنُ صحابيٍّ، أسلَمَ عامَ خيبرَ، ومَاتَ سنة ٥٢هـ بالبصرةِ.

فَإِنَّكَ لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفْلَحتَ أَبَدًا». رَوَاهُ أَحمَدُ(١) بِسَنَدٍ لا بَأسَ بِهِ. وَلَهُ(٢) عَن عُقبَةَ(٣) بنِ عَامِرٍ مَرفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فلا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فلا وَدَعَ اللهُ لَهُ». ....

ثم علَّلَ ﷺ ما في بقائِها عليه من الضررِ، قال: «**فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**» إلَّا ضعفًا.

قوله: «**فَإِنَّكَ لَو مُتَّ وَهِيَ عَلَيكَ مَا أَفْلَحتَ أَبَدًا**» أي: لو مـاتَ ولم يتُبْ منها ما أفلحَ أبدًا. فهذا فيه دليلٌ على أنَّ الشركَ لا يُغفَرُ حتَّى ولو كانَ شركًا أصغرَ، يُعذَّبُ به، وإن كانَ لا يعذَّبُ تعذيبَ المشرِكِ الشِّرْك الأكبر؛ فلا يخلّدُ في النَّارِ، لكِنْ يعذّبُ بها بقدرِهِ.

قوله: «**من تَعَلَّق**» أي: من علّقَ هذا الشيءَ على جسمِهِ، أو علّقَ قلبَهُ به، واعتقدَ فيه أنه ينفعُهُ أو يضُرُّهُ مِنْ دونِ الله ﷻ.

قوله: «**تميمية**» التَمِيمَة: خرزاتٌ تعلّقُ على الأولادِ يتّقونَ بها العينَ، وكذلك ما شابهها من كلِّ ما يُعلَّقُ من الخرزاتِ وغيرِها من الحُرُوزِ والحُجُبِ، فهـذا ليسَ بخاصٍّ بالخرزِ.

قوله: «**وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فلا وَدَعَ اللهُ لَهُ**» الوَدْع: شيءٌ يُستخرَجُ من البحرِ، يُشْبهُ الصَدفَ، يعلقونه على صُدورِهم أو على أعناقِهم أو على دوَابهم يتقون به العينَ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن حبان (٦٠٦٥)، وابن ماجه (٣٠٣١)، ورواية الأخير مختصرة.

وأخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٤٤)، وابن أبي شيبة (٨/ ١٤) من طريق الحسن عن عمران موقوفًا!

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، واب حبان (٦٠٨٦).

(٣) **عقبةُ بنُ عامرٍ**: هو عقبةُ بنُ عامرٍ الجهنيُّ، صحابيٌّ مشهورٌ، وكان فقيهًا فاضلًا وَلِيَ إمارةَ مصرَ لمعاويةَ ثلاثَ سنين، وماتَ قريبًا من الستين.

وفي رواية[1]: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ**». **وَلِابنِ أَبِي حَاتِمٍ عَن حُذَيفَةَ**[2]: **أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيطٌ مِنَ الحُمّى فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَولَهُ**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦][3].

قوله: «**فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ**» هذا دعاءٌ من الرسول ﷺ بأَنْ يَسْلُبَ اللهُ راحتَهُ واستقرارَه وأمنَهُ، ويصبحَ في خوفٍ وهمٍّ وقلقٍ دائمٍ، يخافُ مِنْ كلِّ شيءٍ، إلى أن يتوبَ إلى الله ﷻ.

قوله: «**مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَقَدْ أَشْرَكَ**» هذه فيها زيادةٌ على دعاءِ الرسولِ ﷺ عليه بأنه قَدْ أَشْرَكَ، فهذا تصيبُهُ مصيبتانِ: مصيبةُ دعوةِ الرسولِ ﷺ عليه، والمصيبةُ الثانيةُ في عقيدتِهِ، وهي أنه قد أشرَكَ باللهِ ﷻ باتِّخاذ هذا الشيءِ، وهذا هو الشاهدُ من الحديثِ للبابِ.

فإن قلتَ: ما نوعُ هذا الشركِ؟ هل هو الشركُ الأكبرُ، نقولُ: فيه تفصيلٌ إنْ كانَ يرى أنها تَقيهِ مِنْ دونِ الله فهذا شركٌ أكبرُ. وإِنْ كانَ يعتقدُ أنها سببٌ فقط والواقي هو اللهُ ﷻ فهذا شركٌ أصغرُ لأنَّ اللهَ لم يجعلْ هذهِ الأشياءَ سببًا.

قوله: «**ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحُمّى**» يعني: اتخذَهُ أن يقيَه من الحُمَّى، والحُمَّى: ارتفاع الحرارةِ في الجسمِ. فالرجلُ رَبطَ الخيطَ من أجلِ أن يتقيَ الحُمّى، فحذيفةُ بنُ اليمانِ رضي الله عنه قطعَ هذا الخيطَ من هذا الرجلِ.

قوله: «**وتلا قوله تعالى**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾» أكثر الناس، ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٦).

(٢) **حذيفةَ**: هو ابنُ اليمانِ العبسيُّ، حليفُ الأَنصارِ، صحابيٌّ جليلٌ مِنَ السابقينَ الأولين، ماتَ سنة ٣٦هـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أورده مسندًا صاحب «فتح المجيد» (ص١٢١) وسنده منقطع. لكن أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ١٥) من طريقين عن حذيفة أنه وجد في عضد رجل خيطًا رقي له فيه، فقال: لو مات ما صليت عليه.

....

قيل: معناهُ أنهم لا يؤمنونَ بالربوبيةِ إلَّا وهم مشركونَ في الألوهيةِ، لأنَّ المشركينَ كلَّهم يقرُّونَ بالربوبيةِ، ولكنَّهم يشركونَ في الألوهيةِ، إما الشِّركُ الأكبرُ وإما الشركُ الأصغرُ، ورَبْطُ الخيطِ حسبَ ما فصّلنا مِنْ أنهُ إذا كانَ يرى أنَّ النَّفْعَ والضّرر بيدِ الله، وإنَّما الخيطُ سببٌ، فهذا شركٌ أصغرُ، لأنَّ الله لم يجعل ربطَ الخيطِ سببًا من الأسبابِ الواقيةِ. أما إذا كانَ يعتمدُ على هذا الخيطِ من دونِ اللهِ في دفعِ الضررِ؛ فهذا شركٌ أكبرُ.

الباب الثامن
بَاب ما جاءَ فِي الرُّقَى والتَّمائِمِ

في «**الصحِيحِ**»(١) **عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيّ** رضي الله عنه: **أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله** صلى الله عليه وسلم **فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَن لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ**..........

قال الشيخُ رحمه الله: «**باب ما جاء في الرّقى والتّمائم**» أي: ما جاءَ عن الرسولِ صلى الله عليه وسلم وعن الصحابةِ والتابعينَ من الأحاديثِ والآثارِ في النَّهْي عن الرُّقى والتَّمائمِ.

البابَ الذي قبلَهُ صرّحَ الشيخُ في ترجمتِهِ بأنَّ لبسَ الحلْقةِ والخيطَ من الشركِ، وأما هنا فلم يُصرِّحْ، بل قال: «**ما جاء في الرُّقى والتمائم**»، وهذا من دقّةِ فقهِهِ ومعرفتِهِ رحمه الله، فإنه إذا كانَ الحُكمُ واضحًا منصوصًا عليه في الحديثِ ذكرَهُ في الترجمةِ، وإذا كان الحكمُ فيه تفصيلٌ، أو فيه احتمالٌ؛ فإنه لا يَجْزِمُ في الترجمةِ، وإنَّما يوردُ الأدلَةَ في البابِ ويؤخذُ منها الحكمَ مفصّلًا.

وقوله: «**فأرسل رسولًا**» أي: مندوبًا.

وقوله: «**أَن لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ**» كانوا في الجاهليةِ يعلّقونَ القلائدَ على رقابِ الإبلِ، يعتقدونَ أن ذلكَ يدفعُ عنها العينَ والضررَ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم أرادَ أن يزيلَ هذهِ العادةَ الجاهليةَ، ويقرّرَ التوحيدَ.

والـ«**وَتَر**» المراد به: وَتَر القوس، والقوسُ آلةٌ كانوا يرمونَ بها السِّهامَ. وكانوا في الجاهليةِ إذا أَخْلَقَ الوَتَرُ أخذوهُ وعلّقوهُ على رقابِ الدوابِّ، وأبدلوه بوَتَرٍ جديدٍ، يعتقدونَ أنَّ هذا الوَتَر القديمَ الذي استُعْمِلَ ورُمي به أنَّه يدفعُ العينَ عن الإبلِ.

---

(١) البخاري (٣٠٠٥)، ومسلم (٢١١٥).

أَو قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ». وَعَن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رَوَاهُ أَحمَدُ وَأَبو دَاوُدَ[(١)]. وَعَن عَبدِ الله بنِ عُكيم مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَ إِلَيْهِ». «التَّمَائِمُ»: شَيءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَولَادِ مِنَ العَينِ.

وقوله: «**أو قلادة**» هذا شكٌّ من الراوي، هل الرسولُ ﷺ قال: قلادةٌ من وَتَر، أو قال: قلادةٌ مطلقةٌ، سواء كانت من وَتَرٍ أو من غيرِهِ؟ وهذا مِنْ دقتِهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في الروايةِ. وعلى كلِّ حالٍ؛ فيه دليلٌ على منعِ هذا الشيءِ من أَيِّ نوعٍ كانَ.

قوله: «**إلَّا قُطِعت**» هذا فيه إزالةُ المنكرِ، ولا سيّما إذا كانَ هذا المنكرُ في العقيدةِ، فإنَّ إزالتَهُ متأكِّدةٌ.

قال: «**وعن ابن مسعود**» سبب ذكر عبد الله بن مسعود لهذا الحديث: أنه رأى على امرأتِهِ زينبَ ﷺ خيطًا في عُنقِها، وقال: لأنتم يا آلَ عبدِ الله أغنياءُ عن الشركِ، قالت: إنَّ عينيَّ كانت تَطْرفُ، فأذهبُ إلى فلان اليهوديِّ فيرقاها فتكفُّ، قال ﷺ: إنما ذلك شيطانٌ يَنْخَسُها بكفِّه، فإذا رُقِيِّ كفَّ، ثُمَّ قالَ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**».

فهو لَمَّا قطعَ هذا الخيطَ، وأنكرَ على زوجتِهِ هذا الفعلَ؛ ذكَرَ الدَّليلَ مِنْ سُنَّةِ رسولِ الله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» وسيأتي تفسيرُ هذهِ الثلاثةِ.

قوله: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا**» سواءً قِلادة، أو تَمِيمَة، أو خيطًا، أو حلقةً، يعني: علَّقَ قلبَهُ بشيءٍ أيِّ شيءٍ، يظنُّ أنه ينفعُ ويضرُّ، «**وُكِلَ إِلَيْهِ**» وَكَلَه اللهُ إلى ما تعلّقَ به. وهذهِ عقوبةٌ من الله ﷻ، وإهانةٌ له من الله ﷻ، لأنَّ اللهَ إذا تخلّى عنهُ وَوَكَلَه إلى غيرِهِ هلَكَ.

قوله: «**التَّمائم شيء يعلِّقونه على الأولاد يتقون به العين**» ثمَّ قالَ مفصِّلًا الحكمَ في هذا:

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠).

لكِن إذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرآنِ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعضُ السَّلَفِ. وَبَعضُهُم لَمْ يُرَخِّص فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ المَنهِيّ عَنهُ، مِنهُم ابنُ مَسعُودٍ ﵁.

«**لكن إذا كان هذا المعلّق من القرآن؛ فقد رخَّصَ فيهِ بعضُ السَّلفِ**» يعني: إذا كانَتِ التَمِيمَةُ مكتوبةً من القرآنِ، فقد رخَّصَ فيها بعضُ السّلفِ، مثلَ: عَبْدِ الله بن عمرو بن العاص ﵁، وعائشة، لأنَّها من القرآنِ، والتَّشافي بالقرآن ليس فيه محذورٌ شركيٌّ، فهو كلامُ الله ﷻ.

«**وبعضهم**» أي: بعضُ الصحابة، «**لم يرخِّص فيه**» حتى لو كانَ من القرآنِ، منهم: عبدُ الله بن مسعودٍ راوي الحديث. والصحيحُ: الرأي الثاني وهو المنعُ، وذلك لثلاثةِ أمورٍ:

الأمر الأول: عُموم النَّهي، ولم يَرِد دليلٌ يخصِّصُ ذلك.

الأمر الثاني: سدّ الوسيلةِ المُفضيةِ إلى الشِّرْكِ، لأنَّنَا إذا أَجَزْنا تعليقَ القرآنِ انفتحَ البابُ لتعليقِ غيرِه.

الأمر الثالث: أن تعليقَ القرآنِ يعرِّضهُ للامتهانِ، لأنه يُعلَّقُ على الصبيانِ، والصبيانُ لا يتجنّبونَ النجاسةَ أو الدخولَ في مواضعِ القاذوراتِ، وكذلك الجُهّالُ لا يحترمونَ القرآنَ كما ينبغي، ولا يتنبّهونَ لذلك، وما كانَ سببًا لتعريضِ القرآنِ للامتهانِ فهو محرّمٌ.

والذين أجازوا -وهم أصحابُ الرأيِ الأولِ- اشترطوا ثلاثةَ شروطٍ:

الشرط الأول: أن تكونَ التَمِيمَةُ من القرآن.

الشرط الثاني: أن تكونَ مكتوبةً باللفظِ العربيِّ، فلا تُكتَبُ بلفظٍ أعجميٍّ أو بخطٍّ لا يُقرأ.

الشرط الثالث: أن يعتقدَ أنَّ الشفاءَ من اللهِ لا من هذهِ التَمِيمَةِ، وإنَّما هذه التَمِيمَةُ سببٌ فقط.

وَ«الرُّقى»: هِيَ الَّتي تُسَمَّى العَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّركِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ العَينِ والحُمَةِ.

وَ«التِّوَلَةُ»: هيَ شَيءٌ يَصنَعُونَهُ، يَزعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرأَةَ إِلَى زَوجِهَا، وَالرَّجُلَ إِلَى امرَأَتِهِ.

قال الشيخُ: «**والرقى: هي التي تُسمى العزائم**» الرُّقى: جمعُ رقية، والرُّقْيَة: القراءةُ على المريضِ. ويُسمِّيها العَوام: العزيمة.

قال الشيخُ: «**وَخَصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك**» أي: استثناهُ من التحريم.

فهناك أدلةٌ تفصِّلُ بأنه إن كانَتِ الرُّقْيَةُ من القرآنِ أو من الأدعيةِ المباحةِ فإنها ليستْ بشركٍ، بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ رخّصَ في الرُّقْيةِ من العينِ ومن الحُمَةِ.

وقوله: «**فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ العَيْنِ وَالحُمَةِ**» الشيءُ المستثنى من الممنوعِ بدليلٍ يُسمَّى: رُخصة، مثل: الأكل من الميتةِ، وقَصْر الصلاةِ للمسافرِ، وكذلك الرقيةُ في القرآنِ استثنيتْ من الرقى الممنوعةِ بقوله ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»، فهي رخصةٌ.

قوله: «**والتِّوَلَة**» بكسر التاء وفتح الواو، «**شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته**» «**يزعمون**» أي: يكذبونَ.

«**أنه يحبِّب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته**» هذا يسمونه: الصّرف والعطف، وهو سحرٌ، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فهو سحرٌ يفرِّقُ ويَجْمعُ، لأنه عملٌ شيطانيٌّ، يعملُ أشياءَ تنفِّرُ الإنسانَ من الإنسانِ، أو الرجلَ من زوجتِهِ، أو الزوجةُ من زوجِها، وهو مِنْ عملِ الشياطينِ.

وَرَوَى أَحْمَدُ[1] **عَنْ رُويفع**[2]**، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «يا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ: أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».**

قوله: «**لعل الحياة ستطول بك**» هذا إخبارٌ من النبيِّ ﷺ أن رُوَيْفِعًا يعمّرُ، وقد عُمِّر.

قوله: «**فَأَخْبِرِ النَّاسَ أن من عقد لحيته**» عقدُ اللحيةِ اختلفَ العلماءُ في تفسيرِهِ، منهم من قالَ: عقدُ اللحيةِ عادةٌ عندَ الفُرسِ، أنهم كانوا عندَ الحروبِ يعقدون لحاهم تكبّرًا وتجبرًا، ونحنُ قد نُهينا عن التشبّهِ بالكفّارِ.

والقول الثاني: المرادُ بِهِ عقدُ اللحيةِ في الصَّلاةِ، لأنَّ هذا من العبثِ في الصلاةِ، والحركةِ في الصلاةِ، وهذا مكروهٌ في الصلاةِ، لأنهُ يدلُّ على عدمِ الخشوعِ.

القول الثالث: أنَّ المرادَ بعقدِ اللحيةِ ما يفعلُهُ أهلُ الترفِ من تجعيدِ لحاهم وتحسينِهَا وكدِّها، حتى تتجعّدَ، يقصدون بها الجمالَ، فهذا يكونُ من الترفِ، نعم لا بأسَ أنَّ اللحيةَ تُصلَّح وأنها تُنظّفُ، وأنها تُكْرَمُ لكنْ لا يصلُ هذا إلى حدِّ الإسرافِ.

«**أو تقلد وَتَرًا**» يعني: جعلَ الوَتَر قلادةً عليه، أو على دابَّتِهِ، أو على ولدِهِ من أجلِ أن يتّقيَ بِهِ العينَ والضررَ، كما كانتِ الجاهليةُ تفعل. وهذا محلُ الشاهِدِ في الحديثِ.

«**أو استنجى**» الاستنجاءُ: إزالةُ أثرِ الخارجِ من السبيلينِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٨)، وأبو داود (٣٦).

(٢) **رُوَيْفعٌ**: هو رويفعُ بنُ ثابتِ بنِ السكنِ بنِ عدي بنِ الحارثِ، من بني مالكِ بنِ النجارِ الأَنصاريُّ، وَلِي برقةَ وطرابلسَ فافتتحَ إفريقيةَ سنة ٤٧هـ، وتوفي ببرقةَ سنة ٥٦هـ.

وَعَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مَن إِنسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ»[(١)]. رَوَاهُ وَكِيعٌ[(٢)]. وَلَهُ عَن إِبرَاهِيمَ، قَالَ: «كَانُوا يَكرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ»[(٣)].

«**برجيع دابة**» الرجيعُ روثُ الدَّواب، «**أو عظم، فإن محمدًا ﷺ بريء منه**» وهذا وعيدٌ شديدٌ يدلُّ على تحريمِ هذا الفعل، وهو الاستجمارُ بروثِ الدَّوابِّ والعظامِ، لأنَّ هاتينِ المادتينِ طعامُ الجنِّ وطعامُ دوابِّهم فلا يُلوِّثُهما عليهم.

قوله: «عَن سَعِيدِ بنِ جُبَيرٍ قَالَ: مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مَن إِنسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ» أي: كانَ كَمَنْ أعتقَ رقبةً من الرِّقِّ، والمناسبةُ أنَّ إعتاقَ العبدِ فيه إعتاقٌ من الرِّق، وقطعُ التَمِيمَةِ فيه إعتاقٌ من الشركِ، لأنَّ الشركَ رِقٌّ للشيطانِ بدلَ الرِّقِّ للرحمنِ.

قوله: «**يَكرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ القُرآنِ وَغَيرِ القُرآنِ**» أي: كانَ كبارُ التابعينَ من أصحابِ ابنِ مسعودٍ لا يفصِّلونَ في التَّمائمِ، بل كانوا يكرهونها عمومًا.

وقوله: «**يكرهون**» أي يحرمونَ، لأنَّ الكراهةَ عندَ السَّلفِ يريدونَ بها التحريمَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٧).

(٢) **وكيعُ**: هو وكيعُ بنُ الجراحِ، ثقةٌ إمامٌ، صاحبُ تصانيفَ، ماتَ سنة ١٩٧هـ.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ١٦).

الباب التاسع
بَاب مَنْ تَبرَّكَ بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما

وَقَولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ **الآيات** [النجم: ١٩].

قوله: «**باب مَنْ تبرَّك**» أي: طلبُ البركة، وهي حصولُ الخيرِ ونماؤُه وثبوتهُ وكثرتهُ.

«**بحَجَر أو شجر**» أي: طلبُ البركةِ من حَجَرٍ أو من شجرٍ، أو اعتقدَ أنها سببٌ للبركةِ وهي لم يجعلْها اللهُ أسبابًا لها فقد أشركَ باللهِ ﷻ، لأنَّ الحجرَ والشَّجَر لا يخلقُ البركةَ ولا يُوجِدُها، وإنما الذي يوجدها هو اللهُ ﷻ.

قوله: **وقول الله تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ **وتتمة الآيات:** ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ۝٢٥ * وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النجم: ٢٠-٢٦]»، هذهِ الآياتُ في تقريرِ التَّوحيدِ وتثبيت العقيدةِ في قلوبِ المؤمنينَ، والردُّ على المشركينَ.

يقولُ اللهُ تعالى للمشركينَ الذين يعبدونَ الأصنامَ، وفي مُقدِّمتِهَا الأصنامُ الثلاثةُ المشهورةُ عندَ العربِ: الَّاتِ والعُزَّى ومَنَاة، هل تَنْفع هذهِ الأصنامُ أو تضرُّ؟ فيقول: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾» هل نفعَتْكُم؟، هل دفعَتْ عنكُمْ الضررُ؟، هل جلبَتْ لكم شيئًا من الرزقِ، فلا يستطيعونَ الجوابَ بِأَنَّها تضرُّ أو تنفعُ، لم تنفعْهم في بدرٍ وغيرِها من الغزواتِ، ولم تَدْفَعْ عنهم ما أوقَعَ اللهُ بهم من الهزائمِ، ما أجابوا عن هذا السؤال العظيمِ؛ فدلَّ على انقطاع حُجَّتِهم.

و«﴿ٱللَّٰتَ﴾»: صنمٌ في الطائفِ لبني ثقيفٍ.

وعَن أَبِي وَاقِدٍ[1] اللَّيْثِي قَالَ: خَرَجنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحنُ حُدَثَاءُ عَهدٍ بِكُفرٍ ....

أما «﴿وَٱلۡعُزَّىٰ﴾» فكانَتْ صنمًا لأهلِ مكةَ، وهي عبارةٌ عن شجراتٍ ثلاثٍ من السَّمْر، وعندَها بَنِيَّة عليها أستارٌ، وكانتْ لقريشٍ ولأهلِ مكةَ يعبدونَها من دونِ الله ﷻ، فلمَّا فتحَ النبيُّ ﷺ مكةَ أرسلَ إليها خالدُ بنُ الوليدِ فهدَمَها وقطّعَ الأشجارَ، ثم رجَعَ إلى النبيِّ ﷺ فأخبرَهُ، قالَ: «**لم تفعل شيئًا**»، فرجعَ خالدٌ رضي الله عنه، إليها مرّةً ثانيةً فوجدَ عندَها السَّدَنةَ، فلما رأَوْهُ هربوا إلى الجبالِ، فجاءَ فإذ بامرأةٍ عريانةٍ ناشرةٍ شعرَها، فعلاها بالسيفِ وقتلَها، ثم رجَعَ إلى النبيِّ ﷺ وأخبرَهُ، قالَ: «**تلك العُزَّى**»[2].

أما «﴿وَمَنَوٰةَ﴾» فهي صنمٌ قريبٌ من المدينةِ، وكانَتْ لقبائلَ من العرب. وكانوا يُحْرِمُون مِنْ عندِها للحجِّ والعُمْرةِ. ولما فتحَ النبيُّ ﷺ مكةَ أرسلَ إلى مَنَاةَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه فهدَمَها.

فأينَ ذهبتْ هذهِ الأصنامُ؟ لو كانَتْ آلهةً لدفعَتْ عن نفسِها.

والشاهد من الآية الكريمة: بُطلانُ التبرّكِ بالأشجارِ والأحجارِ، لأنَّ هذه أشجارٌ وأحجارٌ، ولم تَدْفعْ عن نفسِهَا فضلًا عن أن تدفعَ عن غيرِها.

قال: «**وعن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ**» أي: غَزْوة حُنَين.

وأبو واقدٍ كانَ من الذين أَسْلموا في هذا العامِ، ولهذا قالَ: «**خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن ونحن حُدَثاء عهد بكفر**» يعني: أَنَّ إسلامَهم كانَ جديدًا متأخرًا، وهو يريدُ بذلكَ بيانَ العذرِ مما وقَعَ منهم، أنَّهم كانوا جُهَّالًا، لم يتفقّهوا كما كانَ الصَّحابةُ الذينَ معَ الرسولِ ﷺ.

---

(١) **أبو واقدٍ الليثيُّ**: هو الحارُ بنُ عوفٍ، صحابيٌّ مشهورٌ، ماتَ سنة ٦٨هـ وله ٨٥ سنةً.

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٥٤٧)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٤٥).

وَلِلمُشرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا: ذاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُم ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الله أَكبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ قُلْتُ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- كَمَا قَالَت بَنُو إِسرائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ....

وقولهُ: «**وللمشركين سِدْرَة يَعْكُفُون عندها**» العُكُوف هو: البقاءُ في المكان.

«**ويُنَوطُون بها أسلحتهم**» النَّوْط هو: التعليقُ، وغرضُهم من هذا العكوفِ والنوط التبرك بهذه الشجرة.

«**فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ**» أَعْجبَهم عملُ المشركينَ، فظنوا أنَّ هذا عملٌ سائغٌ، وهم يحرصونَ على تحصيلِ البركةِ، فطلبوا من النبي ﷺ أن يجعلَ لهم شجرةً يَعْكُفُون عندَها، ويَنُوطُون بها أسلحتَهم طلبًا للبركةِ.

«**فقال ﷺ: الله أكبر، إنها السُّنَن**» النبيُّ ﷺ غضِبَ لَمَّا قالوا له هذا الكلام وتعجّبَ، وكبّرَ اللهَ سبحانه وتعالى تنزيهًا لله عز وجل عن هذا العملِ.

«**إنها السُّنن**» أي: الطرقُ المسلوكةُ، أي: السببُ أنَّ الذي أوقعَكم في هذا هو التَّشَبُّهُ بما عليهِ الناسُ، فالتَّشَبُّه بالكفارِ في عباداتِهم وتقاليدِهم الخاصةِ بهم، آفةٌ خطيرةٌ.

ثم بيَّنَ ﷺ خطرَ هذه المقالةِ، فقال: «**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كما قالت بنوا إسرائيل لموسى** ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾» النبيُّ ﷺ بيَّنَ أنَّ هذهِ عادةٌ قديمةٌ في العالم، وأنها حصلَتْ على عهدِ موسى عليه السلام، وذلك أنَّ اللهَ لما نجَّى بني إسرائيلَ من فرعونَ، وأغرقَ فرعونَ وقومه، ونجّى موسى وقومَه، ومرّوا في طريقِهم على قومٍ يعكفونَ على أصنامٍ لهم.

لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ(١) وَصَحَّحَهُ.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ طَلبوا من موسى أنهُ يجعلُ لهم صنمًا يعبدونَه كهؤلاءِ الذينَ يعبدونَ الصَّنمَ، قالَ موسى عليه السلام: «﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾» السببُ الذي أوقَعكم في هذا هو الجهلُ بالتّوحيدِ، وهذا يُوجِبُ على المسلمينَ أن يتعلموا العقيدةَ، ولا يكتفوا بقولِهم: نحن مسلمونَ، نحنُ في بلادِ إسلامٍ، نحن في بيئةٍ إسلاميةٍ، كما يقولُهُ الجُهّالُ أو الذين يُثَبِّطونَ عن تعلّمِ العقيدةِ.

---

(١) برقم (٢١٨٠)، وأخرجه ابن حبان (٦٧٠٢) واللفظ المذكور إليه أقرب.

الباب العاشر

بَاب مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ **الآية** [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [سورة الكوثر: ٢].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ هذا أمرٌ من اللهِ ﷻ لنبيهِ محمَّدٍ ﷺ أن يُعلنَ للناسِ، ليسَ لناسِ وقتِهِ فقَطْ، بل للناسِ جميعًا إلى أن تقومَ الساعةُ.

﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ الصلاةُ في الشرعِ يُراد بها: العبادةُ المبتدئةُ بالتكبيرِ المختتمةُ بالتسليمِ.

﴿وَنُسُكِي﴾ النُّسُك المُراد به: ما يُذبحُ من بهيمةِ الأنعامِ على وجهِ التقرّبِ والعبادةِ، كهَدْي التمتُّعِ والقِرانِ، وهَدْي التطوُّع، وهَدْي الجُبرانِ، والأضاحي، والعقيقة.

﴿وَمَحْيَايَ﴾: ما أحيا عليه في عمري من العبادةِ، كلُّهُ لله ﷻ.

﴿وَمَمَاتِي﴾: ما أموتُ عليه أيضًا لله ﷻ، فيموتُ على التّوحيدِ، فمعنى الآية: أنه يحيا على التّوحيدِ، ويموتُ على التّوحيدِ، «﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾» الرب هو: المالك، والعالمين جميع عالَم، وهو: ما سوى الله ﷻ من المخلوقاتِ، فكلُّ المخلوقاتِ ربُّها واحدٌ، هو اللهُ ﷻ. ثم أكّدَ ذلك بقولِهِ: ﴿لَاشَرِيكَ لَهُۥ﴾في ذلكَ وفي سائرِ أنواعِ العبادةِ.

قال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ هذا أمرٌ من اللهِ لنبيِّهِ أن يُخلِصَ الصلاةَ لله ﷻ، وأَنْ يخلصَ النحرَ -وهو: الذبحُ- لله ﷻ.

عَن عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولَ الله ﷺ بِأَرْبعِ كَلِماتٍ: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ الله، لَعَنَ الله مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لعَنَ الله مَنْ آوَى مُحدِثًا، لَعَنَ الله مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ(١).

وقوله: «**لعن الله**» اللعن معناه: الطَّرد والإبعادُ عن رحمةِ الله ﷻ.

«**من ذبح لغير الله**» أي: تقرَّبَ بالذبحِ لغيرِ اللهِ من الأصنامِ، ومن الأضرحةِ، ومن الأشجارِ والأحجارِ، والجنِّ، وغيرِ ذلكَ.

قوله: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ**» لا يجوزُ للولدِ أن يشتمَ والديه، وهذا من الكبائر، لأنَّ الرسولَ ﷺ لعنَ من فَعَله، واللعنُ على الشيءِ يدلُّ على أنه كبيرةٌ، سواء لعنَهما بالمباشرةِ أو بالتسبّبِ، فبعضُ الناسِ لا يلعنُ والديهِ مباشرةً، لكِنْ يتسبّبُ في ذلكَ، بأَنْ يلعنَ والدِيْ رجلٍ آخرَ، ثم يردُّ عليه بالمثلِ، فيكونُ مُتسبِّبًا في لعنِ والديهِ.

وقوله: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا**» آوى معناها: حَمَى، والمُحْدِث: هو الذي فعَلَ جُرمًا يستحقُّ عليه إقامةَ الحدِّ، فيَأْتي واحدٌ من النَّاسِ ويَحُول دونَ هذا المجرمِ ودونَ إقامةِ الحدِّ عليهِ.

وفي بعضِ الرواياتِ بفتح الدَّالِ «لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدَثًا» والمحدَث معناه: البدعةُ، ومعنى آوى المحدَث أي: رضي به. فمن رضِيَ بالبدعةِ، ولم يُنكِرْها وهو يقدرُ فقد آواها.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**» المنارُ: جَمْعُ منارةٍ، وهي: العلامةُ.

والمرادُ بمنارِ الأرضِ: المراسيم، ومعنى غيَّرها يعني: قدَّمَها أو أخرَّها عن مكانِها.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨) بنحوه.

وَعَن طَارِقٍ[(١)] بنِ شِهَابٍ؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ»، قَالوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَومٍ لَهُم صَنَمٌ لا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقرِّبَ لَهُ شَيئًا فَقَالوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّب. قَالَ: لَيسَ عِندِي شَيءٌ أُقَرِّبُه. قَالوا له: قَرِّب وَلَو ذُبَابًا. فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ. ....

قوله: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، قَالوا: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَومٍ» يعني: من الأُممِ السابقةِ.

«لَهُم صَنَمٌ» الصنم هو: ما كانَ على صورةِ حيوانٍ، أما ما عُبد وهو على غيرِ صورةِ حيوانٍ، كالشجرِ والحجرِ والقبرِ فهذا يُسمَّى وثنًا.

«لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ» أي: يتجاوزُه ولا يمرُّ عليه أحدٌ.

«حتى يقرِّب له شيئًا» يعني: يذبحُ له تعظيمًا له.

«فقالوا لأحدهما: قرِّب، قال: ليس عندي شيء أقرِّبه» اعتذرَ بالعدمِ، ولم يقُلْ: إنَّ الذبحَ لغيرِ الله لا يجوزُ، أو هذا منكرٌ -والعياذُ باللهِ-، وهذا يدلُّ على أنه لو كان عندَهُ شيءٌ لقرَّبه.

«قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا» فقرَّب ذبابًا، يعني: اذبحْه للصنمِ.

«فقرَّب ذبابًا فخلوا سبيله» سمحوا له بالمرور، «فدخل النار» بسبب الشركِ، وأنه ذبحَ لغيرِ اللهِ، والعبرةُ بالنيّةِ والقصدِ لا بالمذبوحِ.

والقصدُ أنه ما استنكرَ هذا الشيءَ، ولا تمنَّعَ منه، وإنما اعتذرَ بعدمِ وجودِ شيءٍ، فلذلكَ دخلَ النَّارَ والعياذُ بالله.

---

(١) هو طارقُ بنُ شهابٍ البجليُّ الأحمسيُّ، رأى النبيَّ ﷺ ولَمْ يسمعْ منه. فحديثُهُ مرسلٌ، صحابيٌّ، ماتَ طارقٌ سنةَ ٨٣هـ.

وَقَالوا للآخَرِ: قَرِّب. فَقَالَ: مَا كُنتُ لأُقَرِّبَ لأحَدٍ شَيئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَضَرَبُوا عُنُقَهُ، فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رَوَاهُ أَحْمَدُ(١).

«**وقالوا للآخر: قرِّب. فقال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله** ﷻ» امتنعَ وأنكرَ الشرك، «**فضربوا عنقه**» يعني: قتلوه، «**فدخل الجنة**» بسببِ التّوحيدِ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (ص١٥-١٦)، وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٥٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٠٣)، والبيهقي في «الشعب» (٧٣٤٣)، والخطيب في «الكفاية» (ص١٨٥).

الباب الحادي عشر

بَابٌ لا يُذبح للهِ بمكانٍ يُذبح فيه لغيرِ الله

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ **الآية** [التوبة: ١٠٨]. **وَعَن ثَابِتِ**[١] **بنِ الضَّحَاكِ** رضي الله عنه **قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَن يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوانَةَ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ** ﷺ، ....

قوله: «**لا يذبحُ للهِ في مكان يذبح فيه لغير الله**» لأنَّ الذبحَ في هذا المكانِ وإنْ كانَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فإنه وسيلةٌ إلى الشركِ، وكذلكَ في الذبح في هذا المكانِ تعظيمٌ له ومشابهةٌ للمشركين.

قوله: «**وقول الله تعالى:** ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾» أي: في مسجدِ الضرارِ، نهيٌ للنبيِّ ﷺ عن الصلاةِ في هذا المسجدِ. الله جَلَّ وَعَلَا نهى رسولَه أَنْ يصليَ في مكانٍ أُعِدَّ للمعصيةِ، فدلَّ هذا على أنه لا يُذبَحُ للهِ في مكانٍ يُذْبح فيه لغيرِ اللهِ، كما لا يُصلَّى للهِ في مكانٍ أُعِدَّ للمعصيةِ والكفرِ، كذلك لا يُذبحُ للهِ في مكانٍ أُعِدَّ للمعصيةِ.

قوله: «**نَذَرَ رَجُلٌ**» النذرُ معناه: «إلزامُ المكلَّفِ نفسَه طاعةً لله لم تُجبْ عليه بأصلِ الشرعِ» من صلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وعمرةٍ وصدقةٍ وغيرِ ذلكَ.

«**أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا**» النَّحر معناهُ: ذَبْحُ الإبلِ في النَّحر

«**ببُوانة**» (بُوانة) اسمُ موضِعٍ بينَ مكةَ والمدينةَ.

«**فسَأل النبي** ﷺ» فيه دليلٌ: على الرجوعِ إلى أهلِ العلمِ، وأنَّ الإنسانَ لا يقدِمُ على شيءٍ من العبادةِ حتَّى يعرفَ هل هو مشروعٌ أو غيرُ مشروع.

---

(١) **ثابتُ بنُ الضحاكِ:** هو ثابتُ بنُ الضحاكِ بن خليفةَ بنِ ثعلبةَ بنِ عديٍّ الأشهليُّ الخزرجيُّ النصاريُّ، صحابيٌّ مشهورٌ، ماتَ سنة ٦٤هـ.

فقَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالوا: لَا. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالوا: لَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، ولا فِيمَا لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١)، وَإِسنَادُهُ عَلَى شَرطِهِمَا.

«**فقال النبي ﷺ**: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟**» يعني: هل كانَ في هذا المكانِ -ببُوانةَ- وثنٌ من أوثانِ الجاهليةِ يُعبدُ، يعني: وأُزيل الآنَ. فدلَّ على أنّ مكانَ الوثنِ يجِبُ أن يُهجَر.

ثمَّ قالَ: «**فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**» العيدُ: اسمٌ لِمَا يعودُ ويتكرَّرُ من الزمانِ أَوِ المكانِ.

والشَّاهد من هذا الحديثِ للبابِ في قوله ﷺ: «**هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ... فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ**» فَدلَّ على أنه لا يُذبحُ لله في مكانٍ كان في السابقِ يُذبحُ فيه لغيرِ الله، لأنَّ هذا وسيلةٌ إلى الذبحِ لغيرِ الله ﷻ، كالصَّلاةِ عندَ القبرِ، وكالدعاءِ عندَ القبرِ، كُلُّ الوسائلِ التي تُفضي إلى الشركِ ممنوعةٌ؛ وكإسراجِ القبورِ نهى عنه النبيُّ ﷺ لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ، والبناءِ على القبورِ نهى عنه الرسولُ ﷺ لأنه وسيلةٌ إلى الشرك؛ كلُّ الوسائلِ التي تُفضي إلى الشركِ نهى عنها ﷺ، ومنها: الذبحُ للهِ في مكانٍ يُذبحُ فيه لغيرِ الله.

وقوله: «**أوف بنذرك**» فيه دليلٌ على وجوبِ الوفاءِ بالنذرِ إذا كانَ نذرَ طاعةٍ، وقوله: «**فإنه لا وفا لنذر في معصية الله**» فيه تحريمُ الوفاءِ بنذرِ المعصيةِ ومنه نذرُ الذبحِ في مكانٍ يذبحُ فيه لغيرِ الله.

---

(١) برقم (٣٣١٣).

الباب الثاني عشر

بَاب من الشرك النذر لغيرِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الدهر: ٧]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قال الشيخُ رحمه الله: «**باب من الشرك النذر لغير الله**» النَّذْرُ: التزامُ مُكلَّفٍ فِعْلَ طاعةٍ لم تَجِبْ عليه بأصلِ الشَّرْعِ.

والدَّليلُ على أنَّ الوفاءَ بنذرِ الطاعةِ عبادةٌ: أنَّ اللهَ سبحانه ذكَرَ أنَّ من صفاتِ الأبرارِ: أنَّهم ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾. وإذا كانَ كذلكَ فهو من أنواعِ العبادةِ، فكلُّ أنواعِ الطاعاتِ التي أمرَ اللهُ بها، أو أمرَ بها رسولُهُ ﷺ ومنها الوفاءُ بالنَّذْرِ عبادةٌ، فمَنْ صرفَ شيئًا من هذهِ الأنواعِ لغيرِ اللهِ صارَ مشركًا الشركَ الأكبرَ الذي يُخرجُهُ من المِلَّةِ.

فوجهُ الاستدلالِ من الآيةِ الكريمةِ على أن النذرَ لغيرِ اللهِ شركٌ: لأنها دلّت على أنَّ النذرَ عبادةٌ، لأنَّ اللهَ مدَحَ الموفين به، وإذا كان عبادةً فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

ووجهُ الاستدلالِ من الآيةِ الكريمةِ من وجهينِ:

الوجه الأول: أنّ الله قَرَن النذرَ بالنفقةِ، والنفقةُ في سبيلِ اللهِ طاعةٌ، فدلَّ على أن النَّذرَ طاعةٌ.

الوجه الثاني: قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ وهذا من بابِ الحثِّ على النفقةِ، وعلى الوفاءِ بالنذرِ؛ فدلَّ على أنه طاعةٌ، وإذا كانَ النذرُ طاعةً، فإنَّ صرفَهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

وَفِي الصَّحِيحِ[1] عَن عَائِشَةَ[2] ﵂: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله، فلا يَعْصِهِ».

قوله: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله، فلا يَعْصِهِ**» الحديثُ صريحٌ في أنَّ النذرَ يكونُ طاعةً، وإذا كانَ طاعةً فهو عبادةٌ، وإذا كانَ عبادةً، فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ أكبرُ.

«**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ الله، فلا يَعْصِهِ**» كأَنْ نَذَرَ أن يقطعَ رحمَهُ، وأن لا يصلَ أباه أو أمَّهُ أو أخاهُ. فهذا نذرُ معصيةٍ لا يجوزُ له الوفاءُ به.

ومِن ذلكَ -بل أولى-: إذا نَذَر للقبورِ، لأنَّ النذرَ للقبورِ شركٌ وهو من أعظمِ المعاصي، فلا يجوزُ له الوفاءُ به كما إذا نذَرَ أن يذبحَ للبدويِّ، أو أن يذبحَ لأيِّ ضريحٍ من الأضرحةِ، أو أَنْ يذبحَ للجنِّ، أو أن يذبحَ للأولياءِ والصالحينَ يرجو نفعَهُم أو دفعَ الضررِ عنه بالذبحِ لهم؛ فهذا من أعظمِ أنواعِ المعصيةِ، ويدخلُ في قوله: «**وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فلا يَعْصِهِ**»، لأنَّ المعصيةَ قد تكونُ شركًا، وقد تكونُ دونَ ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

(٢) **عائشةُ**: هي أمُّ المؤمنين زوجُ النبيِّ ﷺ وبنتُ أبي بكرٍ الصديقِ ﵁، وهي أفقهُ النساءِ مطلقًا، وأفضلُ أزواجِ النبيِّ ﷺ ما عَدَا خَديجَةَ، ففي تفضِيلَها عليها خلافٌ، توفيت سنة ٥٧هـ.

الباب الثالث عشر
بَاب من الشِّرك الاستعاذة بغير الله

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

وَعَنْ خَولَةَ بِنتُ حَكِيمٍ[(١)] قَالَت: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[(٢)].

الاستعاذةُ معناها: الاعتصامُ والالتجاءُ إلى اللهِ ﷻ في دفع المكروهِ والشرورِ.

وهو نوعٌ من أنواعِ العبادةِ، لأن دفعَ الضررِ، ودفعَ الشرورِ لا يقدِرُ عليه إلَّا اللهُ ﷻ، فكلُّ ما لا يقدِرَ عليه إلاَّ اللهُ فإنه لا يُطلبُ إلَّا من اللهِ، فإن طُلِبَ من غيرِه كانَ ذلك شركًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] أي: يلتجؤونَ إليهم ليدفعوا عنهم الشرورَ. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ زادَ الجنُّ الإنسَ، ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفًا، فالجنُّ تسلّطوا على الإنسِ لَمَّا رأَوْهم يعوذونَ بهم، وزادوهم خوفًا وقلقًا، وأُعجبوا بأنفسِهم، وقالوا: إننا أَخَفْنا الإنسَ، وصاروا يستعيذونَ بنا.

وسببُ نزولِ هذه الآيةِ: أنَّ العربَ كانوا في الجاهليةِ إذا نزلوا منزلًا قال أحدُهُم: أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي مِنْ شَرِّ سفهاءِ قومِهِ.

فهذه عقيدةٌ جاهليةٌ، أبطلَها اللهُ ﷻ بالأمرِ بالاستعاذةِ به وحدَه لا شريكَ له، وذلك في قوله: عن خَوْلَة بنت حكيم ﵂ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ**» رواه مسلم.

---

(١) **خولةُ بنتُ حكيمٍ:** هي بنتُ حكيمِ بنِ أميةَ السلميةُ، كانت زوجةً لعثمانَ بنِ مظعونٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكانتْ صالحةً فاضلةً.

(٢) برقم (٢٧٠٨).

هذه هي الاستعاذةُ الشرعيةُ البديلةُ من الاستعاذةِ الشركيةِ.

قوله: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**» كلمات الله: المُراد بها: كلامُهُ ﷻ المنزّلُ على رسولِهِ ﷺ. والاستعاذةُ بالقرآنِ مشروعةٌ، لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، فالاستعاذةُ بالقرآنِ استعاذةٌ بصفةٍ من صفاتِ اللهِ، وهي الكلامُ، وليست استعاذةٌ بمخلوقٍ.

وقوله: «**التَّامَّاتِ**» أي: الصادقات العادلات، التي لا يتطرّقُ إليها نقصٌ.

فالحاصلُ؛ أنَّ الكتابَ والسنَّةَ قد دلَّا على أنَّ الاستعاذةَ عبادةٌ، وما دامَ أنها عبادةٌ، فالاستعاذةُ بغيرِ اللهِ تكونُ شركًا أكبرَ يَخرجُ به صاحبُهُ من الملّةِ، فالذي يستعيذُ بالجنِّ أو بالشياطين يكونُ كافرًا الكفرَ الأكبرَ، مشركًا باللهِ ﷻ.

الباب الرابع عشر
بَاب من الشِّرك أن يستغيثَ بغير الله أو يدعوَ غيرَه

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قوله: «**من الشرك**» أي: من أنواعِ الشركِ الأكبرِ: «**أن يستغيث بغير الله**» فيما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ.

والاستغاثةُ: طلبُ الغوثِ، ولا تكونُ إلَّا في وقتِ الشدّةِ.

والاستغاثةُ بالمخلوقِ على قسمينِ:

القسم الأول: الاستغاثةُ بالمخلوقِ فيما لا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ ﷻ، فهذه هي الشركُ الأكبرُ، لأنها صرفٌ لعبادةٍ لغيرِ اللهِ ﷻ.

القسم الثاني: الاستغاثةُ بالمخلوقِ فيما يقدرُ عليه المخلوقُ كاستغاثةِ الإنسان بغيرِهِ في الحرب ليساعدَه ويناصرَه على عدوِّهِ؛ فهذا جائزٌ.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾» يقولُ اللهُ ﷻ لنبيِّه ﷺ: «﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ هذا نهيٌ من اللهِ لنبيِّه عن دعاءِ غيرِ اللهِ، والخطابُ الموجهُ للنبيِّ ﷺ موجهٌ إلى أمتِهِ.

﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله.

﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ﴾ أي: الذي لا ينفعُكَ ولا يضرُّكَ، وذلك لأنَّ المدعوَّ إما أن

وَقَولُهُ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

يُطلبَ منه جلبُ خيرٍ، وإما أَنْ يطلبَ منه دفعُ ضررٍ، وهذا إنما يختصّ بالله ﷻ، فإنه هو الذي يقدرُ على دفعِ الضررِ وجلبِ الخيرِ.

﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ يعني: دعوتَ غيرَ اللهِ مما لا ينفعُكَ ولا يضرُّك، وهذا من بابِ الافتراضِ، وإلَّا محالٌ أنَّ النبيَّ ﷺ سيفعلُ ذلكَ.

قالَ ﷻ: «﴿فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾» يعني: من المشركينَ، لأنَّ الشركَ أعظمُ أنواعِ الظلمِ.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [يونس: ١٠٧].

قوله: «﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ﴾» هذا تقريرٌ لإبطالِ دعاءِ غيرِ اللهِ، «﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾» هذا أيضًا فيه إبطالُ دعاءِ غيرِ اللهِ، لأنَّ هذهِ المدعواتِ لا تقدرُ على كشفِ الضرِّ، ولا تقدرُ على جلبِ الخيرِ. فالنفعُ والضررُ إنما هو مِنَ اللهِ ﷻ، فهو الذي يستحقُّ أن يُدعى لطلبِ الخيرِ، ويُدعى أيضًا لرفعِ الشرِّ، وكشفِ الضرِّ.

قال: «وقوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت:١٧]»، وكمال الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[العنكبوت: ١٧].

فقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ لأنَّ الرزقَ من اللهِ ﷻ.

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي: اطلبوا الرزقَ من اللهِ ﷻ، فإنَّ اللهَ قريبٌ مجيبٌ لمن دعاهُ،

وَقَولُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

ولا تطلبوا الرزقَ من الأوثانِ التي لا تملِكُ شيئًا.

﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا فيه توجيهٌ من اللهِ ﷻ لعبادِهِ أَنْ لا يَطْلبوا الرزقَ من غيرِهِ، وأن يعبدوهُ ولا يعبدوا غيرَهُ، فإنهم إذا عبدوهُ رزقَهم.

قال: «**وقول الله** ﷻ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾» وتتمة الآية: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، الآيات من سورة الأحقافِ [٥-٦].

«﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾» لا أحد أشدّ ضلالًا، «﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» أي: غَيْرِ اللهِ.

«﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾» هل الصَّنَم استجابَ لأحدٍ في يومٍ من الأيامِ؟ هل القبر استجابَ لأحدٍ في يومٍ من الأيامِ؟ هل الشجرةُ -التي تُعبد من دون الله- استجابت لأحدٍ؟، أبدًا، ولو قُدِّر أنه يحصلُ للمشركِ مقصودهُ، فهذا ليس من المعبود من دونِ اللهِ، وإنما هو من اللهِ ﷻ، أجراهُ امتحانًا له واستدراجًا له، حتى يظنَّ أن هذا من القبرِ، فيستمرُّ في الشركِ والعياذُ باللهِ. وفي الآيةِ فائدةٌ عظيمةٌ وهي: أنَّ اللهَ سمَّى الدعاءَ عبادةً، فقال: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، لأنه في أولِ الآيةِ قال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ﴾ [الأحقاف: ٥]، وإذا كانَ الدعاءُ عبادةً فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ، كما في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠]، يعني: عن دعائي، فسمَّى الدعاء عبادةً، وإذا كانَ الدعاءُ عبادةً فصرفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

رَوَى الطَّبَرَانِيُّ(١) **بِإِسنَادِهِ**(٢): **أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤذِي المُؤمِنِينَ، فَقَالَ بَعضُهُم: قُومُوا بِنَا نَستَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِن هَذَا المُنَافِقِ،** ....

«قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]» هذا استفهامٌ من اللهِ تعالى للمشركينَ، يقول: أنتم تشركونَ باللهِ ﷻ في حالةِ الرخاءِ، ولكن إذا وَقَعْتُم في الشدةِ والاضطرارِ دعوتُمُ اللهَ مخلصينَ له الدين فأنقذكم، فلماذا تُشركونَ به في حالة الرخاءِ؟

وقوله: «﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾» أي: لا أحدَ يكشفُ السوءَ سواه، والمشركونَ يعترفونَ أنه لا أحدَ يكشفُ السوءَ إلَّا اللهُ ﷻ، فلماذا يعبدونَ غيرَه؟

قوله: «**كان رجل**» لم يذكر اسمه هنا، وورد أنه عبدُ اللهِ بنُ أُبي، رأسُ المنافقين.

«**منافق**» النفاق هو: إظهارُ الخيرِ وإبطانُ الشرِّ، وهو نوعانِ: نفاقٌ اعتقاديٌّ، ونفاقٌ عمليٌّ.

«**يؤذي المؤمنين**» بمعنى أنه يضايقُ المسلمينَ بكلامِهِ وبتصرّفاتِهِ، يسخرُ من المسلمين، يتلمّسُ معايبَ المسلمينَ، ينالُ من الرسولِ ﷺ، وينالُ من المؤمنينَ، ويتتبّعُ العثراتِ. فدلّ على أنَّ إيذاءَ المسلمينَ من النفاقِ.

«**فقال بعضهم قوموا بنا نستغيثُ برسول الله ﷺ**» يعني: نستجيرُ به، ونحتمي به «**من هذا المنافق**» ليردعَهُ عنا ويكفَّهُ عنا.

---

(١) **الطبرانيُّ**: هو الحافظُ الإمامُ: سليمانُ بنُ أحمدَ صاحبُ المعاجِمِ الثلاثةِ.

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٩-١٦٠): رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث!

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لا يُستَغَاثُ بِي، وَإِنَّما يُستَغَاثُ بِاللهِ».

والنبيُّ ﷺ استنكرَ هذه اللفظةَ، فقال: «**إنه لا يستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله** ﷻ» مع أنَّ الرسول ﷺ قادرٌ على أن يَرْدَعَ هذا المنافقَ، وأن يُغيثَ المسلمينَ من شرِّه، لكنَّ الرسولَ تأدُّبٌ معَ اللهِ ﷻ، وتعليمٌ للمسلمينَ أن يتركوا الألفاظَ التي فيها سوءُ أدبٍ معَ اللهِ ﷻ، وإن كانَتْ جائزةً في الأصلِ، فقال: «**إنه لا يُستغاث بي**» وهذا من باب التعليم وسدِّ الذرائعِ لئلاَ يُتَطَرَّقُ من الاستغاثةِ الجائزةِ إلى الاستغاثةِ الممنوعةِ، فالرسولُ ﷺ منَعَ من شيءٍ جائزٍ خوفًا أن يُفضيّ إلى شيءٍ غيرِ جائزٍ، مثلَ ما منع من الصلاةِ عندَ القبورِ، والدعاءِ عندَ القبور، وإن كانَ المُصلِّي والداعي لا يدعو إلَّا اللهَ، ولا يصلِّي إلَّا للهِ، لكنَّ هذا وسيلةٌ من وسائلِ الشركِ، كذلك هنا؛ فالرسولُ أنكرَ هذه اللفظةَ سدًّا للذرائعِ، وتعليمًا للمسلمينَ، أن يتجنّبوا الألفاظَ غيرَ اللائقةِ.

فإذا كانَ الرسولُ أنكرَ الاستغاثةَ به فيما يقدرُ عليه، فكيفَ بالاستغاثةِ به فيما لا يقدرُ عليه إلَّا اللهُ ﷻ؟ وكيفَ بالاستغاثةِ بالأمواتِ؟ هذا أشدُّ إنكارًا.

الباب الخامس عشر

بَاب قَولُ الله تَعَالَى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

وَقَولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

قوله تعالى: «﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]» هذا استفهامٌ، معناه: الإنكارُ.

﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي: هذا الشركُ باطلٌ؛ بدليلِ أنَّ هذِهِ المعبوداتِ من دونِ اللهِ لا تخلقُ شيئًا، فهي عاجزةٌ لأنَّ الذي يستحقُّ العبادةَ هو الخالقُ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: هذهِ المعبوداتُ التي تعبدونها مخلوقاتٌ لله ﷻ، فهم لم يخلقوا أنفسَهم، ولم يخلقوا غيرَهم، فكيفَ تتّخذونَهم معَ الخالقِ ﷻ؟، هل هذا إلَّا من بابِ المكابرةِ، ومن بابِ العِناد.

قوله ﷻ: «﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾» أي: غيرِ اللهِ ﷻ، وهذا يشمَلُ كلَّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ، من آدميِّينَ أو أحجارٍ، أو أشجارٍ، أو ملائكةٍ، أو غيرِ ذلكَ. ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ والقطميرُ هو الغشاءُ الرقيقُ الذي يكونُ على النواةِ وهو شيءٌ حقيرٌ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾. يُشترَطُ في المدعُوّ ثلاثةُ شروطٍ:

الأول: أن يكونَ مالكًا لما يُطلَبُ منه.

الثاني: أن يكونَ يسمعُ الدَّاعي.

الثالث: أن يكونَ يَقْدرُ على الإجابةِ.

وهذه الأمورُ لا تتّفقُ إلَّا في الله ﷻ، فإنه المالكُ، السَّميعُ، القادرُ على الإجابةِ، أما هذهِ المعبوداتُ فهي أولاً: فقيرةٌ، ليسَ لها مُلْك. ثانيًا: لا تسمعُ مَنْ دعاها. وثالثًا: لو سمِعَتْ لا تقدرُ على الإجابةِ.

ففي قوله تعالى: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ انتفى الشرطُ الأولُ.

وفي قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ انتفى الشرطُ الثاني.

وفي قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ انتفى الشرطُ الثالثُ.

إذًا بَطُل دعاؤُها.

ثمَّ قالَ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إذا جاءَ يومَ القيامةِ يتبرّؤونَ منكم، وكلُّ المعبوداتِ من دونِ الله تتبرّأ ممَّنْ عبدَها يومَ القيامةِ.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] لا ينبِّئكَ ويُخبرك عن الأشياءِ مثلَ خبيرٍ بها وهو اللهُ ﷻ، هو الذي يعلمُ الأشياءَ والعواقبَ، ويعلمُ المآلَ والمصيرَ، وهو يُخبرُكم أيُّها الناسُ بأن مَنْ عبَدَ غيرَ الله فإنه سيتبرّأُ منه يومَ القيامةِ، فخذوا حذرَكُم.

وَفِي الصَّحِيحِ[1] **عَن أَنَسٍ، قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ؟» فَنَزَلَتْ:** ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وَفيهِ[2] **عَن ابنِ عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: «سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ الله:** ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

«**عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ**» الشَّجَّة هي: الجرْحُ في الرأسِ والوجهِ خاصَّة.

«**يوم أحد**»: جبلٌ يقعُ في الشَّمالِ الشرقيِّ من المدينةِ، حصلَتْ عندَهُ وقعةُ أحدٍ في السنةِ التي بعدَ وقعةِ بدرٍ.

«**شُجَّ النبي ﷺ**» وهذا دليلٌ على أنَّ الرسولَ ﷺ لا يملِكُ لنفسِه ضرًّا ولا نفعًا، فلا تجوزُ عبادتُهُ. ولما شُجّ النبيُّ ﷺ يومَ أُحدٍ قالَ ﷺ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟**» استبعَدَ ﷺ فلاحَهم، واستبعَدَ استجابتَهُم للدعوةِ، لأنَّهم بَلَغوا من العِنادِ، وبَلَغوا من المُشاقَّةِ إلى هذا الحدِّ، فهؤلاءِ بعيدٌ أن يستجيبوا، وإذا لم يستجيبوا فَلَنْ يُفْلحوا، ولكنَّ اللهَ ﷻ يعلمُ المستقبلَ وما يكونُ، فعاتَبهُ وقال: «﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]» وهذا أيضًا دليلٌ آخرُ على عدمِ استحقاقِهِ لشيءٍ من العبادةِ، الأمرُ في هذا الكونِ والتدبيرُ لله ﷻ.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ لا أَمْر النَّصْرِ، ولا أَمْر الهزيمةِ، ولا أمر التَّوبةِ، ولا أمر

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٦٩).

وَفِي رِوَايةٍ: يَدْعو عَلَى صَفوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيلِ بنِ عَمرو، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ. فَنَزَلَت: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾(1). **وَفِيهِ**(2)**: عَن أَبِي هُرَيرَةَ** رضي الله عنه **قَالَ: قَامَ فينَا رَسُولُ الله** ﷺ **حِينَ أُنزِلَ عَلَيهِ:** ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الفلاحِ، ولا أَمْر الدُّخولِ في الإسلامِ والهدايةِ، وإنَّما كلُّ هذا بيدِ الله ﷻ، أنتَ ليسَ عليك إلَّا البلاغُ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

«**عن ابن عمر** رضي الله عنهما **أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله** ﷺ **يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**» يدعو الرسولُ ﷺ على فلانٍ وفلانٍ أَنْ يطردَهُمُ اللهُ من رحمتِهِ؛ بسببِ أنَّهم أَلَّبُوا المشركينَ، وجاءوا لحربِ الرَّسولِ ﷺ، وأوْقعوا بالمسلمينَ هذهِ المصيبةَ.

قال: «**وَفِي رِوَايةٍ: يَدْعو عَلَى صَفوَانَ بنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيلِ بنِ عَمرو، وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ**» هذا تفسيرٌ لقولِهِ: «**اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا**»، وأنَّ المرادَ بهم هؤلاءِ الأشْخاص، لأنَّهم من قادةِ المشركينِ يومَ أُحدٍ معَ أبي سفيانَ، وكانَ النبيُّ ﷺ يدعو عليهم لما وَقَع منهم، ولكنَّ اللهَ يعلَمُ مِنْ حالِ هؤلاءِ وما يؤولُ إليهِ أمرُهُم ما لا يعلمُهُ الرَّسُولُ ﷺ، فإنَّ هؤلاء تابَ اللهُ عليهم وأَسْلموا، وحسُن إسلامُهُم رضي الله عنهم.

قوله: «**عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: قام فينا رسول الله** ﷺ» جاء في الحديثِ الآخرِ: أنه قامَ على الصَّفا. «**حين أُنزِلَ** ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾» الإنذارُ معناه: الإخبارُ والتحذيرُ من وقوعِ أمرٍ مكروهٍ.

---

(١) أخرجها البخاري (٤٠٧٠) عن سالم بن عبد الله مرسلة. ووصلها أحمد (٢/ ٩٣) والترمذي (٣٠٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا. يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا أُغْنِيْ عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا. وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ؛ سَلِينِي مِنْ مَالِي ما شِئْتِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

والعشيرة: جماعةُ الرجلِ الذين ينتسبُ إليهم.

والأقربينَ يعني: أقربُ الناسِ إلى الإنسان.

فقال: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ**» المعشر: الجماعةُ، أي: يا جماعةَ قريشٍ.

«**اشتروا أنفسكم**» أي: افتدوها من عذابِ اللهِ، أنقذوها من عذابِ الله. بالدخولِ في الإسلامِ، وتوحيدِ اللهِ ﷻ، وتركِ عبادةِ ما سواه.

«**لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» أي: لا ينفعُكُم أنِّي منكم، وأنتم قبيلتي، هذا لا ينفَعُكُم عندَ الله شيئًا.

فقوله: «**يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» عمَّم ﷺ في الإنذارِ لجميعِ قريشٍ، وجَميع بطونِها، وجميعِ أفخاذِها وقبائِلِها.

ثم خصَّ ﷺ الأقربينَ إليه، فقالَ: «**يا عبّاس ابن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا**» العبّاسُ بنُ عبدِ المطلبِ عمُّ الرسولِ ﷺ، فإذا كانَ لا يُغني عن عمّه شيئًا، فكيفَ يُغني عَنْ غيرِهِ؟

ثمَّ قالَ: «**يَا صَفِيَّةَ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» مثْلَ عمِّه العباسِ.

ثمَّ خَصَّ أقربُ من هؤلاءِ، وهي بنتُهُ، التي هي بَضْعَةٌ منه، فقال: «**يا فاطمة بنت محمد؛ سليني من مالي**» يعني: اطلبي مني شيئًا أملِكُهُ وهو المالُ، أما النَّجاةُ من النارِ فهذهِ لا أملِكُها:

«**لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا**» أمَّا الآخرةُ، والنَّجاةُ من النَّارِ، والدخولُ في الجنةِ، فهذا إنما يُطلَبُ من اللهِ ﷻ، ويُحصلُ عليه بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ.

فهذا فيه دليلٌ على مسألةٍ مهمةٍ وهي: أنه لا يجوزُ الاعتمادُ على النسبِ والقرابةِ من الأنبياءِ والصالحينَ، لأنه لا يُغني عندَ اللهِ شَيْئًا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، هذا عامٌّ في كلِّ النَّاسِ وقراباتِ الأنبياءِ وغيرِهم.

الباب السادس عشر

بَاب قَولُ الله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

فِي الصَّحِيحِ(١) **عن أَبِي هُرَيرَةَ** ﷺ **عَنِ النَّبِيِّ** ﷺ**، قَالَ:** «**إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَولِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ،** ....

مُرادُ الشَّيخ رحمه الله بهذا البابِ: أَنْ يُبيِّن بُطلانَ عبادةِ الملائكةِ، لأنَّ الملائكةَ عُبدوا مِنْ دونِ الله، وإذا بطُلَ ذلك في حقِّ الملائكةِ وهم أقوى الخلقِ خِلقةً، ومن أَقْربِهم إلى الله ﷻ منزلةً فلأن تبطلَ عبادةُ مَنْ سواهُم من الآدميينَ والجنِّ والإنسِ مِنْ بابِ أولى، هذا فقهُ هذه الترجمةِ.

قوله: «**إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ**» معناه: إذا تكلَّمَ اللهُ بالوحي.

وفي قولِه: «**فِي السَّمَاءِ**» هذا فيهِ إثباتُ علوِّ الله ﷻ.

وقوله: «**ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا**» الملائكة مِنْ أعظمِ المخلوقاتِ، لا يعلمُ عِظَم خِلْقةِ الملائكةِ إلَّا اللهُ ﷻ، فهم مع قوّتِهم وعِظَم خِلْقَتِهم يخافونَ من الله ﷻ، إذا سَمِعوا كلامَه ضربوا بأجنِحَتهم.

«**خضعانًا**» يعني لماذا ضربوا بأجنحتهم؟ لأجل الخضوع لله. وتعظيمًا له، وخوفًا منه ﷻ. فإنْ كانَتْ هذهِ حالتُهم فلا يجوزُ أن يُعبدوا مع الله.

«**لقوله**» أي: لقولِ الله ﷻ. قوله: «**كأنه**» أي: كأنَّ قولَه تعالى وتكَلُّمه سبحانه بالوحي.

«**سلسلة على صفوان**» تشبيهٌ لصوتِ الوحي الذي يأتي إلى المَلَك، أو صوتِ المَلَك نفسِهِ بصوتِ السلسلةِ إذا جُرَّت على حجرٍ أمْلَس.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠١).

يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ **فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعضُهُ فَوْقَ بَعضٍ» وَصَفَهُ سُفيَانُ[١] بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبدَدَّ بَيْنَ أَصَابِعِهِ. «فَيسمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلقِيها إِلَى مَن تَحتَهُ، ثُمَّ يُلقِيها الآخَرُ إِلَى مَن تَحتَهُ ..**

«**ينفذهم ذلك**» أي: أنَّ كلامَ اللهِ يبلغُ إلى قلوبِهم فيخافونَ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: أُزيل عنها الفزعُ، تساءلوا بينهم: ماذا قالَ ربُّكم؟

﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾: أي قالَ بعضُهم لبعضٍ: قالَ اللهُ الحقَّ، لكنَّ كلامَهُ حقٌّ ﷻ.

قال ﷺ: «**فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ**» ومُسْتَرِقُ السمعِ، هو الشيطانُ الذي يخطفُ الكلمةَ من الوحي الذي تتكلمُ بِهِ الملائكةُ في السماءِ، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٨].

«**وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا: بَعضُهُ فَوْقَ بَعضٍ**» معناه: أنَّ الشياطينَ يَعْلُو بعضُها بعضًا حتى تصلَ إلى عنانِ السماءِ، كلُّ واحدٍ يركبُ على الآخر، من أجلِ استراقِ السمعِ.

«**وصفه سفيان**» يعني: راوي الحديث. يعني: وَصفَ تراكمَهم ووصفَ ركوبَ بعضِهم فوقَ بعضٍ في الجوِّ.

«**بكفه، فحرّفها**» يعني: أمالها، وفرَّق أصابعَها، والأصابعُ يكونُ بعضُها فوقَ بعضٍ.

وقوله: «**فيسمع الكلمة**» أي: يَسْمَع مُسترِقُ السَّمعِ الكلمةَ مما تكلَّمتْ به الملائكةُ، فيُلقيها إلى مَنْ تحتَهُ من الشياطينِ، والذي تحته يُلقيها إلى الآخرِ، واحدًا بعدَ واحدٍ، حتى يُلقيَها الأخيرُ على لسانِ الساحرِ أو الكاهنِ من بني آدمَ.

---

(١) **سفيانُ**: هو ابنُ عيينةَ بنِ ميمونٍ الهلاليُّ، ثقةٌ حافظٌ حجةٌ مِنْ كبارِ الأئمةِ، ماتَ سنة ١٩٨هـ.

حَتَى يُلقِيها عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَو الكَاهِنِ فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالَ: أَلَيسَ قَد قَالَ لَنَا يومَ كَذَا وكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟، فَيُصدَّقُ بِتِلكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ». وَعَنِ النَّواسِ بنِ سَمعَانَ ﵁؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَن يُوحِي بالأَمْرِ ....

وقوله: «**حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ**» دلّ على أنهما من فصيلةٍ واحدةٍ، وأنهم يتلقونَ عن الشياطينِ. قالَ سُبحانه مبينًا سندَ الكهَّانِ والسَّحرةِ والمشعوذينَ: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء].

قوله: «**فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ**» هذا المقصودُ من استراقِ السمعِ، من أجلِ أن يخدعوا الإنسَ، ومن أجلِ أن يخلطوا الحقَّ بالباطلِ، ويلبسوا الحقَّ بالباطلِ، لأنهم لو جاءوا بالباطلِ الخالصِ المحضِ ما صدَّقَهُم أَحدٌ، لكِنْ إذا خلطوهُ بشيءٍ من الحقِّ صدَّقَهم الناسُ.

قوله: «**فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ**» هذه الفتنةُ العظيمةُ: لبسُ الحقِّ بالباطلِ، لأنَّ الباطلَ لو كانَ مكشوفًا واضحًا خالصًا ما قبلَهُ أحدٌ، وإنما يُقبَلُ الباطلُ إذا لُبِّس معه شيءٌ من الحقِّ.

قوله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَن يُوحِي بالأَمْرِ**» فهذا فيهِ: إثباتُ الإرادةِ لله ﷻ، وإرادتُهُ على نوعينِ:

إرادةٌ كونيةٌ، بها يخلقُ ويرزقُ، ويهدي ويضلُّ، ويحيي ويميتُ.

وإرادةٌ شرعيةٌ دينيةٌ بها يأمرُ عبادَهُ بما يصلحُهُم ويَنهاهم عمَّا يضُرُّهم.

«**أن يوحي**» الوحي هو: الإعلامُ بسرعةٍ وخفاءٍ، وهو على نوعينِ: وحي إلهامٍ. ووحي إرسالٍ.

تَكَلَّمَ بِالوَحِيِ، أَخَذَتِ السَّماواتُ مِنهُ رَجفَةٌ (أَو قَالَ: رَعدَةٌ شديدُة) خَوفًا مِنَ الله ﷻ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلكَ أَهلُ السَّماواتِ صَعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّدًا ....

وحي الإلهامِ: يكونُ بإلهامِ الله بعضَ المخلوقاتِ ببعضِ الأمورِ مثَل قولِهِ تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أي: ألهمَهَا.

وأما وحي الإرسالِ: فهو الذي ينزلُ بهِ جبريلُ عليه السلام إلى الرُّسُل.

«**بالأمر**» أي: بالشأنِ من شؤونِ الكونِ والمخلوقاتِ، أو بالأمرِ من الوحي المُنزَّلِ على الرسلِ، فهو عامٌّ.

فالأمرُ على نوعينِ: كوني وشرعي.

«**تكلم بالوحي**» تكلمًا يليقُ بجلاله، وهذا فيه: إثباتُ الكلامِ لله سبحانه وتعالى.

«**أخذت السماوات منه رجفة (أو قال: رعدة شديدة)**» هذا شكٌّ من الرَّاوي، أي: إذا سمِعَتْ كلامَ اللهِ يصيبُها خوفٌ وهيبةٌ لكلامِ اللهِ، وهذا فيه: أنَّ الجماداتِ تدركُ عظمةَ ربِّها، وتُسبِّحُهُ، وتُعظِّمُهُ كما قالَ سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

«**فإذا سمع ذلك أهل السماوات**» يعني: سَمِعَ الملائكةُ كلامَ اللهِ أيضًا.

«**صعِقُوا**» بمعنى: أنهم يُغْشى عليهم من الخوفِ من اللهِ ﷻ والهيبةِ والجلالِ. «**وخروا لله**» يعني: ينحطّون للهِ «**سُجَّدًا**» على وجوهِهم تعظيمًا للهِ وتعبّدًا لله.

وفي هذا دليلٌ على أنَّ الملائكةَ عبادٌ للهِ، يخافونَهُ ويهابونَهُ.

وفي هذا ردٌّ على المشركينَ الذين يعبدونَ الملائكةَ، ويزعمونَ أنَّ الملائكةَ تُقرِّبُهم إلى اللهِ، فهذا فيهِ ردٌّ عليهم، وهو أن الملائكةَ، عبادٌ من عبادِ اللهِ، يخافون من اللهِ، ويسجدونَ له، والعبدُ

فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرفَعُ رَأسَهُ جِبرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِن وَحيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبريلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبرِيلُ؟ فَيَقُولُ: قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ. فَيقُولُونَ كُلُّهُم مِثلَ مَا قَالَ جِبرِيلُ.

لا يجوزُ أَنْ يُعبَدَ ولا أَنْ يُدْعى ويُستغاثَ به، وإنما يُعبدُ اللهُ ﷻ، وهذا هو الذي ساقَ المصنّفُ رَحِمَهُ اللهُ هذا الحديثَ من أجلهِ.

«**فيكون أول من يرفع رأسه**» يعني: من السجود. «**جبريل**» وهو أعظمُ الملائكةِ، وهو موكَّلٌ بالوحي. «**ثم يمر جبريل على الملائكة**» هذا فيه: فضلُ جبريلَ عليه السلام، وأنَّ اللهَ اختصَّهُ بائتمانِهِ على الوحي، وأنَّ أهلَ السماواتِ يسألونَه.

«**كلما مرَّ بسماءٍ**» هذا فيه دليلٌ على تعدُّدِ السَّماواتِ.

«**سأله ملائكتها**» هذا فيه دليلٌ على أنَّ لكلِّ سماءٍ ملائكةً خاصِّينَ بها.

«**ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال: الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل**» تعظيمًا لله ﷻ. وهذا فيه دليلٌ على أنَّ كلامَ اللهِ حقٌّ لا ريبَ فيه، وأنَّ الملائكةَ لا تعلمُ الغيبَ ولذلكَ تَسْأَلُ جبريلَ.

«**وَهُوَ العَلِيُّ**» هذا فيه إثباتُ العلوِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

«**الكَبِيرُ**» الذي لا أكبرَ منه ﷻ، كلُّ المخلوقاتِ صغيرةٌ بالنسبةِ إلى اللهِ ﷻ، ليسَتْ بشيءٍ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، هذا من عظمتِهِ ﷻ.

الباب السابع عشر

بَابُ الشَّفاعـة

....

قالَ الشيخُ الإمامُ رحمه الله: «**باب الشفاعة**» الشَّفاعة معناها: التَّوسُطُ في قضاءِ حاجةِ المحتاجِ لدى مَنْ هي عندَهُ. سُمِّيتْ بذلكَ لأنَّ طالبَ الحاجةِ كان منفردًا في الأولِ، ثمّ لما انضمَّ إليه الشافعُ صارَ شفعًا، لأنَّ الشفعَ ضدُّ الوترِ.

ومرادُ المُصنِّفِ رحمه الله مِنْ هذا البابِ: أنه لما كانَ المشركونَ قديمًا وحديثًا يعبدونَ من دونِ اللهِ الأصنامَ والأشجارَ والأحجار والأضرحةَ والأولياءَ والصالحينَ والملائكةَ والأنبياءَ، فإذا أنكَرَ عليهم ذلكَ قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، نحنُ نعلمُ أنهم مخلوقونَ، وأنَّ الأمرَ بيدِ اللهِ، ولكنَّ هؤلاءِ لهم مكانةٌ عندَ اللهِ، ونريدُ منهم أَنْ يشفعوا لنا عندَ اللهِ. فيذبحونَ للأولياءِ والصالحينَ والأشجارَ والأحجارَ، ويستغيثونَ بهم، ويصرفونَ لهم أنواعَ العبادةِ، فإذا أنكرَ عليهم قالوا: غرضُنا من ذلك هو الشفاعةُ فقط. فبيَّنَ اللهُ أنَّ ذلك هو الشركُ، وأنَّ تلك هي عبادةُ غيرِ اللهِ، فقال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

والشَّفاعة في كتاب اللهِ جاءَتْ على قسمينِ: قسمٌ منفيٌّ. وقسمٌ مثبتٌ.

فالقسم المنفي: هو الشفاعةُ التي تطلبُ من غيرِ اللهِ.

هذه الشفاعةُ منفيّةٌ، لأنَّ الشفاعةَ ملكٌ للهِ، لا تُطْلَبُ إلَّا منه.

والشفاعةُ المثبتةُ: هي التي يتوفَّرَ فيها الشَّرطانِ:

الشرط الأول: أن تُطلبَ من اللهِ.

الشرط الثاني: أن تكونَ فيمن تُقْبَلُ فيهِ الشفاعةُ، وهو المؤمنُ الموحِّدُ الذي عندَه شيءٌ من المعاصي دونَ الشركِ، فهذا تُقبلُ فيه الشفاعةُ بإذنِ اللهِ.

قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ هذا الشرطُ الأولُ. ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ هذا هو الشرطُ الثَّاني.

والشفاعة المثبتةُ ستةُ أنواعٍ:

النوع الأول: الشفاعةُ العظمى، وهي المقامُ المحمودُ، وهي التي تكونُ من الرسولِ ﷺ لأهلِ الموقفِ.

قالَ تَعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، لأنه يحمدُهُ عليه الأولونَ والآخرونَ ﷺ.

النوع الثاني: شفاعتُهُ ﷺ لأهلِ الجنةِ في أن يدخلوا الجنَّةَ.

النوع الثالث: شفاعتُهُ ﷺ في بعض أهل الجنة في رِفعة درجاتهم في الجنة.

النوع الرابع: شفاعتُهُ ﷺ في عمِّه أبي طالبٍ، فالنبيُّ ﷺ يشفعُ له في تخفيفِ العذابِ عنهُ يومَ القيامةِ، لا في إخراجِهِ من النَّارِ.

النوع الخامس: الشَّفاعةُ فيمَن استحقَّ النَّارَ من أهلِ التوحيدِ أَنْ لا يدخُلَها.

النوع السادس: الشفاعةُ فيمن دخَلَ النَّارَ من أهلِ التوحيدِ أن يخرجَ منها، وهاتانِ الشفاعتانِ الأخيرتانِ ليست خاصَّتينِ بالنبيِّ ﷺ، بل هما عامَّتانِ في الأنبياءِ والأولياءِ، والصالحينَ، والأفراطِ -وهم الأولادُ الصغارُ- يشفعونَ لآبائِهم.

وَقَولِ الله ﷻ: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ [الأنعام: ٥١]. **وَقَولِهِ:** ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر: ٤٤].

يقول: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾ الإنذارُ هو: الإعلامُ بشيءٍ مَخُوْف.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ الحشرُ معناه: الجمعُ، لأنَّ اللهَ يجمَعُ الخلائقَ يومَ القيامةِ أوَّلهم وآخرَهم في صعيدٍ واحدٍ، لا يخفى منهم أحدٌ؛ لأجلِ فصلِ القضاءِ بينهم، وجزائِهم بأعمالِهم.

﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: غَيْرِ اللهِ.

﴿وَلِيّٞ﴾ لا أحدَ يتولَّاهم يومَ القيامةِ من الخلقِ،

﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ أي: واسطة: يتوسَّطُ له عندَ اللهِ، ما أحدٌ يشفعُ له يومَ القيامةِ إلَّا بإذنِ اللهِ ﷻ، وبشرطِ أن يكونَ هذا الشخصُ ممَّنْ يرضى اللهُ عنه،

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ هذه الآيةُ جزءٌ من آيةٍ من سورةِ الزُّمر، وهي قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾.

فقوله: ﴿أَمِ﴾ هنا بمعنى: بَلْ، أي: بل اتخذوا، وهذا من بابِ الإنكارِ عليهم.

﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: المُشْركون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيرِ اللهِ.

﴿شُفَعَآءَۚ﴾ أي: وسائط، يتوسَّطون بينَهم وبينَ اللهِ في إجابةِ دعواتِهم، وقضاءِ حاجاتِهم.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فالشَّفاعةُ ليستْ ملكًا لهم، فأنتم تطلبونَ منهم ما لا يملكونَ.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ إذًا تُطلَبُ الشَّفاعةُ من اللهِ، ولا تُطْلَبُ من غيرِهِ.

قال: وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ ﴿مَن﴾ نفي، أي: لا أحد، ﴿يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عندَ اللهِ تعالى، ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ فهو الذي يَأْذنُ للشُّفعاء أَنْ يشفعوا، وبدونِ إذنِهِ لا يُمْكِنُ لأحدٍ أن يشفعَ أبدًا، ففي هذا ردٌّ على المشركينَ الذين اتَّخذوا الشُّفعاءَ بدونِ إذنِهِ ﷻ في ذلكَ، وزَعَموا أنَّ هؤلاءِ الشفعاءَ يقومونَ بما يريدونَ منهم عندَ اللهِ ﷻ.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: كثيرٌ من الملائكةِ.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأنَّ موطنَ الملائكةَ: السماواتُ، ومع كثرتِهم ﴿لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا تغني شيئًا أبدًا إلَّا بشرطينِ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ هذا الشَّرْطُ الأوَّلُ. ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ هذا الشَّرط الثَّاني.

يأذنُ للشَّافعِ أَنْ يشفعَ، ويرضى عن المشفوعِ فيه أن يُشفَعَ فيه، وهو المُؤْمنُ الموحِّدُ الذي عندَه ذنوبٌ يستحقُّ بها العذابَ، فإذا أذِنَ اللهُ ﷻ في الشَّفاعةِ فيه، فإنه تنفَعُهُ الشَّفاعةُ، ويَسْلمُ من العذابِ بإذنِ اللهِ ﷻ.

وَقَولِهِ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **الآيتين** [سبأ: ٢٢-٢٣]. **قَالَ أَبُو العَبَّاسِ**(١): «**نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلكٌ أَو قِسطٌ مِنهُ، أَو يَكُونَ عونًا لله، وَلَم يَبقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ، كَمَا قَالَ:** ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[الأنبياء: ٢٨]. **فهذه الشَّفَاعةُ الَّتِي يَظُنُّها المشركون هي مُنْتَفِيَةٌ يوم القيامةِ، كما نَفَاهَا القُرآنُ، وأخبَرَ النبيُّ ﷺ: «أنه يأتي فَيَسْجُدُ لربه وَيَحْمَدُهُ [لا يَبدَأُ بالشَّفَاعَةِ أَولًا] ثُمَّ يُقال لَهُ: ارفَع رَأسَكَ، وقُلْ يُسمعْ، وَسَلْ تُعْطَ، واشفَع تُشَفَّع»(٢). وَقالَ له أبو هُرَيرَةُ: مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَن قَالَ: لا إلهَ إِلَّا الله؛ خَالِصًا مِن قَلبِهِ»(٣). فَتِلكَ الشَّفَاعَةُ لَأهلِ الإِخلَاصِ بِإِذنِ الله، ولا تكُونُ لِمَن أَشرَكَ بِالله. وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سبحانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهلِ الإخلاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُم بِواسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أن يَشفَعَ؛ لِيُكرِمَهُ وَيَنَالَ المَقَامَ المَحمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِركٌ، وَلِهَذَا أَثبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذنِهِ فِي مَوَاضِعَ. وَقَد بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لا تَكُونُ إِلَّا لأهلِ الإخلَاصِ وَالتَّوحِيدِ». انتهى كَلَامُهُ رَحِمَهُ الله.**

ذكرَ الشيخُ قولَه تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **وتمامًا لآيتين:** ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

ثمَّ ساقَ رحمه الله كلامَ شيخِ الإسلامِ ابن تيميّةَ في توضيحِ هذه الآيةِ وتفسيرِها، وختَمَ به

---

(١) **أبو العباسِ:** هو شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدينِ أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بن عبدِ السلامِ ابنِ تيمية، الإمامُ المشهور.

(٢) جزء من حديث الشفاعة الطويل الذي يرويه أبو هريرة، وهو عند البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٩٩).

....

هذا البابَ العظيمَ، الذي هو: «**باب الشفاعة**».

قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ أمرٌ لرسولِهِ محمَّدٍ ﷺ بأن يقول لهؤلاء الذين يدعونَ الملائكةَ وغيرَهم من دون الله ويزعمونَ أنهم يشفعونَ لهم عندَ الله بغيرِ إذنِهِ ﷻ،

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟﴾ هذا أمرُ توبيخٍ وتعجيزٍ،

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي: زعَمْتُم أنهم ينفعونَ أو يضرُّون.

﴿مِّن دُونِ﴾ أي: غيرِ الله ﷻ.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ وذلك أنَّ المدعوَّ لابدَّ أن يتوفرُ فيهِ أحدُ هذهِ الأحوالِ:

الحالة الأولى: إما أنْ يكون مالكًا للمطلوبِ منه، فأنتَ إذا طلبْتَ من أحدٍ شيئًا فلابدَّ أن يكونَ مالكًا له، وهؤلاءِ المدعوونَ لا يملكونَ شيئًا مما يُطلَبُ منهم، إذًا دعاؤهم باطلٌ،

الحالة الثانية: إذا لم يكن مالك فلا أقلَّ من أنْ يكونَ شريكًا للمالكِ، وهذا منتفٍ في حقِّ الخَلْقِ، فلا أحدٌ يشاركُ اللهَ في ملكِ السماواتِ والأرضِ أبدًا، لا الملائكةُ، ولا الأنبياءُ، ولا الأولياءُ، الملكُ للهِ.

الحالةُ الثالثة: إذا لم يكُنْ مالكًا للشيءِ ولا شريكًا فيه فربَّما يكونُ مُعينًا للمالكِ، وإذا كانَ معينًا للمالكِ جاز أن يَسْتشفعَ به إليه، واللهُ نفى هذا وقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ لا أحد

يعينُ اللهَ من خلقِهِ، انفردَ بخلقِ السماواتِ والأرضِ، وخلقِ المخلوقاتِ، لأنه قادرٌ ﷻ على كلِّ شيءٍ.

الحالة الرابعة: قد يكونُ شفيعًا عندَ المالكِ مثلَ ما يشفعُ النّاسُ عندَ الملوك، وهم ليسوا ملوكًا، وليسوا شركاء للملوكِ، وليسوا وزراءَ للملوكِ وأعوانًا، لكنَّهم شفعاء، يأتي ذو جاهٍ ومكانةٍ فيدخلُ على السلطانِ ويشفعُ عندَه، وهو ليسَ معينًا له ولا شريكًا له، هذا جائزٌ في حقِّ المخلوقينَ، لكِنْ في حقِّ الخالقِ لا يجوزُ، لأنَّ الشفاعةَ لا تكونُ إلَّا بإذنِهِ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عندَ اللهِ ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾

قال ﷻ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾، إذًا بطُلَتْ شفاعَتُهم من كلِّ الوجوهِ الأربعةِ، فهي شفاعةٌ باطلةٌ، وإنما الشفاعةُ الصحيحةُ هي الشفاعةُ التي يتوفرُ فيها شرطانِ:

الشَّرْط الأوَّل: أن تكونَ بإذنِ الله.

الشرط الثاني: أن تكونَ في أهلِ التوحيدِ والإخلاص.

دلَّ هذا الحديثُ على أنَّ شفاعةَ الرسولِ ﷺ بعدَ إذنِ اللهِ تعالى بها لا تكونُ إلَّا لأهلِ الإخلاصِ، لا تكونُ لأهلِ الشركِ، وأهلِ الإخلاصِ هم: من قال: لا إله إلَّا الله، أي تلفَّظَ بها، «خالصًا من قلبه» لم يقُلْها بلسانِهِ فقَطْ، وإنما قالَها عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها، معتقدًا لها بقلبِهِ.

الباب الثامن عشر

بَاب قَولُ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ الآية [القصص: ٥٦].

وفِي الصَّحِيحِ[١] عَن ابنِ المُسَيِّبِ[٢] عَن أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ.............

غرضُ المصنِّفِ رحمه الله مِنْ عَقْدِ هذا البابِ: الردُّ على الذينَ غَلَوْ في النبيِّ ﷺ، وعلى المشركينَ الذين يتعلَّقونَ بالأولياءِ والصالحينَ، يدعونَهم من دونِ الله، ويستغيثون بهم، لأنه إذا كانَ رسولُ الله ﷺ لم يملِكْ لعمِّه أبي طالبٍ شيئًا، وأنه نُهي عن الاستغفارِ له معَ حرصِهِ على نفعِهِ، وعاتبَهُ اللهُ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾، وبقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣]، فإذا كانَ هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ، وهو أفضلُ الخلقِ، دلَّ على أنه لا يُدعى من دونِ الله، ولا يُطلَبُ منهُ شيءٌ من الأمورِ التي لا يَقْدرُ عليها إلَّا اللهُ، فغيرُهُ من بابِ أولى من الأولياءِ، والصالحينَ، وأصحابِ الأضرحةِ، مهما بلَغوا من الصلاحِ، ومهما بلغوا من المكانةِ في الدِّينِ، فإنهم لا يُطلَبُ منهم إلَّا ما يقدرونَ عليه من أمورِ الدُّنيا، إذا كانوا على قيدِ الحياةِ، أمَّا أمورُ الهدايةِ، وأمورُ قضاءِ الحاجاتِ التي لا يقدرُ عليها إلَّا اللهُ من شفاءِ المرضى، وإنزالِ المطرِ، وجلبِ الأرزاقِ، وإعطاءِ الأولادِ، هذا كلُّه لا يُطلبُ إلَّا من اللهِ ﷻ، ولا يطلبُ من غيرِ الله، لا من نبيٍّ، ولا مِنْ وليٍّ، ولا من أيِّ مخلوقٍ، ومن طلبَهُ من غيرِ اللهِ فهو مشركٌ الشركَ الأكبرَ المخرجَ من الملّةِ.

قوله: «**قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة**» معناه: قاربَ الوفاةَ، وظهرَتْ عليه علامةُ الموتِ قبلَ أن تبلغَ روحُه الغرغرةَ، وقبلَ أن يأتيَ الوقتُ الذي لا تُقبَلُ منه التوبةُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) **ابنِ المسيبِ**: هو سعيدُ بنُ المسيبِ أحدُ العلماءِ والفقهاءِ الكبارِ مِنَ التابِعِينَ، مات بعدَ التسعينَ.

جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، وَأَبُو جَهلٍ، فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ». فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» ....

«**وعنده عبد الله بن أبي أمية المخزومي، وأبو جهل، فقال له**» أي: قالَ النبيُّ ﷺ لأبي طالبٍ.

«**يا عمقل: لا إله إلَّا الله**» يعني: انطِقْ بهذِهِ الكلمةِ، معتقدًا لها بقلبِكَ.

«**كلمة أحاج لك بها عند الله**» يعني: أشهدُ لكَ بها عندَ الله يومَ القيامةِ، من أجلِ نجاتِك من النارِ. بيَّنَ له ﷺ فائدة ذلك، ترغيبًا له. ولكنَّ جلساءَ السوءِ -والعياذُ باللهِ- تسبَّبوا في شقاوةِ هذا الرجلِ: «**فقالا له**» قالَ: أبو جهل وعبدُ الله بنِ أميةَ لأبي طالبٍ معارضين لرسولِ الله ﷺ: «**أترغب عن ملّة عبد المطلب؟**» أي: أتترك ملّة أبيك؟

«**فأعاد عليه رسول الله ﷺ**» هذا فيه: أنَّ الداعيةَ لا ييأسُ، أي: طَلَبَ منه أن يقولَ: لا إله إلَّا الله.

«**فأعادا عليه**» أعادَ عليه الرّجلانِ، قولَتَهم القبيحةَ: «**أترغب عن ملّة عبد المطلّب؟**». فعندَ ذلكَ أخذَتْهُ الحميّةُ الجاهليةُ، فقال: «**هو على ملة عبد المطلّب، وأبى أن يقول: لا إله إلَّا الله**» ومات -والعياذُ باللهِ- على الشركِ.

فعندَ ذلكَ النَّبي ﷺ من شفقَتِهِ على عمِّه، ولما رأى أنهُ ماتَ على الشركِ، وكان منه في حياتِهِ من النُّصرةِ والتأييدِ قال: «**لأستغفرنّ لك ما لم أُنْه عنك**» هذا كلُّه من كمالِ شفقتِهِ ﷺ، ومن مجازاتِهِ على المعروفِ، ووفائِهِ ﷺ.

فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣].
وَأَنزَلَ اللهُ فِي أبي طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

«**فأنزل الله سبحانه:** ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾» نهاه اللهُ عن ذلكَ، ونهى المؤمنينَ، لأنَّ المسلمينَ لما رأَوْا رسولَ الله ﷺ يستغفرُ لعمِّه قالوا: إذًا نستغفرُ لموتانا، فأنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ.

«**وأنزل الله في أبي طالب:** ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾» ﴿إِنَّكَ﴾ أيُّها الرسولُ، ﴿لَا تَهۡدِي﴾ لا تملِكْ هدايةَ ﴿مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾مِنْ أقاربك وعمِّك،

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ فنفى ﷻ عن نبيِّه محمَّدٍ ﷺ أنه يملكُ الهدايةَ لأحدٍ، فإنْ قلتَ: أليسَ اللهُ ﷻ قالَ في الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فأثبتَ في هذهِ الآيةِ أنَّ الرسولَ يَهْدي إلى صراطٍ مستقيمٍ؟

فالجواب عن ذلك: أنَّ الهدايةَ هدايتانِ: هدايةٌ يملِكُها الرسولُ ﷺ، وهدايةٌ لا يملِكُها.

أما الهدايةُ التي يملِكُها الرسولُ ﷺ فهي: هدايةُ الإرشادِ والدعوةِ والبيانِ ويملِكُها كلُّ عالمٍ يدعو إلى الخيرِ.

أما الهدايةُ المنفيّةُ فهي: هدايةُ القلوبِ، وإدخالُ الإيمانِ في القلوبِ، فهذه لا يملكُها أحدٌ إلّا اللهَ ﷻ.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم:٧]، فلا يضَعُ هدايةَ القلبِ إلا فيمن يستحقُّها، أما الذي لا يستحقُّها فإنَّ اللهَ يَحْرِمُهُ منها، واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﷻ.

الباب التاسع عشر
بَاب ما جاءَ أن سَبَبَ كُفر بني آدمَ وتركِهِم دينَهُم هو الغلوُّ في الصالحين

وَقَولُ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

قال الشيخُ ﵀: «**باب ما جاء**» يعني: ما وردَ من الأدلةِ من أَنَّ «**سبب كفر بني آدم**» يعني: كفرُهم باللهِ ﷻ.

«**هو الغلو في الصالحين**» والغلو في الصالحينَ، هو: الزيادةُ في مدحِهم، ورفعِهم فوقَ مكانتِهم؛ بأنْ يُجعلَ لهم شيءٌ من العبادةِ.

قال: «**وقول الله** ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾» المرادُ بأهلِ الكتابِ: اليهودِ والنَّصارى.

﴿لَا تَغۡلُواْ﴾ هذا نهيٌ من اللهِ تعالى لهم عن الغُلوِّ، لأنَّ الغلوَّ إما أَنْ يكونَ في شخصٍ، أو يكونَ في دينٍ.

والغلو في الشخص هو: المبالغةُ في مدحِهِ، ورفعِهِ فوقَ منزلتِهِ التي أنزلَهُ اللهُ فيها.

وأما الغلو في الدِّين فهو: الزيادةُ عن الحدِّ المشروعِ في العباداتِ.

اليهودَ والنَّصارى غلَوْا في أَنْبيائِهم، وغلَوا في دينِهم أيضًا، غَلَوْا في أنبيائِهم، حيثُ قالتِ النَّصارى للمسيحِ: ابنُ اللهِ، فرفعوهُ فوقَ منزلةِ البشريةِ إلى منزلةِ الربوبيةِ ويسمُّونه الرَّبَ. وأما اليهودُ فقد غلوْا في عزيرٍ، قالوا: هو ابنُ اللهِ.

وكذلك النَّصارى غلوْا في دينِهم فابتدعوا الرهبانيةَ، وهي: التَّبتُّلُ والتَّعبُّدُ، ولزومُ الصوامعِ، وعدمُ الخروج منها، رهبانيةً ابتدعوها، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا

فِي الصَّحِيحِ[1] **عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **فِي قَولِ اللهِ تَعَالَى:** ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: ٢٣]. **قَالَ: هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمِ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ.**

كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾، هذا مِنَ الغُلو في الدِّينِ، قالَ تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾.

فكذلكَ الذين غلَوْا في الصالحينَ من هذهِ الأمةِ حتَّى عبدوهُم معَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجعلوا لهم شيئًا من الرّبوبيّةِ والألوهيّةِ، سواءً بسواءٍ.

«**عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **في قول الله تعالى**» يعني: في تفسير قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ قال: هذهِ أسماءُ رجال صالحين من قوم نوح.. إلخ».

قومُ نوحٍ لَمَّا نهاهُمْ نبيُّ اللهِ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الشركِ، وأمرَهُم بعبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له؛ تواصَوْا فيما بينَهم بهذهِ الوصيّةِ الكافرةِ:

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ يعني: لا تُطيعوا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا تَتْركوا آلهتكم التي تعبدونَها من دونِ اللهِ.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ هذه أسماءُ رجالٍ صالحينَ، وكان هذا في الأوَّلِ، لأنَّ النَّاسَ كانوا بعدَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على دينِ التوحيد، وكانَ هؤلاءِ الصالحونَ في هذا العهدِ عهد التوحيد، فلمّا ماتوا حزنوا عليهم حزنًا شديدًا، وبكوا عليهم، فاستغلَّ الشيطانُ لعنَهُ اللهُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠)، وعنده بلفظ: وتنسَّخَ العلم.

وَقَالَ ابنُ القَيِّمِ[1]: قَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: «لَمَّا مَاتُوا؛ عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم، ثُمَّ صَوَّروا تَمَاثِيلَهُم، ثُمَّ طَالَ عَلَيهِم الأَمَدُ فَعَبَدُّوهُم»[2].

هذهِ العاطفةَ فيهم، وأشارَ عليهم بأَنْ يُصوِّروا تماثيلَهم، يعني: يجعلوا لهم صورًا على شكلِ تماثيلَ، كلُّ واحدٍ له صورةٌ، وأَنْ يَنْصبوا هذهِ التماثيلَ على مجالسِهم؛ مِنْ أجلِ أن يَنْشطوا على العبادةِ، هذا ظاهرُ نصيحتِهِ، ولكنَّه في الباطنِ يمكُرُ بهم، لأنه ينظرُ إلى العواقبِ، وإلى الأجيالِ القادمةِ، فإنهُ يعرفُ أنَّ هؤلاءِ -ما دامَ العلمُ موجودًا، وما دامَ أنَّهم على التوحيدِ- لن يتركوا عبادةَ اللهِ ﷻ.

«**حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم**» يعني: بموتِ العلماءِ الذين يُحذِّرونَ من الشركِ، «**عُبدت**» هذه الصورُ لأنَّ الشيطانَ قالَ لهم: إنَّ آباءَكم ما نَصَبوا هذهِ الصورَ إلَّا من أجلِ أن يتقرّبوا إليها، ويُسْقَوْنَ بها المطرَ، فصدَّقُوهُ في هذا.

قوله: «**لما ماتوا**» يعني: لما مات هؤلاءِ الصالحونَ.

«**عَكَفوا على قبورهم**» العُكوف هو: طولُ البقاءِ في المكانِ،

«**ثم صوّروا تماثيلهم**» هذهِ خطوةٌ ثانية.

«**ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**» هذهِ خطوةٌ ثالثة.

---

(١) **ابن القيِّم**: هو الإمامُ العلامةُ محمدُ بنُ أبي بكرِ بنِ أيوب الزرعيُّ الدمشقيُّ، تلميذُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ، ماتَ سنةَ ٧٥١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وله مؤلفاتٌ مفيدةٌ مشهورةٌ.

(٢) «توضيح المقاصد وتصحيح القواعد» لابن القيم (٢/ ٣٦٠).

وَعَن عُمَرَ[1]: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَريَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبدٌ، فَقُولُوا: عَبدُ الله ورَسُولُهُ» أَخرجَاهُ[2].

قوله: «**وَعَن عُمَرَ أن رسول الله ﷺ قال: لا تُطْرُونِي**» هذا نهيٌ منه ﷺ عن الإطراءِ في حقِّهِ، والإطراء هو: زيادةُ المدحِ والمبالغةِ فيه.

«**كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَريَمَ**» النَّصارى المراد بهم: أتباعُ عيسى عليه السلام، قيلَ: سُمُّوا نصارى نسبةً إلى البلدِ: النَّاصرة في فلسطينَ، «**كَمَا أَطرَتِ النَّصَارَى**» أي: كما غَلَت النَّصارى في مدحِ المسيحِ عليه السلام.

«**ابْنِ مَرْيَمَ**» يُنسب إلى أمِّه عليها السلام لأنهُ ليسَ له أبٌ، لأنَّ اللهَ خلقَهُ من أمٍّ بلا أبٍ وكيف أَطْرَت النَّصارى ابنَ مريم؟ قالوا: إنه ابنُ الله، أو هو اللهُ، أو ثالثُ ثلاثةٍ. ولا يزالونَ على هذه المقالةِ إلى الآنَ، في إذاعاتِهم وفي كتاباتِهم. فسببُ وقوعِهم في هذا الكفرِ هو: الغلو والعياذُ باللهِ.

ثمَّ قال ﷺ: «**إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» أي: أن شأني ومكانتي أنني عبدُ اللهِ سبحانه وتعالى، ليسَ لي من الربوبيةِ شيءٌ، والعبد لا يُغلَى فيه ويُطرى، ويُرفعُ فوقَ منزلتِهِ.

«**فقولوا: عبد الله ورسوله**» فدلَّ هذا على أنه يُمدَحُ ﷺ بصفاتِهِ من غيرِ زيادةٍ ومن غيرِ نقصٍ، وهي: العبوديةُ والرسالةُ.

ففي قوله: «**عبد الله**» ردٌّ على الغلاةِ الذينَ يغلونَ في حقِّهِ ﷺ.

وفي قوله: «**رسوله**» ردٌّ على المكذبين الذينَ يكذّبونَ برسالتِهِ ﷺ، والمؤمنونَ يقولونَ:

---

(1) **عُمَرَ** رضي الله عنه: هو عمرُ بنُ الخطابِ، أميرُ المؤمنين وأفضلُ الصحابةِ بَعدَ الصديقِ، استشهدَ في ذِي الحجةِ سنة ٢٣هـ.

(2) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم الغُلُوُّ»(١).

وَلِمُسلِمٍ(٢) عَنِ ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا.

هو عبدُ الله ورسولُه.

قالَ المصنِّفُ رحمه الله: «**قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ؛ فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم الغُلُوُّ»**

«**إياكم**» هذهِ كلمةُ تحذيرٍ.

«**والغلو**» هو: الزيادةُ على الحدِّ المشروع.

«**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» مثلَ النَّصارى غلَوْا في عيسى عليه السلام، يعني: فأخرَجَهم الغلو من الدينِ إلى الكفرِ -والعياذُ باللهِ- فهلكوا، وهم يريدونَ النَّجاةَ،

«**عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا**» المتنطعونَ: جَمْع متنطع، وأَصْل التَّنَطع هو التقعُّرُ في الكلامِ إظهارًا للفصاحةِ. والمرادُ هنا: التنطعُ في الكلامِ، والتَّنطعُ في الاستدلالِ، والتنطعُ في العبادةِ.

والتنطعُ في الكلامِ معناه: أَنْ يتكلَّمَ الإنسانُ بالكلماتِ الغريبةِ من اللغةِ التي لا يَفْهمُها الناسُ، فيأتي بأسلوبٍ وألفاظٍ من وحشي اللغةِ لا يعرفُها النَّاسُ.

أما التنطعُ في الاستدلالِ فهو: طريقةُ أهلِ الكلامِ وأهلِ المنطقِ الذين عدَلوا عن الاستدلالِ بالكتابِ والسنةِ إلى الاستدلالِ بقواعدِ المنطقِ، ومصطلحاتِ المتكلمينَ.

وقالوا: إنَّ الأدلةَ السمعيةَ لا تفيدُ اليقينَ، وإنما الذي يفيدُ اليقينَ هو الأدلةُ العقلية

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأحمد (١/ ٣٤٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

....

-بزعمهم-، فبذلكَ هَلَكوا.

أما التنطع في العبادة هو: أن يزيدَ الإنسانُ في العبادةِ على الحدِّ المشروعِ.

فالحاصلُ؛ أن التنطعَ في العبادةِ هو: الزيادةُ فيها عن الحدِّ المشروعِ، والمطلوبُ أنَّ الإنسانَ يتوسَّطُ في العبادةِ من غيرِ زيادةٍ، ومن غيرِ نقصانٍ.

الباب العشرون
باب ما جاء في التغليظ فيمن عبدَ الله عندَ قبرِ رجلٍ صالح فكيف إذا عبده؟

فِي الصَّحِيحِ[1] عَن عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ[2] رضي الله عنها ذَكَرَت لِرَسُولِ الله ﷺ كَنِيسَةً رَأَتهَا بأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِن الصُّوَرِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالح؛ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، ....

قالَ المُؤلِّفُ رحمه الله: «**باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده**» التغليظُ معناه؛ بيانُ شدّةِ الأمرِ، خلافَ التَّسْهيلِ أو التَّخْفيفِ.

«**فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**» عَبَدَ اللهَ بدعاءِ اللهِ عندَ القبرِ رجاءَ الإجابةِ، يظنُّ أنَّ الدعاءَ في هذا المكان سببٌ للإجابةِ، أو بالصَّلاةِ، يظنُّ أنَّ الصَّلاةَ عندَ القبرِ سببٌ للإجابةِ، فهذا مبنيٌّ على ظنٍّ فاسدٍ، لأنَّ القبورَ ليسَتْ مكانًا للعبادةِ، وأنَّ العبادةَ عندَها وإنْ كانَتْ خالصةً لله فإنها سببٌ للشركِ، أمَّا إذا كانَ يدعو القبرَ، ويستغيثُ بالميتِ؛ فهذا شركٌ أكبرُ.

قوله: «**عَن عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة**» الكنيسةُ هي مَعْبدُ النَّصارى الذي يَجْتمعونَ فيهِ يومَ الأحدِ لعبادتِهم.

«**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالحُ أَوْ العَبْدُ الصَّالِحُ بنوا على قبره مسجدًا**» أي: مُصلًّى، يعني: اتخذوا عليه كنيسةً يتعبّدونَ فيها، فسُمِّيَ مسجدًا.

«**وصوروا فيه تلك الصور**» أي: صُوَرَ الصالحينَ، يَنْصِبونَها في هذا المكانِ، من بابِ الغلوِّ في الصالحينَ وتخليدِ شخصيَّاتِهم، وهذا لا يجوزُ في الإسلامِ، لأنه وسيلةٌ إلى الشركِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) **أُمّ سلمةَ**: هي أُمُّ المؤمنين هندُ بنتُ أبي أميةَ المخزوميةُ القرشيةُ، ماتَتْ سنة ٦٢هـ رضي الله عنها.

أُولَئِكَ شِرَارُ الخلْقِ عِنْدَ الله». فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتنَتَيْنِ: فِتنَةِ القُبُورِ، وَفِتنَةِ التَّمَاثِيلِ.
وَلَهُمَا عَنَها، قَالَت: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ الله ﷺ؛ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَهُو كَذلِكَ: ......

ثمَّ قالَ ﷺ: «**أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله**» فدلَّ على أنَّ مَنْ بنى المسجدَ على القبرِ، أو صوَّرَ الصورَ ونصبَها؛ إنه مِنْ شرارِ الخلقِ. ذكَرَ الشَّيخُ عبارةً لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيمية بعدَ الحديثِ وهي قولُهُ: «**فهؤلاء**» يعني: اليهودَ والنَّصارى.

«**جَمَعُوا بَيْنَ الفِتنَتَيْنِ: فِتنَةِ القُبُورِ، وَفِتنَةِ التَّمَاثِيلِ**» فتنةُ القبورِ هي الغلوُّ في القبورِ، وتعظيمُ القبورِ حتَّى تُتَّخذَ مُتعبَّداتٍ.

والفتنة الثانية: فتنةُ التماثيلِ، وهي فتنةٌ قديمةٌ كما في قصةِ قومِ نوحٍ، فقومُ نوحٍ إنَّما وقَعَ الشركُ فيهم بسببِ نَصْبِ التماثيلِ، ووقَعَ الشركُ في اليهودِ بسببِ تمثالِ العِجلِ الذي عَمَله السامريُّ، ووقَعَ في النَّصارى بسببِ نَصْب الصليبِ على صورةِ المسيحِ بزعمِهم.

«**قَالَت: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ الله**» يعني: نَزَلَ بهِ الموتُ عليه الصلاة والسلام.

«**طَفِقَ**» أي: جَعَل يَفْعَلُ كذا.

«**يطرح خميصة**» أي يضعها، والخميصةُ: كساءٌ له أعلامٌ، أي فيه خطوطٌ.

«**على وجهه**» يغطّي وجْهَهُ ﷺ بها وهو في هذهِ الحالةِ.

«**فإذا اغتم بها**» أي: ضيّقتْ نفسُهُ عليه الصلاة والسلام.

«**كشفها**» من أجلِ أَنْ يتنفَّسَ.

«**فقال: -وهو كذلك-**» يعني: في هذهِ الحالةِ الحرجةِ، لم يشتغِلْ عن الدعوةِ إلى التوحيدِ، وإنكارِ الشركِ، ونصيحةِ الأمةِ، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه.

«لَعْنَةُ الله عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَولَا ذَلِكَ أُبرِزَ قَبرُهُ، غَيرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَن يُتخَذَ مَسجِدًا. أَخرَجَاهُ[1].

«**لعنة الله على اليهود والنصارى**» اللعنةُ هي: الطَّرْدُ والإبعادُ من رحمةِ الله.

«**اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يعني: أَمْكنة للعبادةِ يُصلُّون عندَها، ويَدْعون اللهَ عندها، ظنًّا منهم أنَّ العبادة عندَ القبورِ أفضلُ من العبادةِ في الأمكنةِ الأُخْرى، مع أنَّ العبادةَ عندَ القبورِ لا تجوزُ، لأنها وسيلةٌ إلى الشركِ.

قالت عائشة ﵂: «**يحذّر ما صنعوا**» أي: أنَّ الذي حمَلَ النبيَّ ﷺ على أَنْ يقولَ هذهِ الكلمةَ في هذهِ الحالةِ الحرِجةِ: أنه يحذِّرُ أُمَّتهُ ممَّا صنَعَ اليهودُ والنَّصارى، لئلَّا يفعلوا بقبرِ نبيِّهم ما فَعَلَ اليهودُ والنَّصارى معَ قبورِ أنبيائِهم.

«**ولولا ذلك**» أي: ولولا الخوفُ من أنْ يحصلَ عندَ قبرِه ﷺ مثلَ ما حصَلَ عندَ قبورِ أنبياءِ بني إسرائيلَ.

«**أبرز قبره**» أي: لدُفِنَ في مكانٍ بارزٍ يراهُ النَّاسُ.

«**ولكنه خَشي أن يتخذ قبره مسجدًا**» يعني: مكان صلاةٍ ودعاءٍ.

فدَّل ذلكَ على تحريمِ الغلو في القبورِ، والبناءِ عليها، واتخاذِ بقاعِها أمكنةً للصلاةِ عندَها، والدعاءِ عندَهَا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥) و(١٣٩٠)، ومسلم (٥٣١).

وَلِمُسلِمٍ[1] عَن جُنْدبٍ[2] بنِ عَبدِ الله قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ قَبلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ الله قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فلا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ ....

قوله: «**وَلِمُسلِمٍ عَن جُنْدبٍ بنِ عَبدِ الله قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ قَبلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ**» يُحْتَمل أنَّ المرادَ: خمسُ سنينَ، ويَحْتملُ أنَّ المرادَ: خمسُ ليالٍ.

«**وهُوَ يَقُولُ: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى الله**» أي: ابتعدُ عن ذلكَ وأكرهُهُ.

«**أن يكون لي منكم خليل**» من الصحابةِ، فليسَ له من الصحابةِ خليلٌ، والسَّببُ في ذلكَ، أنَّ اللهَ اتَّخذَهُ خليلًا، والخُلّة لا تَقْبَلُ الاشتراكَ، والخُلّة هي أَعلى درجاتِ المحبةِ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا**» يعني: على فرضٍ، لو صحَّ لي وجازَ لي أَنْ أَتَّخذ من أمتي خليلًا.

«**لاتخذت أبا بكر خليلًا**» فهذا فيه فضيلةُ أبي بكرٍ الصِّديق رضي الله عنه، وأنه أَحبُّ النّاسِ إلى رَسولِ الله ﷺ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ**» يعني أنَّ اليهودَ والنَّصارى يَغْلونَ في قبورِ الأنبياءِ ويبنونَ عليها المساجدَ ويُصلونَ عندَها.

«**أَلَا فلا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ**» معنى اتِّخاذِها مَساجد أي: مُصلَّيات.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٢) **جُنْدُبٌ**: هو جُندبُ بنُ عبدِ الله بنِ سفيانَ البجليُّ، صحابيٌّ مشهورٌ، ماتَ بعدَ الستين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ». فَقَد نَهى عَنهُ فِي آخِرِ حَياتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ -وَهُوَ فِي السِّيَاقِ- مَنْ فَعَلَهُ. وَالصَّلَاةُ عِندَهَا مِن ذَلِك، وَإِن لَم يُبنَ مَسجِدٌ، وَهُوَ مَعنَى قَولِهِ: «خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»؛ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَم يَكُونُوا لِيَبنُوا حَولَ قَبرِهِ مَسجدًا. وَكُلُّ مَوضِعٍ قُصِدَت الصَّلَاةُ فِيهِ؛ فَقَد اتُّخِذَ مَسجِدًا

ثم لَمْ يقتصِرْ على هذا، بَلْ قالَ: «**فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ**».

ثُمَّ نقلَ الشَّيخُ ﵀ كلامَ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ فقال: «**فقد نهى عنه في آخر حياته**» يعني: قبلَ أَنْ يموتَ بخمسٍ كما في حديثِ جُندب.

«**ثم إنه لعن -وهو في السياق-**» كما في حديث عائشةَ الذي سبَقَ: أنه ﷺ لَمَّا نَزَلَ به جعَلَ يطرَحُ خميصةً له على وجهِهِ، فإذا اغتمَّ بها كشَفَها، فقال وهو كذلكَ -يعني: في هذه الحالةِ الحرجةِ-: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». قالَتْ عائشةُ ﵂: «**يحذِّرُ ما صنعوا، ولولا ذلكَ لأبرزَ قبرُهُ، غيرَ أنه خشي أن يُتَّخذَ مسجدًا**».

قال الشيخُ: «**فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**» لأنَّهم معصومونَ عن ذلكَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، ولا يمكن ذلك أبدًا في حقِّهم، بل لم تُبْنَ المساجدُ في القرونِ الأربعةِ كلِّها، لأنَّ القرونَ الأربعةَ أثنى عليها رسولُ اللهِ ﷺ بقوله: «**خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(١).

ثمَّ قال ﵀: «**وكل موضع قُصدت الصلاة فيه**» أي: كلُّ موضعٍ يُترَدَّدُ عليه ويُصلَّى فيه، سواءً كانَ عندَه قبرٌ أو ليسَ عندَه قبرٌ «**فقد اتُّخِذَ مسجدًا**» وإن لم يُبنَ، ولو كانَ صحراءَ فهو يُسمَّى مسجدًا، يعني: مكان صلاةٍ ومَكان سجودٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

بَل كُلُّ مَوضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسجِدًا وَطَهُورًا»(١).

وَلأَحمَدَ(٢) **بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَن ابنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه مَرفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ». وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي «صَحِيحِهِ»**(٣).

«**بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا**» حتى لو لم يُبْنَ عليه.

«**كما قال ﷺ: وجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا**» يعني: صالحِةً للصَّلاةِ فيها.

فالحاصلُ؛ أنَّ معنى اتخاذِ القبور مساجدَ يشملُ معنيينِ:

المعنى الأول: الصَّلاةُ عندَها وإنْ لم يُبنَ مسجدًا، وهذا هو المعنى المرادُ من الأحاديثِ.

والمعنى الثاني: بناءُ المساجدِ فيه والقِبابُ، وهذا -أيضًا- منهيٌّ عنه،

قوله: «**وَلأَحمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًاإِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ**» أي أشد النّاس شرًّا.

«**مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ**» أي: قِيام السَّاعةِ، وذلكَ عندَ نفخةِ الصَّعقِ التي يموتُ بها الخلقُ -إلَّا مَنْ شاءَ اللهُ-. فالذينَ يحضرونَ هذا الحدثَ الهائلَ -وهو: نفخةُ الصعقِ- همْ شرارُ النَّاسِ، لأنَّ المؤمنينَ يموتونَ قبلَ ذلكَ، وفي الحديث دليلٌ على أن مَن يتخذون القبور مساجد شِرار الخَلْق، فالذين يفعلون هذا الفعل سواءً كانوا مِن اليهود أو مِن النصارى أو مِن المنتسبين إلى الإسلام هم شرُّ الخَلْقِ، لا أحد شرّ منهم والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٠٥).

(٣) يعني ابن حيان برقم (٦٨٤٧).

الباب الحادي وعشرون
بَاب ما جاء أن الغلوَّ في قبورِ الصالحين يُصيِّرُها أوثانًا تُعبد من دون الله

رَوَى مَالِكٌ(١) فِي «المُوَطَّأ»(٢): أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعبَدُ،

قوله رحمه الله: «**باب ما جاء**» أي: من الوعيدِ.

«**أن الغلو في قبور الصالحين**» الغلوُّ هو: الزيادةُ عن الحدِّ المشروعِ.

والغلو في قبورِ الصالحينَ هو: الزيادةُ في تعظيمِها، لأنَّ ذلكَ يؤدي إلى الشركِ، لأنَّ المشروعَ في قبورِ الصالحين -وقبورِ المسلمين عمومًا- احترامُها، وعدمُ إهانتها، وصيانتُها عن الأذى، وزيارتُها للسلام على الأمواتِ، والدعاءِ لهم، والاعتبارِ بأحوالِهم، أما الغلوُّ فهو قَصْدُها للتبرُّك، أو الدعاءِ عندَها، أو الصلاةِ عندَها رجاءَ الإجابةِ، هذا هو الغُلُو.

«**يصيّرها**» أي: يجعلُها في المستقبلِ، وعلى امتدادِ الزمانِ. «**أوثانًا تُعبد**» الأوثان: جَمْع وثن، والوثن ما عُبِدَ من دونِ اللهِ من قبرٍ، أو شجرٍ، أو حجرٍ، أو بقاعٍ، أو غيرِ ذلكَ.

قوله: «**رَوَى مَالِكٌ فِي «المُوَطَّأ»: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعبَدُ**» هذا دعاءٌ من الرسول ﷺ، دعا بِهِ ربَّه أَنْ يصونَ قبرَه من الغلوِّ به، كما حصَلَ من اليهودِ والنَّصارى لقبورِ الأنبياءِ السابقينَ، حيثُ غلو في قبور أنبيائِهم، وهذا الشاهدُ من الحديثِ للبابِ، ولكنَّ اللهَ حماهُ وللهِ الحمدُ، حماه بأَنْ دُفِنَ في بيتِهِ، ومُنِعَ النَّاسُ من الوصولِ إليه.

---

(١) هو الإمامُ مالكُ بنُ أنسِ بن مالِكِ بنِ أبي عامرٍ الأَصبحيُّ، إمامُ دارِ الهجرةِ وأحدُ الأئمةِ الأربعةِ، توفِّي سنة ١٧٩هـ.

(٢) أخرجه مالك (١/ ١٧٢) عن عطاء بن يسار مرسلًا، وأخرجه الحميدي (١٠٢٥)، وأبو يعلى (٦٦٨١) من حديث أبي هريرة بسند جيّد. وانظر: «سنن أبي داود» (٢٠٤٢).

اشتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

وَلابنِ جَرِيرٍ(١) بِسَنَدِهِ: عَنْ سُفْيَانَ(٢)، عَن مَنصُورٍ(٣)، عَن مُجَاهِدٍ(٤): ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]؛ **قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لهُم السُّويقَ،** ....

والمشروع: السَّلامُ عليه من غيرِ مكوثٍ عنده وطولِ قيامٍ ولا تكرُّرِ زيارةٍ كما كانَ الصحابةُ يفعلونَ ذلكَ: فَقَدْ كانَ ابنُ عمرَ يقِفُ -إذا جاءَ من سفرٍ- مقابلَ وجهِ النبيِّ ﷺ فيقولُ: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله، ثمّ يتأخرُ إلى جهةِ الشرقِ قليلًا فيقولُ: السَّلامُ عليكَ يا أبا بكرٍ، ثمّ يتأخـرُ قليلًا فيقولُ: السَّلامُ عليك يا أبتِ، ثمّ ينصرفُ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» تحذيرٌ بعدَ تحذيرٍ، حيثُ سبَقَ عدةَ مراتٍ أنَّ الرسولَ ﷺ لَعَنَ اليهودَ والنَّصارى وهو في سياقِ الموتِ لأنَّهم اتخذوا قبورَ أنبيائِهم مساجدَ؛ يُحذِّرُ ما صَنَعوا.

قوله: «**وَلابنِ جَرير عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُور عَن مُجَاهِدٍ:** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾» هذهِ أسماءُ أصنامِ العربِ. اللَّاتُ في الطائفِ، والعُزَّى في مكّةَ عندَ عرفات، والشاهد من ذلك: اللَّات.

«**قال: كان يَلُتُّ لهم السّويق**» ولَتُّ السويق هو: خَلْطُه بالسمنِ. كانَ هذا الرجلُ يعملُ هذا العملَ من أجلِ إطعامِ النّاسِ، يعني: يُحسِنُ إلى النّاسِ، فأحبوهُ، وتعلَّقَتْ قلوبُهُم به، لأنهُ يبذُلُ الطعامَ، فلمّا ماتَ عكفوا على قبرِهِ حتَّى صارَ وثنًا.

---

(١) **ابنُ جريرٍ**: هو الإمامُ الحافظُ محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ، صاحبُ التفسيرِ، ماتَ سنةَ ٣١٠هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) **سفيانُ**: الأظهرُ أنَّه سفيانُ بنُ سعيدٍ الثوريُّ، إمامٌ حجةٌ عابدٌ، مات سنة ١٦١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) **منصورٌ**: هو ابنُ المعتمرِ، ثقةٌ فقيهٌ، ماتَ سنة ١٣٢هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) **مجاهدٌ**: هو ابنُ جبرٍ ثقةٌ إمامٌ في التفسيرِ، أخذَ عَنِ ابنِ عباسٍ وغيرِه، مات سنة ١٠٤هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قبرِهِ»[1]. **وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السُّويقَ للحَاجِّ».**

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله** ﷺ **زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهلُ السُّنَنِ**[2].

«**فمات، فعكفوا على قبره**» دلَّ على أنَّ الغلوَّ في قبورِ الصالحينَ يُصيِّرها أوثانًا تُعبَدُ من دونِ اللهِ، لأنَّ اللَّاتَ رجلٌ صالحٌ ما صارَ قبره وثنًا إلَّا بسببِ الغلوِّ فيه، والعكوفِ عندَ قبرِهِ.

قال: «**وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ الله** ﷺ» اللعنُ هو: الطَّرْدُ والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ ﷻ. ومعنى «**لعن رسول الله**» أي: دعا عليهم باللعنةِ.

«**زائرات القبور**» أي: النساءُ اللاتي تزورُ القبورَ. فدلَّ هذا على تحريمِ زيارةِ النساءِ للقبورِ، وهذا مذهبُ جمهورِ أهلِ العلمِ، أنه لا يجوزُ للنساءِ أن تزورَ القبورَ لهذا الحديثِ.

قوله: «**زَائِرَاتِ القُبُورِ، وَالمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ**» أما لعنةُ المتخذينَ عليها المساجدَ فهذا سبَقَ في قولِهِ ﷺ: «**لَعْنَةُ اللهِ على اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**».

وأما لعنةُ المتخذينَ عليها السُّرجَ، فالمرادُ بذلكَ: إضاءةُ المقبرةِ بالأنوارِ. لأنَّ هذا وسيلةٌ إلى الغلوِّ في القبورِ، ويُفضِي إلى الشركِ، فإنَّ هذا يجلبُ إليها أنظارَ النَّاسِ والجُهالِ، ثمَّ يزورونَها، ويتردّدونَ عليه، ثمَّ يؤولَ هذا إلى الشركِ، فلا يجوزُ أن تُضاءَ المقابرُ، بل تُجْعَل المقابرُ خاليةً من الإضاءةِ، وإذا احتاجَ النَّاسُ إلى دفنِ ميِّتٍ في الليلِ فإنهم يأخذونَ معهم سراجًا، كما فعلَ النبيُّ ﷺ والصَّحابةُ عندَ الدفنِ بالليلِ.

---

(١) في «تفسيره» (٢٧/ ٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٥)، والنسائي (٤٥/ ٩٤).

الباب الثاني والعشرون
بَاب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيدَ وسدِّه كلَّ طريق يُوصِلُ إلى الشرك

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ **الآية** [التوبة: ١٢٨].

قوله: «**باب ما جاء في حماية المصطفى**» المصطفى معناه: المُختارُ.

وقوله: «**جناب التوحيد**» الجَنَابُ هو: الجانبُ، أي: حمايتُهُ ﷺ حدود التوحيدِ مِنْ أَنْ يدخلَ عليهِ الشركُ بسببِ وسائلِ الشركِ والتَّساهلِ فيها، فالرسولُ ﷺ حَمَى حدودَ التوحيدِ حمايةً بليغةً، بحيثُ أنه نهى عن كلِّ سببٍ أو وسيلةٍ تُوصِّل إلى الشركِ، ولو كانَتْ هذه الوسيلةُ في أصلِها مشروعةً كالصلاةِ، فإن فُعِلَتْ عندَ القبورِ فهو وسيلةٌ للشركِ، ولو حسُنَتْ نيةُ فاعلِها.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾» وتمام الآية: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، هذهِ الآيةُ في ختامِ سورةِ التوبةِ.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللّام لام القسم، تدلُّ على قسمٍ مقدَّرٍ، تقديره: واللهِ لقد جاءَكم، وقَدْ حرفُ تحقيقٍ.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾، أيُّها المسلمونَ عمومًا والعربُ خصوصًا.

﴿رَسُولٌ﴾ الرسول هو: مَنْ أُوحِيَ إليه بشرعٍ وأُمرَ بتبليغِهِ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسِكم من العربِ، تعرفونَ لسانَه، ويخاطبُكُم بما تعرفونَ.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أي: شاقٌّ.

عَنِ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ....

﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ العَنَتُ معناه: العَتبُ والمشقَّةُ، ومعناه: أنَّ الرسولَ ﷺ يشقُّ عليه ما يَشُقُّ على أمتِهِ، وكان يُحِبُ لهم التَّسهيلَ دائمًا، ولهذا كانَ ﷺ يحِبُّ أن يأتيَ بعضَ الأعمالِ ولكنه يتركُها رحمةً بأمَّته خشيةَ أَنْ يشُقَّ عليهم، ومن ذلكَ: صلاةُ التراويحِ، فإنه صلَّاها بأصحابِهِ ليالي من رمضانَ، ثمَّ تخلفَ عنهم في الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ، فلمَّا صلَّى الفجرَ، بيَّنَ لهم ﷺ أنه لم يتخلَّفْ عنهم إلَّا خوفَ أن تُفرَضَ عليهم صلاةُ التراويحِ، ثمَّ يَعْجزوا عنها، هذا من رحمتِهِ وشفقتِهِ بأمَّتِهِ.

﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خاصة. ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ الرأفة هي: شدّةُ الشفقةِ، ﴿رَّحِيمٞ﴾ يعني: عظيم الرحمةِ بأمَّته ﷺ. فهذهِ الآيةُ الكريمةُ مناسبةُ إيرادِ الشَّيخِ لها في هذا البابِ: أنه إذا كانَ الرسولُ ﷺ مُتَّصفًا بهذهِ الصفاتِ، فهل يليقُ بمَنْ هذهِ صفاتُهُ أن يتركَ الأمةَ تقعُ في الشركِ الذي يُبعدُها عن اللهِ، ويُسببُ لها دخولَ النَّارِ؟ لا، بَل اللَّائِقُ به أَنْ يُبالغَ أشدَّ المبالغةِ في حمايةِ الأمةِ من الشركِ، وقد فَعَلَ ﷺ، فقد سدَّ كُلَّ الطرقِ المُوصلةِ إلى الشركِ.

قوله: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» (الحديث).

ثلاثُ كلماتٍ قالَها ﷺ في هذا الحديث:

الكلمة الأولى: قوله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» يعني: لا تُعطِّلوا البيوتَ من ذكرِ اللهِ، ومن صلاةِ النَّافلةِ، وتلاوةِ القرآنِ، لأنها إذا عُطِّلَتْ صارَتْ مثلَ القبورِ، لأنَّ القبورَ ليسَ فيها عملٌ، خاويةٌ خاليةٌ، حُفَرٌ مظلمةٌ، إلَّا مَنْ نوَّرَها اللهُ عليهِ بنورِ الإيمانِ الذي سبَقَ لهم في الحياةِ الدُّنيا.

من مفهومِ الحديثِ، أنَّ الذي لا يُصَلَّىٰ عندَه هو القبرُ، فالبيتُ الذي لا يُصلَّىٰ فيه نافلةٌ،

ولا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(1) بِإِسنَادٍ حَسَنٍ، رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ. وَعَن عَلِيّ(2) بنِ الحُسَينِ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدخُلَ فِيهَا فَيَدعُو، فَنَهَاهُ، ....

ولا يُقرأ فيهِ قرآنٌ، ولا يُدْعى فيهِ صار مثلَ القبرِ، لأنه ممنوعٌ من الصلاةِ عندَه، والدعاءِ عنده، فالحديثُ يدلُّ بمفهومِهِ على منعِ الصلاةِ عندَ القبرِ، ومنعِ الدعاءِ عندَ القبورِ.

الكلمة الثانية، قوله ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا**» أي: مكانًا للعبادةِ، تصلُّون عندَه، وتدعونَ عندَه، وتترددون عليه.

الكلمةُ الثالثةُ الواردةُ في هذا الحديث قوله ﷺ: «**صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ**» هذا أمرٌ بالصَّلاةِ عليه ﷺ.

قوله: «**فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تبْلُغُنِي**» فاللهُ جل جلاله وَكَّلَ بصلاةِ المصلينَ على النبيَّ ﷺ مَنْ يُبلِّغ الرسولَ إيَّاها وهو في قبرِهِ ﷺ، ففي أيِّ مكانٍ صلَّيْتَ عليه فإنَّ صلاتَك تبلغُهُ ولو كنتَ في المشرقِ أو في المغربِ.

قوله: «**وَعَن عَلِيّ بنِ الحُسَينِ رضي الله عنه: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ ﷺ**» قُبِرَ الرَّسولُ ﷺ في بيتِهِ، في حجرةِ عائشةَ، وفي أحدِ الجُدران فُرْجَةٌ، أي: نَقْبٌ في الجدارِ، رآه هذا الرَّجلُ، فصارَ يتردَّد، ويأتي ويدخلُ من هذهِ الفُرْجَةِ، ويدعو عندَ قبرِ النبيِّ ﷺ، فلمَّا رآه عليُّ بنُ الحسين رحمه الله نهاهُ عن ذلكَ.

---

(1) برقم (٢٠٤٢).

(2) **عليّ بن الحسين**: هو عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ المعروفُ بزينِ العابِدِين أفضلُ التابعين، ماتَ سنة ٩٣هـ.

وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُم بحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِن أَبِي عَن جَدِّي عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، ولا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ تَسلِيمَكُم لَيَبْلُغُنِي أَينَ كُنتُم». رَوَاهُ فِي «المُخْتَارَةِ»[(١)].

فالتردُّدُ على قبرِ الرسولِ والدُّعاءُ عندَه من وسائلِ الشركِ به، فيجِبُ إنكارُه.

ثمَّ لم يكتَفِ بهذا، بل بيَّنَ الدليلَ والحجَّةَ على هذا الإنكار، فقالَ: «**ألا أحدثكم حديثًا سمعته عن أبي**» يعني: الحُسَين رضي الله عنه «**عن جدّي**» يعني: علي بنِ أبي طالبِ رضي الله عنه «**عن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا»**»

فهذا مثلُ حديثِ أبي هريرةَ الذي قبلَه إلَّا أنه زادَ عليه: الإنكارَ على مَنْ يأتي ويدعو عندَ قبرِ الرسول ﷺ، فهو يعَدُّ مفسِّرًا لحديثِ أبي هريرةَ، يبيِّنُ معنى اتِّخاذِهِ عيدًا، وأنه يكونُ في الدعاءِ عندَه، والتردّدِ عليهِ.

---

(١) برقم (٤٢٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٥٤٢)، وعبد الرزاق (٦٧٢٦).

الباب الثالث والعشرون

بَاب ما جاء أن بعضَ هذه الأمة يعبدُ الأوثانَ

وَقَولُهُ تَعَالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قوله ﵀: «**باب ما جاء**» أي: من الأدلةِ في الكتاب والسنةِ.

«**أن بعض هذه الأمة**» يعني: وليسَ كلُّها، فالأمةُ لا تجتمِعُ على ضلالةٍ

«**يعبد الأوثان**» أي يُشرك باللهِ ﷻ، والأوثانُ: كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ الله.

قال: «**وقوله تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾» أي: قَدْ رأيتَ وعلمتَ يا محمَّد.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: حظًّا من الكتابِ، والمُرادُ بهم اليهودُ، لأنَّ اللهَ أعطاهم التوراةِ التي أنزلَها على موسى ﵇.

وهذا من بابِ الإنكارِ عليهم، لأنَّ المفروض أنَّ الذي أُوتي نصيبًا من الكتابِ وعلمِ الحقِّ يجِبُ عليه أن يعملَ به: فكونُهم يخالفونَ الحقَّ -وعندَهم الكتابُ- هذا دليلٌ على غِلظِ كفرِهم وعنادِهم.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ﴾ أي: يصدِّقونَ بالجبتِ، وهو الشركُ، أو السِّحرُ، أو الساحرُ، أو الكاهنُ، أو الشيطانُ، كلُّ ذلكَ يسمَّى جبتًا.

﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ في اللغةِ: مأخوذةٌ من الطغيانِ، وهو: مجاوزةُ الحدِّ؛ والمرادُ به هنا: ما تجاوزَ بِهِ العبدُ حدَّه من معبودٍ، أو متبوعٍ، أو مطاعٍ في غيرِ طاعةِ اللهِ، كلُّه طاغوتٌ.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: يقولُ هؤلاءِ اليهودُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

﴿لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم مشركو قريش ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ أي: منهجُ الكفارِ أهدى من منهجِ المسلمينَ المتبعينَ لمحمَّدٍ ﷺ. وهذا وَهُمْ عندَهم الكتابُ، ويعرفونَ الحقَّ من الباطلِ!

والشَّاهدُ من الآيةِ للبابِ: أنه إذا كانَ في اليهودِ من يُؤمنُ بالجبتِ والطاغوتِ فسيكونُ في هذهِ الأمةِ من يفعلُ ذلكَ تَشبُّهًا بهم، لأنَّ الرسولَ ﷺ أخبرَ أنه يكونُ في هذهِ الأمةِ من يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارَى، ومن ذلكَ: التشبُّهُ بهم في الإيمانِ بالجبتِ والطاغوتِ.

وكذلكَ يوجدُ في هذهِ الأمةِ من يُمجِّدُ الكفّارَ، وينتقَصُ المسلمينَ، كما كانَ اليهودُ يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، فمنَ النّاسِ من يثني اليومَ على دولِ الكفرِ والإلحادِ، ويصفُهم بصفاتِ الكمالِ والعظمةِ، وينتقصُ المسلمينَ، ويصفُهُم بالتأخرِ والرجعيةِ، إلى آخرِه، فهذا شيءٌ موجودٌ.

قال: «**وقوله تعالى**: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» تمام الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، هذهِ الآيةُ في الردِّ على الذينَ يَسْخَرونَ من المسلمينَ ومن دينِهم من اليهودِ والنَّصارى والوثنيينَ.

يقولُ تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أي: أُخبِرُكُم، والاستفهامُ هنا المرادُ به: التقريرُ والتوبيخُ.

﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي زعمْتُم فينا. ﴿مَثُوبَةً﴾ يعني: جزاءً عندَ الله ﷻ.

﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي طرَدَهُ وأبعدَهُ من رحمتِهِ بسببِ كفرِه، وهو أنتُمْ أيُّها اليهودُ والنَّصارى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ [الكهف: ٢١].

﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾ والغضبُ ضدُّ الرِّضا، فاللهُ ﷻ يَرْضى عن عبادِهِ المؤمنينَ ويغضَبُ على الكافرينَ، وغضبُهُ لا يقومُ له شيءٌ، والمغضوبُ عليهِمْ هم الذينَ عندَهم علمٌ ولم يَعْملوا به، لأنَّهم عَصَوا اللهَ على بصيرةٍ.

﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾ مسَخَهُم قردةً وخنازيرَ، بسببِ كُفْرِهم.

والشَّاهدُ في قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ دلَّ على أنَّ في أهلِ الكتابِ مَنْ يعبدُ الطاغوتَ، فلا بدَّ أن يكونَ في هذهِ الأمةِ من يتشبَّهُ بهم ويعبدُ الطاغوتَ.

فالآيةُ الأُولى فيها: أنهم يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ، وهذهِ الآيةُ فيها أنَّ فيهم مَنْ عبدَ الطاغوتَ، فلا بدَّ أَنْ يكونَ من هذهِ الأمةِ مَنْ يتشبَّهُ بهم في ذلكَ.

قال: «**وقوله تعالى:** ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾» هذا في قصةِ أصحابِ الكهفِ، وذلكَ أنَّ جماعةً من الفِتيانِ في الزمانِ القديمِ آمنوا باللهِ، وأنكروا ما عليهِ أهلُ بلدِهم من الشركِ باللهِ، فلمَّا ماتوا بنى قومُهُم عليهم مسجدًا لأجلِ التبركِ بهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ فقالوا: هؤلاءِ رجالٌ صالحونَ، فيهم بركةٌ، فيهم خيرٌ، نَبْني عليهم مسجدًا من أجلِ التّبرُّكِ بهم، والصَّلاةُ عندَهم، والدُّعاءُ عندَهم، لأنَّهم من أولياءِ اللهِ، ونفَّذوا ذلكَ بقوةِ السُّلْطةِ لا بقوةِ الحجَّةِ، لأنَّهم غُلبوا على أمرِهم، أي: تمكَّنوا من تنفيذِ ما أرادوا بقوَّتِهم.

فالشاهد من الآيةِ: أنه كانَ في أولِ الخليقةِ من يَبْني المساجدَ على القبورِ، فلا بدَّ أن يكونَ في هذه الأمةِ مَنْ يبني المساجدَ على القبورِ، تشبُّهًا بهم.

عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، قَالَوا: يَا رَسُولَ الله! اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟». أَخرَجَاهُ[(١)].

قوله: «**عَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: لَتَتَّبِعُنَّ**» اللَّامَ هذه لام قسم، فهي على تقدير: واللهِ لتتَّبعُنَّ.

«**سُنَنَ**» أي: طريق.

«**حَذوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ**» القُذَّة: ريشةُ السهمِ الذي يُرمَى به، والمعنى: تُشبهونهم كما أَشْبَهَتْ ريشةُ السَّهْمِ ريشةَ السَّهمِ الأُخرى.

«**حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**» الجُحر -بالضم- هو السَّرَب الذي يكونُ في الأرضِ، ومنه جُحر الضبِ، لأنه يحفرُ جحرًا من أَعْسرِ الجُحورِ، ومع هذا لو دخَلَهُ اليهودُ والنَّصارى لكانَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يفعلُ ذلكَ تقليدًا لهم.

وهذا الحديثُ خبرٌ بمعنى النَّهي، أي: لا تتشبَّهوا بهم، ولا تُقلِّدوهُم.

والشَّاهدُ من هذا الحديثِ واضحٌ: أنه يكونُ في هذهِ الأمةِ مَنْ يتشبَّهُ باليهودِ والنَّصارى في كلِّ شيءٍ، واليهودُ والنَّصارى يعملونَ الشركَ فلا بدَّ أنْ يوجدَ في هذهِ الأمةِ مَنْ يعمَلُ الشركَ مثلَهم سواءً بسواءٍ. اليهودُ والنَّصارى بنَوْا على القبورِ، فيوجدُ في هذهِ الأمةِ مَنْ يبني على القبورِ تشبُّهًا بهم، والنَّصارى يعملونَ عيدَ المولدِ للمسيح عليه السلام فيُوجَدُ في هذهِ الأمةِ من يعمَلُ عيدَ المولدِ لمحمَّدٍ ﷺ تشبُّهًا بالنَّصارى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩).

وَلِمُسْلِمٍ(١)، عَن ثَوبَانَ(٢) رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي ....

قوله: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ**» يعني: جمَعَها، وحواها وطواها له ﷺ حتَّى صارَتْ حَجْمًا صغيرًا، يرى النبيُّ ﷺ أطرافَ ما بعُدَ منها وما قرُبَ، واللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ.

«**فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا**» رأى المَشْرِقَ والمَغْربَ

«**وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» هذا خبرٌ عن المستقبلِ، وهو لا ينطقُ عن الهوى ﷺ.

وقد وقَعَ كما أخبرَ، فانتشرتِ الفتوحاتُ في عهدِ الخلفاءِ الراشدينَ وخلفاءِ بني أميةَ وبني العباسِ حتى سقطَتْ دولةُ الفُرْسِ بالمشرقِ، وسقطَتْ دولةُ الرومِ بالمغربِ، وامتدّ سلطانُ المسلمينَ في الشرقِ إلى أَنْ وَصَلَ السِّنْدَ، وفي المغربِ إلى أَنْ وصَلَ إلى طَنْجَةَ في أقصى المغربِ، بل امتدَّ إلى أَنْ وصَلَ إلى جبالِ البَرَانِس وهي حدودُ فرنسا، حيثُ دخلَتِ الأندلسُ في الخلافةِ الأمويّةِ في ملكِ المسلمينَ.

«**وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ**» المرادُ بالكنزينِ: الأموالِ النّفيسةِ، «**الأَحْمَرَ**» الذَّهَب، «**وَالأَبْيَضَ**»: الفضَّة، وهذا عبارةٌ عن أموالِ الفرسِ والرُّومِ. وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فقد جيءَ بأموالِ الفرسِ والرُّومِ في خلافةِ عمرِ بن الخطابِ.

وقوله: «**وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَتِي**» هذا من شفقتِهِ ﷺ بأُمَّتِهِ.

---

(١) برقم (٢٨٨٩).

(٢) ثوبانَ: هو مولى رسولِ الله ﷺ صَحِبَهُ ولَازَمَهُ وسكَنَ بعدَهُ الشامَ، وماتَ بحمصَ سنة ٥٤هـ.

أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بعَامَّةٍ، وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ: أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» ....

«**أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ**» المرادُ بالسَّنَةِ: الجُدْب، أي: لا يعمُّ الجَدْبُ والقَحْطُ كلَّ بلادِ المسلمينَ، فتَهْلكَ أموالُهم وزروعُهم وما يأكلونَ منه.

وقوله: «**وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ**» يعني: من الكفارِ، أي: لا يُسلِّطُ الكفارَ على المسلمينَ.

«**فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ**» البيضَة: الحَوْزة، يعني: لا يستبيحُ الكفارُ حوزةَ المسلمينَ وبلادَهم، أو المراد بالبيضةِ: اجتماعُ الكلمةِ. والمعنى عامٌّ، معناه: لا يستبيحُ بلادَهم وجماعتَهم.

«**وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ**» هذهِ إجابةُ الله لدعوةِ رسولِهِ ﷺ.

«**إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ**» إذا قدَّر اللهُ قدرًا فلا بدَّ من نفاذِهِ، فأَقْدارُ الله نافذةٌ في المسلمينَ والكفّارِ وعمومِ النَّاسِ، لا أحدَ يستطيعُ ردَّ القضاءِ والقدرِ.

«**وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ**» استجابَ اللهُ الدعوةَ الأُولى مطلقًا، وأنه سُبْحانه لا يُنزلُ قحطًا عامًّا للبلادِ كلِّها، وإنما يُنْزلُ القحطَ في بعضِ البلادِ دونَ بعضٍ بخلافِ الأممِ السابقةِ.

«**وَأَنْ لا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا**» استجابَ اللهُ له الدعوة

رَوَاهُ البَرقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ» ....

الثانيةَ استجابةً مُعلَّقةً، يعني: ما دامَتْ أمتكَ مجتمعةً على الحقِّ كلمتُها واحدةٌ، فإنَّ اللهَ لا يُسلِّطُ عليهم عدوًّا من الكفارِ، أمَّا إذا حصَلَ في الأمةِ افتراقُ كلمةٍ، وحصَلَ بينهم قتالٌ فيما بينَهم، وسبى بعضُهم بعضًا، فحينئذٍ يعاقبُهُم اللهُ ﷻ ويُسلِّطُ عليهم الكفّارَ.

قوله: «**وَلوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا**» أي: إذا اجتمعتْ كلمةُ المسلمينَ، ولم يكُنْ بينَهم اختلافٌ ولا تقاتلٌ فيما بينَهم، فلو اجتَمَعَ أهلُ الأرضِ كُلُّهم على قتالِ المسلمينَ أو أرادَ سلبَ شيءٍ من مُلْكِهم فلَنْ يستَطيعوا.

قوله: «**رواه البَرْقاني في صحيحه وزاد**» يعني: على روايةِ مسلم.

أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ**» هذا سببٌ آخرُ، السببُ الأولُ: الاختلافُ بينهم.

السببُ الثاني: وجودُ دعاةِ الفتنَةِ، ودعاةُ الضَّلالِ. فهؤلاءِ سببٌ آخرُ لهلاكِ المسلمينَ، وسببٌ لتفترقِ كلمتِهم، وتسلُّطِ العدوِّ عليهم، بأنْ يكونَ هناكَ دعاةُ ضلالٍ، ودعاةُ فتنةٍ، كما حصلَ من الداعيةِ الخبيثِ الأوَّلِ عبدِ اللهِ بنِ سبأٍ.

والأئمةُ جَمْع: إمام، والإمامُ هو القدوةُ الذي يُقتدَى به في الخيرِ أو الشرِّ. ويرادُ بهم الأمراءُ الضالونَ، والعلماءُ الضَّالونَ، والعُبَّاد الضَّالونَ، والدُّعاءُ الضَّالونَ، فإذا قادَ الأمةَ هؤلاءِ قادوها إلى الهلاكِ.

ففي قولِهِ: «**أَخَافُ عَلَى أُمَّتي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ**» مفهومه: أنَّ الأئمةَ المصلحينَ خيرٌ للأمةِ، يجمعونَ كلمتَها، ويصلحونَ عقيدَتَها، ويردُّونَها إلى منهجِ السلفِ الصالحِ، ويحصلُ بهم الخيرُ.

وَإِذَا وُضِعَ عَلَيهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، ولا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّنَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي ....

قوله: «**وَإِذَا وُضِعَ عَلَيهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**» كذلكَ خافَ عليهم النبيُّ ﷺ أنه إذا بدأ القتالُ بينَ المسلمينَ فإنه لا يُرفَعُ إلى يومِ القيامةِ، وهذهِ بليّةٌ أخرى.

وذلكَ حصَل كما أخبرَ به ﷺ؛ فإنه لَمَّا قُتِلَ الخليفةُ الراشدُ أميرُ المؤمنينَ عثمانُ فإنه لا يزالُ القتالُ مستمرًّا بينَ المسلمينَ، وسيستمرُّ إلى يومِ القيامةِ.

قوله: «**ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين**» الحي: المراد به: القبيلةُ، ومعنى يلحق: يتبعُ؛ إما بأَنْ يذهبوا إلى بلادِهم ويَسْكنوا معهم ويكونوا مِنْ دولتِهم، وإمَّا بأَنْ يبقوا في بلادِ المسلمينَ ولكِنْ يكونونَ على منهجِ الكُفارِ ويرتدّون عن الإسلامِ.

ووقعَ هذا كما أَخبرَ به ﷺ، ففيهِمْ من ذهبَ إلى بلادِ الكفارِ ولم يرجِعْ وصارَ يوافِقُ الكفَّارَ في أمورِهم الدينيةِ، ويَجْري عليهم حُكْمُهم وهو مختارٌ للإقامةِ بينهم. وفيهم مَنْ بقِيَ في بلادِ المسلمينَ ويعتَنِقُ مذاهبَ الكفرِ من شيوعيةٍ وبعثيةٍ وقوميةٍ وغيرِ ذلك،

قوله: «**وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان**» الفِئام: الجماعاتَ، والأوثان: كلُّ ما عُبِدَ من دونِ الله. وقد وقَعَ ما أخبرَ به ﷺ، فعَبَدتْ جماعاتٌ من هذهِ الأمةِ القبورَ والأضرحةَ، واعتبروا هذا هو الدِّينُ الصحيحُ.

وقوله ﷺ: «**وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّنَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي**»، هذا فيه إخبارٌ منه ﷺ بظهورِ المتنبِّئينَ الكَذَبَة الذينَ يدَّعونَ النُّبوةَ.

وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةً، ....

وقد حصَلَ ما أخبرَ به ﷺ، وأولُ مَنْ ظَهَر في حياتِهِ ﷺ اثنان: مُسَيْلِمة الكذّاب في اليمامةِ، والأسود العَنْسِي في اليمنِ. ولا يزالُ المتنبئونَ الكذَبَة يظهرونَ بينَ الحينِ والآخرِ، إلى أَنْ ظَهَرَ منذُ سنينَ رجلٌ في الباكستان يسمَّى غلام أحمد القادياني، ادَّعى النبوَةَ، وتَبِعَه قومٌ، وصارَ له أتباعٌ الآنَ يُسمَّوْن القاديانيّة، وقد كفَّرَهم المسلمونَ، ونبذُوهُم -ولله الحمدُ-.

وقوله ﷺ: «**وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّنَ، لا نَبِيَّ بَعْدِي**» الخاتَم: الذي يختِمُ على الشيءِ فلا يُزادُ فيه، فالرسول ﷺ خَتَمَ الأنبياءَ، بمعنى أنه هو آخِرُهم، ولا يأتي بعدَه نبيٌّ.

فالذي يدَّعي النبوّةَ بعدَ محمَّدٍ ﷺ فهو كافرٌ، لأنهُ مكذِّبٌ لله، لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، ومكذِّبٌ لرسولِ الله في قوله: «**وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّنَ**» ومكذِّبٌ لإجماعِ المسلمينَ، لأنَّ المسلمينَ أجمعوا على أنه لا نبيَّ بعدَ محمَّدٍ ﷺ. فإن قالَ قائلٌ: أليسَ المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ ينزلُ في آخرِ الزمانِ كما تواترَ ذلك في الأحاديثِ؟ قلنا: نَعَمْ، ينزلُ في آخرِ الزمانِ، ولكِنْ لا ينزِلُ بشريعةٍ جديدةٍ، وإنَّما ينزلُ ليعملَ بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ، فهو يُعتبرُ مجدِّدًا من المجدِّدينَ، ومصلحًا من المصلحينَ، يحكمُ بشريعةِ الإسلامِ، ويتَّبعُ محمَّدًا ﷺ.

ثمَّ قالَ مبشِّرًا لأمتِهِ بعدَ هذهِ الأخبارِ المروِّعَةَ: «**وَلَا تَزالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ**» يعني: مع هذهِ الحوادثِ العظيمةِ، وهذا الابتلاءِ العظيمِ، ووقوعِ الشركِ، ووقوعِ اللِّحاقِ بالمشركينَ من بعضِ القبائلِ وتسلُّطِ الكفّارِ، وقلّةِ أهلِ الحقِّ، وكثرةِ أهلِ الباطلِ، مَعَ هذا يَبْقى في هذهِ الأمةِ بقيةٌ صالحةٌ إلى أَنْ يأتِيَ أمرُ الله تبارَك وتَعالى.

والطائفةُ في الأصلِ الجماعةُ. والمرادُ هنا: من كانَ على الحقِّ ولو كانَ واحدًا.

لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ تَبَارِكَ وَتَعَالَى»(١).

«**عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ**» يعني: غالبين.

«**لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ**» مع هذهِ الشرورِ كلِّها، وهذه الفتنُ كلُّها، هذهِ الطائفةُ لا تتضرَّرُ، بل تَبْقى على الحقِّ الذي بُعِثَ به محمَّدٌ ﷺ، ولم يُعيِّنْ ﷺ عددَها، ولم يُعيِّنْ مكانَها، لأنَّ العددَ قد يقِلُّ وقَدْ يكثُر، وكذلكَ المكانُ قد يكونُ تارةً في المشرقِ، وتارةً في المغربِ، وتارةً في العربِ، وتارةً في العجمِ، المهمُّ أنَّها تَبْقى هذه الطائفةُ من الأمةِ، لتبقى حجّةُ اللهِ على خلقِهِ. وقد قالَ أهلُ العلمِ -كالإمامِ أحمدَ وغيرِهِ(٢)-: (**إن هذه الطائفة هم أهل الحديث**)، أي: الذين يتمسّكونَ بسنّةِ الرسول ﷺ، كما قالَ ﷺ -لَمَّا ذَكَر افتراقَ الأمةِ إلى ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً-: «**كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**» قالوا: مَنْ هي يا رسولُ اللهِ؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(٣)، فهم أهلُ الحديثِ الذين يتمسّكونَ بحديثِ الرسولِ ﷺ، ولا يتمسّكونَ بالآراءِ والأَقْوالِ وعلمِ الكلامِ والمنطقِ.

وقوله: «**حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**» المرادُ بأمرِ اللهِ ما يكونُ في آخرِ الزمانِ من قَبضِ أرواحِ أهْلِ الإيمانِ، حينَ يبعثُ اللهُ ريحًا طيّبةً في آخرِ الزمانِ قبلَ قيامِ الساعةِ فتقبضُ روحَ كلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، ويبقى شرارُ النَّاسِ، وحينئذٍ تقومُ السَّاعةُ.

---

(١) أخرج هذه الزيادة أحمد (٥/ ٢٧٨)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، والترمذي مقطعًا (٢٢٠٢) و(٢٢١٩) و(٢٢٢٩).

(٢) انظر: «سنن الإمام الترمذي» (٢٦٤١).

(٣) انظر: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب (٢٧).

الباب الرابع والعشرون
بَاب ما جاء في السِّحر

....

الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأبوابِ السَّابقةِ ذكَرَ أنواعًا من الشركِ، ووسائلِ الشركِ. ولَمَّا كانَ السحرُ نوعًا من أنواعِ الشركِ عَقَدَ له هذا البابَ، لأنَّ السِّحْر لا يُمْكنُ الوصولُ إليه إلَّا عَنْ طريقِ الشِّياطينِ، فالسَّحرةُ يَخْضعون للشَّياطينِ، ويَسْتَعينون بهم في سِحْرهم، وهذا شركٌ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

والسِّحرُ في اللغةِ هو: كلُّ ما لَطُفَ وخَفِيَ سببهُ،

أما تعريفُهُ في الشرعِ: فالسحرُ عبارةٌ عن عزائمَ ورُقى وعُقدٍ يؤثِّرُ في بدنِ المسحورِ بالقتلِ أو بالمرضِ، أو بالإخلالِ بعقلِهِ، أو يفرِّقُ بينَ الزوجينِ، أو يَأْخُذُ الزوجَ عن زوجتِهِ فلا يستطيعُ الوصولَ إليها، قالَ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني: السَّواحر.

فالسَّاحر يعقِدُ العُقَدَ بالخيطِ ثمَّ ينفثُ فيها مِنْ ريقِهِ، ويستعينُ بالشَّيْطانِ، ويؤثِّر هذا بإذنِ اللهِ في المسحورِ. فالسِّحر له حقيقةٌ، ويُؤثِّر في بدنِ المسحورِ، ولكنَّهُ لا يؤثِّر إلَّا بإذنِ الله القدريِّ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: إذن الله القدريِّ الكونيِّ.

وقد ذكر العلماء أنَّ السحرَ المحرَّمَ على نوعينِ:

سحرٌ حقيقيٌّ، وهذا هو الذي ذَكَرْنا.

والنوع الثاني: **سحرٌ تخييليٌّ**، ليسَ له حقيقةٌ، وإنَّما هو خيالٌ وشعوذةٌ، وهو ما يسمَّى بالقُمْرةِ، فالساحرُ يخيِّلُ للنَّاسِ شيئًا وهو ليسَ حقيقةً، كأَنْ يخيِّلَ للنَّاسِ أنهُ دخَل في النَّارِ، وليسَ كذلكَ، والحقيقةُ أنه عَمِلَ شيئًا من التَّخييلِ والقُمْرةِ فأثَّر على الأبصارِ.

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وَقَولُهُ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٥١]. **قَالَ عُمَرُ**: «**الجِبْتُ: السِّحْرُ. وَالطَّاغُوتُ: الشَّيْطَانُ**»(١)، ....

قال: «**وقول الله تعالى**: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ﴾» أي: اليهود.

﴿لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ أي: استبدلَ السِّحْرَ بالتوراةِ.

﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: السَّاحرُ ليسَ له نصيبٌ من الجنَّةِ.

هذا دليلٌ على أنه كافرٌ، فالسحرُ كفرٌ باللهِ ﷻ، وذلكَ من عدّةِ مواضعَ في الآيةِ:

أولاً: قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾.

ثانيًا: قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ أي: الملكان ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡ﴾.

ثالثًا: قوله: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ أي: السِّحْر ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾أي: نصيبٌ من الجنَّةِ.

قالَ المصنِّفُ ؒ «**وقوله**: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾» ثمَّ ذكرَ تفسيرَ الجِبْتِ والطاغوتِ بقولِهِ: «**وَقَالَ عُمَرُ: الجِبْتُ: السِّحْرُ**» فاليهودُ يؤمنونَ بالسحرِ، وهو كفرٌ باللهِ ﷻ.

«**وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ**» أي: هو رأسُ الطواغيتِ، والطاغوتُ مشتقٌ من الطغيانِ، وهو مجاوزةُ الحَدِّ.

---

(١) علقه البخاري قبل الحديث (٤٥٨٣)، ووصله سعيد بن منصور (٢٥٣٤)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ١٣١).

وَقَالَ جَابِرٌ: «الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنزِلُ عَلَيهِمُ الشَّيطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ»(١). **وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ** ﷺ: **أَنَّ رَسُولَ الله** ﷺ **قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالَوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟**

قوله: «**وَقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، فِي كُلِّ حَيٍّ مِنْهُمْ وَاحِدٌ**» الكاهنُ هو الذي يدَّعي علمَ الغيبِ، وكانوا في الجاهليةِ يتخذونَ حُكَّامًا من الكهّانِ، يحكمونَ بينَ الناسِ.

وكانَ هؤلاءِ الكُهَّانُ تنزلُ عليهم الشياطينُ التي تَسْترقُ السَّمْعَ.

وكانَ عندَ كلِّ حيٍّ كاهنٌ، يعني: عندَ كلِّ قبيلةٍ كاهنٌ يحكمُ بينَهُمْ.

فلمَّا جاءَ الإسلامُ أبطلَ اللهُ ذلكَ كلَّه، وقَدْ جاءَ في الحديثِ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ** ﷺ»(٢).

فلا يجوزُ الذهابُ إلى الكُهَّانِ والمشعوذينَ والدجّالينَ لا للعلاجِ، ولا للسُّؤالِ عن الأشياءِ الضائعةِ، ولا الأشياءِ الغائبةِ، وهذا كفرٌ بما أنزلَ اللهُ ﷻ، ولا يجوزُ إقرارهُم وتركُهُم، بل يجبُ القضاءُ عليهم، وإراحةُ البلادِ والعبادِ منهم، لأنَّهم دُعاةُ كفرٍ وشركٍ، يُفسدونَ العقائدَ.

قال: «**وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ** ﷺ: **أَنَّ رَسُولَ الله** ﷺ **قَالَ: اجْتَنِبُوا**» أي: ابتَعِدوا،

«**السَّبْعَ**» أي: المعاصي السبع.

«**المُوبِقَاتِ**» يعني: المُهلكات.

«**قَالَوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟**» سألوه ﷺ: ما هي هذه السبعُ حتى نتجنَّبَها؟

---

(١) علقه البخاري أيضًا قبل الحديث (٤٥٨٣)، ووصله الطبري (٣/ ١٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وأحمد (٢/ ٤٢٩).

قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، والسِّحْر، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا ....

«**قَالَ: الشِّرْكُ بِالله**» هذا أكبرُ الكبائرِ، وأعظمُ الموبقاتِ، وأعظمُ ذنبٍ عُصِي اللهُ به.

وما هو الشركُ؟ الشركُ هو عبادةُ غيرِ الله ﷻ، بأن يصرفَ له شيئًا من العبادةِ.

فليسَ الشركُ مقصورًا على عبادةِ الأصنامِ، بل الشركُ في كلِّ ما صُرِفَ لغيرِ اللهِ من العبادةِ أيًا كانَ المصروفُ له، سواءً كان صنمًا أو قبرًا أو شجرًا أو حجرًا أو غيرَ ذلكَ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَالسِّحْرُ**» وهذا محَلُ الشَّاهدِ من الحديثِ، لأنَّ السحر كفرٌ وشركٌ باللهِ ﷻ.

«**وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالحَقِّ**» النفسُ الَّتي حرَّم اللهُ هي نفسُ المؤمنِ ونفسُ المُعاهدِ، فالمؤمنُ عَصَم اللهُ دَمه ومالَه وعِرْضَه، فلا يجوزُ الاعتداءُ عليه، وكذلكَ الكافرُ المعاهَدُ، لا يجوزُ قتلُهُ.

وقوله ﷺ: «**إِلَّا بِالحَقِّ**» أي: إلَّا بسببٍ يبيحُ قتلَ المؤمنِ أو المُعاهِد، وقد بيَّنهُ رسولُ اللهِ ﷺ بقولِهِ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»(١).

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَأَكْلُ الرِّبَا**» والرِّبا لغةً: الزيادةُ، والمرادُ به هنا: زيادةٌ مخصوصةٌ في مالٍ مخصوصٍ، وهي الأصنافُ التي حرَّمَ الرسولُ ﷺ الزيادةَ فيها بقولِهِ: «**الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالفِضَّةُ بِالفِضَّةِ، وَالبُرُّ بِالبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالمِلْحُ بِالمِلْح، سَوَاءً بِسَوَاءٍ، يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيفَ شِئْتُم إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢١٧٤)، ومسلم (١٥٨٧).

وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ»(١).

والرِّبا من أكبرِ الكبائرِ بعدَ الشركِ، قد توعَّدَ اللهُ عليه بأشدِّ الوعيدِ، وقد لعنَ النبيُّ ﷺ آكلَ الرِّبا، وموكلَه وشاهدَيْه، وكاتبَه، فالرِّبا من أعظمِ الكبائرِ بعدَ الشركِ.

قال ﷺ: «**وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ**» المُراد بِاليتيم: من ماتَ أبوه وهو دونَ البُلوغ، والواجبُ الإحسانُ إلى اليتيمِ، لأنه فَقَد أَباه وعَطفَه، فَيجبُ عَلى المُسلمينَ أن يَسدّوا محَلَّ والده بالإحسانِ إليه وَرِعايتِهِ، وإن كانَ له مالٌ فيَجبُ أن يُحافَظَ عليهِ حَتى يَبلغ رَشيدًا، ويُسلَّمَ له مالُهُ بالتَّمامِ.

قال ﷺ: «**وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**» التَّولي يَومَ الزَّحفِ، هو الفرارُ من القِتالِ بينَ المُسلمينَ والكُفارِ إذا حضَرَ المَعركة.

فَمن حَضر المعركة بين المُسْلمينَ والكُفارِ وهوَ يَستطيعُ القِتالَ فلا يجوزُ لَه أن يَنْصرفَ، بَل يَجِبُ عَليه أن يُقاتلَ معَ المسلمينَ.

قال ﷺ: «**وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ**» المُرادُ بالقّذفِ: الرَّمي بالفاحِشةِ، مِن زنا أو لُواطٍ. والمُرادُ بالمُحْصناتِ: العَفيفاتِ عَن الزِّنا مِن الحَرائرِ، ومثلهن الرّجالُ العَفيفونَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٧)، ومسلم (٨٩).

وَعَنْ جُنْدُبٍ[(١)] مَرفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ». رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ[(٢)]، وَقَالَ: «الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوقُوفٌ». وَفِي «صَحِيحُ البُخَارِيّ»[(٣)] عَن بَجَالَةَ بن عَبَدَة؛ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: (أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ)، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ.

«**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**» المَعنى: أنَّ حُكمَ السَّاحِرِ وُجوبُ قَتلِهِ، لأنه يُفسِدُ في الأرضِ، إنْ كانَ كافرًا أَصْليًا وَجَب قَتلُهُ بِكفرِهِ وإفسادِهِ، وإن كانَ مُسلمًا ثمَّ اسْتَعملَ السحرَ وَجَبَ قتلُهُ لِردَّتِهِ.

قوله: «**وفي صحيح البخاريّ: عن بَجَالة بن عَبَدة، قال: كَتب عمرُ ابنُ الخطاب أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**» فهذا يؤيِّد حَديث جُنْدب: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ**».

إذا كانَ عُمرُ بنُ الخَطابِ -أميرُ المُؤمنينَ وثانِي الخُلفاءِ الراشِدينَ- كتبَ إلى الأمصارِ وإلى ولاتِهِ: «**أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ**» واشْتُهرَ ذلِك، إذًا فَقتلُ السّاحِرِ دلَّ عَليه الحديثُ، وفِعْلُ عمرَ بنِ الخَطَّابِ.

قالَ: «**فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ**» يعني: نَفَّذنا ما كَتَبَ بِهِ أَميرُ المؤمنِينَ، وسَواحر: جَمعُ ساحِرةٍ، وهي المَرأةُ التي تَتعاطى السِّحرَ.

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ليس هو جندب بن عبد الله البجلي، بل جندب الخير المعروف بقاتل الساحر. هو جندب الأزدي أو جندب بن عبد الله ويقال جندب بن كعب، صحابي من غامد من الأزد، يلقب بجندب الخير، قاتل الساحر. من أصحاب علي بن أبي طالب وشهد معه معركة الجمل ومعركة صفين وقيل إنه استشهد فيها. وقيل إنه شهد معركة النهروان. سير أعلام النبلاء (٣/ ١٧٦) بتصرف.

(٢) أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والحاكم (٤/ ٣٦٠) والدارقطني (٣/ ١١٤) والطبراني (١٦٦٥) والبيهقي (٨/ ١٣٦).

(٣) هذا اللفظ لم يورده البخاري في «صحيحه»، ولكن أورد أصله برقم (٣١٥٦). وأخرجه أبو داود (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ١٩٠-١٩١) وغيرهما.

وَصَحَّ عَن حَفصَةَ رضي الله عنها: (أنَّهَا أَمَرَت بِقَتلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتهَا، فَقُتِلَت)[1]. وَكَذلِكَ صَحَّ عَن جُندُبٍ[2]. قَالَ أَحمَدُ: (صحَّ عَن ثَلَاثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ).

قال: «**وصحّ عن حفصة أنها أمرت بِقتل جارية لَهَا**» أي: مَملوكة لَهَا.

«**سحرتها**» سَحرت حَفصةَ رضي الله عنها فَأَمرتْ بِقَتْلِها.

وهذا أيضًا فِعلُ صَحابيّةٍ، وهي أُمُّ المُؤمنينَ، أَمَرتْ بِقتلِ مَمْلوكَتِها لَمَّا سَحَرتْ.

قال: «**صحَّ عَن ثَلَاثَةٍ مِن أَصحَابِ النَّبِيِّ ﷺ**» يَعني: صَحَّ قَتلُ السَّاحِرِ عن عُمرَ بنِ الخطابِ، وحَفصةَ أُمِّ المؤمنينَ، وجُنْدبٍ.

---

(١) أخرجه الشافعي في «مسنده» ص (٣٨٣)، وعبد الرزاق (١٨٧٤٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في «تاريخه الكبير» (٢/ ٢٢٢)، والبيهقي (٨/ ١٣٦).

الباب الخامس والعشرون
بَاب بيانُ شيءِ من أنواع السِّحر

....

مُناسبةُ هذا البابِ بعدَ البابِ الذي قبلهُ ظاهرةٌ، لأنهُ في البابِ الذي قبلَه بيَّنَ ما جاءَ من الأدلَّةِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ في حُكمِ السِّحرِ وحُكمِ السَّاحرِ، فتطلَّعتِ الأنظارُ إلى أنْ يعرفَ النَّاسُ ما هوَ السِّحرُ، وما هِي أنواعُهُ حتَّى يتجنَّبوهُ.

وممَّا حَمَلَ المُصنِّفُ أيضًا رحمه الله على عقدِ هذا البابِ: أنَّ هناكَ خوارقَ تجري على أيدي بعضِ النَّاسِ خارجةً عن الأسبابِ المعروفةِ، مثلَ: المَشي على الماءِ والطَّيَران في الهواءِ، والإخبارِ عن الأشياءِ الغائبةِ، وإحضارِ الشَّيءِ البَعيدِ.

وهذه الخَوارقُ إنْ جرتْ على أيدي الصَّالحينَ فَهي كراماتٌ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى، والكراماتُ ثابتةٌ عِندَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، تَجري على أيدي الصَّالحينَ إكرامًا لهم مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى، وقد تَجري على الكفرةِ، والفُسّاقِ، والمنافقينَ، فتكونُ هذه الخوارقُ شيطانيةٌ، يَفْتِنونَ بها النَّاسَ، ويُلبِّسونَ بها على النَّاسِ، وهِي إما سِحرٌ، وإما بسببِ استِخدام هؤلاءِ الفُسّاقِ للشياطينِ، فيخدمُهُم الشياطينُ بهذهِ الأمورِ التي ليسَتْ من مَقدورِ بَني آدمَ، وإمَّا أنَّ لها أسبابًا خفيّةً لم تَظهَرْ للنّاسِ من حِيَلٍ، يَعْملونَها.

فمن أجل التباس الحقِّ بالباطلِ في هذه الخوارق أرادَ الشَّيخُ أن يعقدَ هذا البابَ ليبيِّنَ أنَّ هذه الخوارقَ مِنَ السِّحرِ، وليسَتْ مِنَ الكَراماتِ.

قَالَ أَحمَدُ[1]: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ[2] بنُ جعفَرٍ، حَدَّثَنَا عوفٌ[3]، عَن حَيَّانَ بنِ العَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ، عَن أَبِيهِ[4]، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ»[5]. قَالَ عَوفٌ: العِيَافَةُ: زَجرُ الطَّيرِ. وَالطَّرْقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرضِ. وَالجِبْتُ: قَالَ الحَسَنُ[6]: رَنَّةُ الشَّيطَانِ. إِسنَادُهُ جَيِّدٌ. وَلأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وابنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»: المُسنَدُ مِنهُ[7].

قوله: «**سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قال: إِنَّ العِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ**». وتفسيرُ هذهِ الألفاظِ مَرويٌّ عن: «**عوف**».

قال: «**العِيافة: زَجْر الطَّير**» ومعناه: التَّشاؤمُ بأصواتِها وأسمائِها ومسارِها.

«**والطَّرْق: الخطُّ يخَطّ بالأرض**» مِنْ أجلِ استطلاع الأمورِ الغائبةِ، وهي طَريقةٌ جاهِليةٌ، وهُمْ لا يَعْلمونَ بها الغَيْبَ بِذاتِها، وإنَّما الشَّياطينُ هي التي تَأتي لهم بما يُريدونَ إذا تَقَرّبوا إليهم بالعبادةِ، وكَفروا بِالله ﷻ، لأنَّ الشَّياطينَ تُريدُ إضلالَ بني آدمَ مَهْما استطاعَتْ.

قوله: «**قال الحسن: الجبت رَنّة الشَّيطان**» أي: صَوتُ الشَّيطان، وصَوتُ الشيطانِ يَشْملُ أَشياءَ كثيرةً، مِنها: الأغاني والمزاميرُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾.

---

(١) **أحمدُ**: هو الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ.

(٢) **محمدُ بن جعفرٍ**: هو المشهورُ بغندرٍ الهذليِّ البصريِّ، ثقةٌ مشهورٌ.

(٣) **عوفٌ**: هو ابنُ أَبي جميلةَ المعروفُ بعوفٍ الأعرابيِّ، ثقةٌ.

(٤) **أَبيهِ**: هو قبيصةُ بن المخارقِ الهلاليُّ، صحابيٌّ مشهورٌ.

(٥) في «مسنده» (٥/ ٦٠).

(٦) **الحسنُ**: هو الحسنُ البصريُّ.

(٧) أخرجه أبو داود (٣٩٠٧)، والنسائي في «الكبرى» (١١١٠٨)، وابن حبان (٦١٣١).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «مَنِ اقْتبَسَ شُعبةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَد اقْتبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1]، وَإِسنَادُهُ صَحِيحٌ.

وصَوْتُ الشيطانِ: كُلُّ كلامٍ باطلٍ، وكُلُّ كلامِ كفرٍ أو شركٍ.

فهذا فيه بيانٌ لشيءٍ من أنواعِ السِّحرِ: فالعِيافةُ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ، والطَّرْق نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ، والطِّيَرة نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ.

قال: «**وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قالَ رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رواه أبو داود، وإسنادُه صَحيح**».

قوله ﷺ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً**» يعني: تَعلَّم. والشُّعبة: الطائِفة أو القِطْعة.

«**مِنَ النُّجُومِ**» يعني: من علم التَّنْجِيم.

والتنجيمُ مَعناه: اعتِقادُ أنَّ النجومَ تُؤثِّرُ في الكَونِ، كَما قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ[2] هو: نسبةُ الحَوادثِ الأَرضيّةِ إلى الأحْوالِ الفلَكيّةِ.

قوله: «**فَقَدْ اقْتبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْر**» وهذا هو الشَّاهدُ منَ الحديثِ للبابِ، حيثُ دلَّ على أنَّ التَّنجيمَ نوعٌ من أنواعِ السِّحرِ، لأنَّ كلاًّ منَ المُنجِّمِ والسَّاحرِ يدَّعي عِلْمَ الغيبِ الذي اختصَّ اللهُ تعالى بِعلمِهِ.

وقوله: «**زَادَ مَا زَادَ**» يَعني: كلُّ ما زادَ من الاقتِباسِ زادَ منَ السِّحرِ، فمُقِلٌّ ومُسْتَكْثِر.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦)

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٩٢).

وَلِلنَّسَائِي(١) **مِن حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ** ﵁: «**مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**».

قالَ: «**وللنسائي من حديث أبي هريرة** ﵁ **أن النبي** ﷺ **قال: مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً**» هذا مِنْ عَملِ السَّحرةِ؛ يعقِدونَ الخُيوطَ ثمّ ينفثُونَ فيها، والنَّفثُ هو: النَّفخُ معَ الرِّيقِ، ينفثُ فيها مِنْ ريقِهِ الخبيثِ، لأنه مُتكيِّفٌ بالشَّيطانِ. فَريقُهُ ممزوجُ بالخُبُثِ وتأثيرِ الشيطانِ.

وقوله: «**فَقَدْ سَحَرَ**» يدلُّ على أنَّ هذا العملَ سِحْرٌ.

قوله: «**وَمَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ**» هذا هُو الشَّاهدُ منَ الحديثِ؛ أنَّ مِنْ أنواعِ الشِركِ: عَقْد العُقَدِ، والنَّفْثَ فيها بقصدِ السِّحرِ، لأنَّ السَّاحرَ لا يتوصَّلُ إلى سحرِهِ إلَّا بالاستعانةِ بالشَّياطِينِ، وإذا استعانَ بالشياطينِ فقد أشركَ باللهِ ﷻ.

قوله: «**وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَّ إِلَيْهِ**» أي: من اعتقَدَ في شيءٍ من دونِ اللهِ أنه يَنفَع أو يضُرُّ وكَلَهُ اللهُ إلى ذلكَ الشَّيءِ.

فمنْ ذهب إلى مشعوذٍ يُريدُ منه العلاجَ والشِّفاءَ من المرضِ وكَلهُ اللهُ إليه، ومن سألَ كاهنًا أو عرَّافًا عن شيءٍ من الأشياءِ وكَله اللهُ إليه إذا اعْتمدَ عليه.

ومن توكّل على اللهِ، وتعلَّقَ باللهِ ﷻ، وخافَ اللهَ ورجاهُ فإنَّ اللهَ يتولَّى أمرَه،

فمن توكَّلَ على الله كفاهُ، ومن توكَّلَ على غيرِ اللهِ وَكَله اللهُ إلى ضَعيفٍ عاجزٍ لا يُغني عنه منَ اللهِ شيئًا، لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٧٩).

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَلا هَل أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْه؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)]. وَلَهُمَا[(٢)] عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

قالَ: «**وَعَن ابنِ مَسعُودٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: أَلا هَل أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْه**» العضه: السِّحر، أي: ما هو السِّحر؟ ثمَّ قالَ ﷺ في الجوابِ: «**هِيَ النَّمِيمَةُ**» وهذا لِبيانِ خطرِ النَّميمةِ، كأنَّ النبيَّ ﷺ حصَرَ السِّحرَ فيها تحْذيرًا مِنها. ولماذا صارَتْ النَّميمةُ بهذهِ الخُطورةِ؟ لأنَّ النَّميمةَ تَعملُ عملَ السِّحرِ، فتفرِّقُ بينَ النَّاسِ كما يُفرِّق بينهم السِّحرُ، بل هِي أشدُّ.

والنَّميمة معناها: نقلُ الحديثِ بينَ النَّاسِ على وجهِ الإفسادِ.

والنميمةُ من الكَبائرِ، وقد بيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ النَّميمةَ من أسبابِ عذابِ القبرِ، والنَّمامُ ليس له حُكمُ السَّاحرِ، فلا يَكفر كما يَكفرُ السَّاحرُ، وإنَّما النَّميمةُ مُحَرَّمةٌ كما يحرُم السِّحرُ، إلَّا أنَّ السِّحرَ كُفْرٌ، والنَّميمةُ فِسْقٌ.

«**من حديث ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ**: «**إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا**» البيانُ هو: البَلاغةُ والفَصاحةُ. والنبيُّ ﷺ لم يَذُمَّ البيانَ مطلقًا، وإنَّما ذمَّ البيانَ الذي يقلِبُ الحقَّ باطلاً والباطلَ حقًّا، فإنَّ البليغَ الفصيحَ يستطيعُ بِأسلوبِهِ أَن يُزيِّنَ للنَّاسِ الباطِلَ، وأَنْ يُزوِّرَه بكلامِهِ حتَّى يظنّوهُ صحيحًا، ويَستطيعَ أَنْ يُؤثِّرَ على الحقِّ حتَّى يُخيَّلَ إلى النَّاسِ أنَّه باطِلٌ.

فالواجِبُ على المُسلمِ إذا أَعطاهُ اللهُ مقدرةً في الكلامِ والمُحاورةِ أَنْ يَستعملَ هذا في طاعةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي الدَّعوةِ إلى الخيرِ، وترغيبِ النَّاسِ في الخيرِ، وتَنْفيرِهِم من الشرِّ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٦) عن ابن عمر. وأخرجه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار.

الباب السادس والعشرون

بَاب ما جاء في الكُهَّان ونحوهم

رَوَى مُسلِمٌ فِي «صحيحه»[1] عَن بَعضِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّفًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُول، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يومًا».

قوله: «**باب ما جاء في الكُهّان ونحوهم**» يعني: ومَنْ كانَ مثلُهُم مِنَ العرّافينَ والرّمّالينَ وغيرِ ذلك، لأنَّ هذا بابٌ يشملُ كلَّ ما هو من نوعِ الكِهانةِ.

والكِهانة معناها: ادّعاءُ علمِ الغيبِ، بطرقٍ شيطانيةٍ.

فالكاهنُ هو: الذي يُخبرُ عن المغيّباتِ من الأشياءِ المستقبَلَةِ، والأشياءِ المفقودةِ والضالةِ، بسبب أنه يخضعُ للشياطينِ.

ولا تُخبرُهُ الشياطينُ إلَّا إذا أطاعَهُم وكفَرَ باللهِ ﷻ، وأشرَكَ باللهِ، ونفّذَ ما تُمْليهِ عليه الشياطينُ من الكفرِ والشركِ، وإلَّا فالشياطينُ لا تطيعُ المؤمنَ المُوحِّدَ لأنهُ لا يُطيعُها.

قوله: «**عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى عَرَّفًا**» العرَّافُ قيلَ: هو الذي يُخبرُ عن الأمورِ الغائبةِ عن طريقِ الحَدْسِ والتّخمينِ والظّنِّ. وقيلَ: هو الكاهنُ.

«**فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُول، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يومًا**» هذهِ اللَّفظةُ «**فصدَّقه**» ليسَتْ في صحيحِ مُسْلمٍ، وإنّما وردَتْ في روايةِ الإمامِ أحمدَ في «**المسندِ**»، والذي في صحيحِ مسلمٍ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً**» فالحُكْمُ مرتّبٌ على مجيءِ العرَّافِ فقط، لأنَّ إتيانَ العرّاف والذهابَ إليه جريمةٌ ومحرمٌ حتَّى ولو لَمْ يُصدِّقْهُ.

---

(١) برقم (٢٢٣٠).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1].

ولهذا لَمَّا سألَ معاويةُ بنُ الحكمِ رسولَ اللهِ ﷺ عن العرَّافينَ قال: «**لَا تَأْتِهِمْ**» فالنبيُّ ﷺ نهاهُ عن مُجرَّدِ إتيانِهم. فهذا الحديثُ يَدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى العرَّافينَ، حتَّى ولو لم يُصدِّقْهم، ولو قالَ: أنا أذْهبُ من بابِ الاطلاعِ، فهذا لا يجوزُ.

«**لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمَاً**» في رواية: «**أَرْبَعِينَ يَوْمَاً وَلَيْلَةً**». فدلَّ هذا على شدّةِ عقوبةِ من يَأْتِي العرَّافَ، وأنَّ صلاتَهُ لا تُقبَلُ عندَ اللهِ، ولا ثوابَ له عندَ اللهِ فيها، وإنْ كانَ لا يُؤمرُ بالإعادةِ، لأَنَّهُ صلَّى في الظاهرِ، لكنْ فيما بينَهُ وبينَ اللهِ صلاتُهُ لا ثوابَ له فيها لأنَّها غيرُ مقبولةٍ.

قال: «**وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَنْ أَتَى كَاهِنًا... إلخ**» هذا الحديثُ فيه شيئانِ: الشيءُ الأولُ: المجيءُ إلى الكاهنِ.

والشيءُ الثاني: تصديقُهُ بما يُخبرُ به من أمرِ الكِهانةِ.

وحكمُهُ: أنهُ يكونُ كافرًا بما أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ، لأنهُ لا يجتمعُ التَّصديقُ بما أُنزِلَ على محمَّدٍ والتصديقُ بما عندَ الكُهَّانِ من عملِ الشَّياطينِ. ضِدّانِ لا يَجْتمعانِ، لا يمكنُ أَنْ يُصدِّقَ بالقرآنِ ويُصدِّق بالكِهانةِ. وظاهرُ هذا أنهُ يخرجُ من الملّةِ.

وعن أحمدَ روايتان في نوعِ هذا الكفرِ: روايةٌ أنه كفرٌ أكبرُ يُخرِجُ من المِلَّةِ. وروايةٌ أنه دونَ ذلكَ. وفيه قولٌ ثالثٌ: وهو التوقُّفُ، وأَنْ يُقرأَ الحديثُ كما جاءَ من غيرِ أَنْ يُفسَّر بالكفرِ الأَكْبرِ أو الكفرِ الأصغرِ، فنقولُ ما قالَهُ الرَّسولُ ﷺ وَيكْفِي.

---

(١) برقم (٣٩٠٤).

وَلِلأَرْبَعَةِ وَالحَاكِمِ[1] -وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرطِهِمَا- عَن أَبِي هُرَيرَةَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَو كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». وَلأَبِي يَعلَى[2] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسعُودٍ مِثلُهُ مَوقُوفًا. وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعًا: «لَيسَ مِنَّا مَن تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ، ....

قال: «**وَلِلأَربَعَةِ وَالحَاكِمِ -وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرطِهِمَا- عَن أَبِي هُرَيرَةَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَو كَاهِنًا... إلخ**» في هذا الحديثِ جَمْعٌ بينَ الاثنينِ: العرَّافِ والكاهنِ، فإذا جُمِعَ فالكاهنُ هو: الذي يُخبِرُ عن المغيّباتِ بسببِ ما تُلقيهِ عليه الشياطينُ. وأما العرَّافُ فهو الذي يُخبِرُ عن المغيّباتِ بسببِ الحَدْسِ والتَّخْمينِ والخطِّ في الأرضِ، وما أشبهَ ذلكَ. فإذا ذُكر الاثنانِ جميعًا صارَ لكُلِ واحدٍ معنى.

أما إذا ذُكر الكاهنُ وحدَهُ دخَلَ فيهِ العرَّافُ، وإذا ذُكِرَ العرَّافُ وحدَهُ دخَلَ فيه الكاهنُ.

قال: «**ولأبي يعلى بسند جيّد عن ابن مسعود مثله**» أي: مثلَ حديثِ أبي هريرةَ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَو كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ**» إلَّا أنه موقوفٌ على ابنِ مسعودٍ، فهذا يؤيّدُ ما سَبَقَ. والأحاديثُ كلُّها تدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى الكُهّانِ والعرّافينَ، وتَصْديقِهِم بما يقولونَ.

قالَ: «**وَعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ مَرفُوعًا: لَيسَ مِنَّا مَن تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّرَ لَهُ**» وهذا الحديثُ كالذي سبقَهُ، يدلُّ على تحريمِ الكِهانةِ، والذهابِ إلى الكُهَّانِ، لأنهم يفسدونَ عقيدةَ مَنْ يذهَبْ إليهم، وبعضُهُم ربَّما تظاهَرَ بذكرِ اسمِ اللهِ أو يُصلِّي، أَوْ غَيْرِ ذلكَ، حتَّى يقولَ من رآهُ: رأيتُهُ يُصلِّي، رأيتُهُ يذهبُ للمسجدِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، ابن ماجه (٦٣٩).

(٢) برقم (٥٤٠٨).

أَو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ لَهُ، أَو سَحَرَ أَو سُحِرَ لَهُ، وَمَن أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ؛ فَقَد كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ البَزَّارُ[1] بِإسنَادٍ جَيِّدٍ. وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي «الأوسَطِ»[2] بِإِسنَادٍ حَسَنٍ مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَولِهِ: «وَمَن أَتَى...» إِلَى آخِرِهِ. قَالَ البَغَوِيُّ: «العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحوِ ذَلِكَ».

وما كُلُّ مَنْ يُصلِّي يصيرُ مُسلِمًا، قَدْ يُصلِّي الإنسانُ ويزكِّي ويصومُ ويحجُّ وهو كافرٌ، إذا فَعَل ذلكَ نفاقًا أو ارتكب ناقضًا من نواقضِ الإسلامِ، فالكاهنُ لو صلَّى ولو صامَ ولو حجَّ، ولو تصدَّقَ ولو زكَّى لا تُقبَلُ أعمالُهُ لأنه مشركٌ كافرٌ، وكذلكَ الساحرُ.

ومعنى: «**تكهّن**» فعَلَ الكِهانةَ. ومعنى: «**تُكُهِّنَ له**» فُعِلَتْ الكِهانةُ من أجلِهِ بطلبِهِ.

فمن ذهب إلى الكهّانِ فله حالتانِ: الحالة الأولى: أَنْ لا يُصدِّقَهم، ولكنْ يقولُ: أريدُ أَنْ أرى ماذا عندَهُم؛ فهذا لا تُقبَلُ له صلاةٌ أربعينَ يومًا، لأنَّ ذهابَهُ إليهم مُحرَّمٌ، إلَّا إذا ذهَبَ إليهم من أجلِ التَّثبُّتِ في شأنِهم من أجلِ مَنْعِهم والقضاءِ على فسادِهِم. أمَّا إذا صدَّقَهم فقَدْ كفَرَ بما أُنزلَ على محمَّدٍ ﷺ، فهو لا يرجعُ سالمًا أبدًا، ممّا يدلُّ على تحريمِ الذهابِ إلى الكُهّانِ والمشعوذينَ والمُدجِّلينَ.

ثم ذكر الشَّيخُ رحمه الله تفسيرُ هذهِ الألفاظِ التي وردتْ في البابِ نقلاً عن «**البغوي**».

قوله: «**العَرَّافُ: الَّذِي يَدَّعِي مَعرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُستَدَلُّ بِهَا عَلَى المَسرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ، وَنَحوِ ذَلِكَ**» وهذا من الشَّيطانِ، فالشياطينُ تأتيهِ بذلكَ، لكِنْ يتظاهرُ بعملِ أشياءَ يظنُّ النَّاسُ أنَّ هذهِ الأشياءَ من الأمورِ المُباحةِ، لكنْ هذهِ رموزٌ فَقَطْ، وإلَّا في الحقيقةِ هو يتعاملُ معَ

---

(١) في «مسنده» (٣٥٧٨).

(٢) برقم (٤٢٦٢)، والبزار (٣٠٤٣) كما في «كشف الأستار».

وَقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ. وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ. وَقِيلَ: الَّذِي يُخبِر عَمَّا فِي الضَّمِيرِ. وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنُ تَيمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسمٌ لِلكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحوِهِم؛ مِمَّن يَتَكَلَّمُ فِي مَعرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُق(١).

الشيطانِ.

قال: «**وقيل: هو الكاهن**» أي: العرّافُ والكاهنُ سواءٌ، لأنَّ كلًّا منهما يخبرُ عن الأمورِ الغائبةِ بواسطةِ الشياطينِ، فكلُّهم عملاءُ للشياطينِ،

«**وَالكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُستَقبَلِ**» بسببِ أنَّ الشياطينَ تُخبرُهُ بما تعلَم ممَّا لا يعلَمُهُ الإنسانُ، لأنَّ الشياطينَ تدري عن أشياءَ لا يعرِفُها الناسُ، فيُخبرونَ النَّاسَ في مقابلِ أن الناسَ يخضعونَ لهم، ويفعلونَ ما يطلبونَه منهم من الشركِ والكفرِ باللهِ ﷻ،

«**وقيل: هو الذي يُخبر عمّا في الضمير**» يعني: عمَّا في النفسِ، ولا يعلمُ ما في القلوبِ إلَّا اللهُ ﷻ، لكنِ الشيطانُ قد يعرفُ شيئًا من هواجسِ الإنسانِ، لأنه هو الذي يوسوسُ للإنسانِ، هذا تفسيرُ البغويِّ رحمه الله.

قال: «**وقال أبو العبّاس ابن تيمية: العَرَّافُ: اسمٌ لِلكَاهِنِ وَالمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ وَنَحوِهِم**» لأنَّ كلمةَ العرَّافِ عامةٌ، يدخلُ تحتَها كلُّ من يدَّعي معرفةَ المستقبلِ، سواءٌ بكِهانة أو بتنجيم، أو بخطٍّ في الرملِ، فكلُّهم يتعاملونَ مع الشياطينِ ويتقربونَ إليهم.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ١٧٣).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أَرَى مَن فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِندَ اللهِ مِن خَلَاقٍ»(١).

قالَ الشيخُ رحمه الله: «**وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَومٍ يَكتُبُونَ (أَبَا جَادٍ)، وَيَنظُرُونَ فِي النُّجُومِ**» **(أبا جاد)** المرادُ بها: حروفُ الجُمَّل، التي هي (**أَبْجَدْ، هَوَّزْ، حُطِّيْ، كَلِمَنْ**) إلى آخرِهِ، وهي حروفٌ مقطّعةٌ يكتبونَهَا لتمييزِ الجُمَلِ، والمُشعوذُ إذا كَتَبَ هذهِ الحروفَ قال: يَحْدُثُ كذا ويكونُ كذا. وهذه في الحقيقةِ طلاسِمُ.

وهؤلاءِ هُمُ الذينَ قالَ فيهم عبدُ اللهِ بنُ عبّاسٍ رضي الله عنه: «**ما أرى مَنْ فعَلَ ذلك**» أي: كتبَ هذهِ الحروف، ونظَرَ في النُّجومِ وأخبرَ أنه سيحدُثُ كذا وكذا.

«**له عند الله من خَلاق**» أي: ليسَ له نصيبٌ من الجنَّةِ عندَ اللهِ عز وجل، ومعناه: أنه كافرٌ.

أما الذي يكتبُ (حروفَ الجُمل) لتمييزِ الجُمَلِ فقط وهو تمييزُ الفقراتِ؛ فهذا لا بأسَ به، مثلاً يقولُ: الفِقْرة (أ)، الفِقْرة (ب)، الفِقْرة (ج)، الفِقرة (د) لا يدَّعي به علمُ الغيب، وإنما يريدُ ترتيبَ الجُمَل فَقَطْ.

---

(١) أخرجه معمر في «جامعه» (١٩٨٠٥)، والبيهقي (٨/ ١٣٩).

الباب السابع والعشرون

بَاب ما جاء في النُّشرَةُ

عَن جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ» رَوَاهُ أَحمَدُ[1] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وأَبُو دَاوُدَ[2]، وَقَالَ: سُئِلَ أَحمَدُ عَنها؟ فَقَالَ: (ابنُ مَسعُودٍ يَكرَهُ هَذَا كُلَّهُ).

وَفِي البُخَارِيِّ عَن قَتَادَةَ[3]: قُلْتُ لابْنِ المُسَيَّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ، ....

قوله: «**باب ما جاء في النُّشرَةِ**» يعني: من الأحاديثِ والآثارِ التي تدلُّ على حُكْمِها في الشَّرْعِ. والنُّشرة مأخوذةٌ من (النَّشر) وهو التفريقُ؛ وهي -كما فسَّرها الإمامُ ابنُ القيمِ-: حلُّ السحرِ عن المسحورِ. وهي ضربٌ من العلاجِ، سُمِّي نَشْرة: لأنه يُنشر به، أي: يزالُ ما أصابَ المريضَ وما خامَرَهُ من الداءِ.

قوله في حديثِ جابرٍ: «**أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشرَةُ**» أي: النُّشرَةُ المَعْهودة في الجاهليةِ، وهي التي كانَتْ من عملِ الشَّيْطانِ.

«**فَقَالَ: هِيَ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ**» لأنها سحرٌ، والسحرُ من عملِ الشيطانِ.

«**وقال**» أي: أبو داودَ. «**قَالَ سُئِلَ أَحمَدُ عَنهَا**» يعني: عن النُّشرَةُ؛ ما في حكمها؟ «**فقال: ابنُ مَسعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّه**» أي: يحرم النُّشرَةُ، لأنَّ السلفَ يريدونَ بالكراهةِ التحريمَ، والمُرادُ النشرة التي هي من عملِ الجاهليةِ.

قال: «**وفي البخاري عن قَتادة: قلت لابن المسيّب: رجلُ به طِب**» يعني: أنّ قتادةَ بنَ

---

(١) في «مسنده» (٣/ ٢٩٤).

(٢) برقم (٣٨٦٨).

(٣) **قتادَة**: هو ابنُ دعامةَ السدوسيُّ البصريُّ، ثقةٌ مِنْ أحفظِ التابعين، ماتَ سنةَ بضعُ عشرةَ ومائة.

أَوْ يُؤخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ؛ أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنشَّرُ؟ قَالَ: (لَا بَأْسَ بِهِ؛ إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ؛ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ) (١) **. وَرُوِيَ عَنِ الحَسَنِ؛ أَنَّه قَالَ: (لَا يَحِلُّ السِّحرَ إِلَّا سَاحِرٌ).**

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: (النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نَوعَانِ: ....

دِعامةَ سألَ شَيْخَه سعيدُ بنُ المُسِّيبِ عن رجلٌ به طبٌّ. والطِّبّ معناه: السِّحْر، يقالُ: مطبوبٌ يعني: مسحورٌ، قالوا: وهذا من بابِ التّفاؤلِ، لأنَّ الطبَّ معناهُ العلاجُ،

«**أو يؤخّذ عن امرأته**» يؤخّذ: معناه: يُمنع عن جماعِ امرأتِهِ فلا يستطيعُ جماعَها بسببِ السِّحْرِ.

«**أَيُحَلُّ عنه أو يُنشر**» يعني؛ هل يجوزُ أن يحلَّ عن هذا المطبوبِ أو هذا المُؤخَّذِ ما أصابه؟ فأجابه ابنُ المُسيّبِ رحمه الله بقوله: «**لا بأس**» لا بأسَ أَنْ يُحلَّ عنه أو يُنشَّر.

وقوله: «**إنَّما يريدون به الإصلاح**» أي: حَلُّ السِّحر يرادُ به الإصلاحُ، بخلافِ السِّحْرِ نفسِهِ فإنَّما يُرادُ به الضَّرُ.

«**فأمَّا ما ينفع فلم يُنْهَ عنه**» أي: أنَّ الشَّارعَ جاءَ بإباحةِ ما ينفَعُ وتحريمُ ما يضرُّ، والنُّشرةُ من القسم الثاني، أي: من الشيءِ النَّافعِ.

قوله: «**لَا يَحِلُّ السِّحرَ إِلَّا سَاحِرٌ**» هذا يتَّفقُ معَ الحديثِ ومع قولِ ابنِ مسعودٍ، ويختلفُ مع قولِ ابنِ المُسيّب.

قوله: «**قَالَ ابنُ القَيِّمِ: النُّشرَةُ: حَلُّ السِّحرِ عَنِ المَسحُورِ، وَهِيَ نَوعَانِ**».

---

(١) في كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر، بعد الحديث (٥٧٦٤).

حَلٌّ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ. وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ. فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَى الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ؛ فَيَبطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسحُورِ. وَالثَّانِي: النُّشرَةُ بِالرُّقيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالأَدوِيَةِ وَالدَّعَواتِ المُبَاحَةِ. فَهَذَا جَائِزٌ)(١).

جَمَعَ ابنُ القيِّم رحمه الله بينَ هذا الحديثِ وهذهِ الآثارِ في كتابِهِ: «**زاد المعاد**» فقال: «**وَهِيَ نَوعَانِ: حَلٌّ بِسِحرٍ مِثلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ. وَعَلَيهِ يُحمَلُ قَولُ الحَسَنِ**» يعني: في قولِهِ السابق: «**لا يحلّ السِّحر إلَّا ساحر**» وقصده: حَلُّ السحرِ بسِحْرٍ مثلِهِ، وهذه هي النُّشرَةُ التي سُئل عنها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.

قوله: «**فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالمُنتَشِرُ إِلَى الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ**» النّاشر هو: الذي يعملُ النُّشرَةُ. والمنتشرُ هو: الذي تُعْمَلُ له النُّشرَةُ، كلٌّ منهما -المريض والسَّاحر- يتقرَّبُ إلى الشيطانِ بما يُحبُّه، فيخضعانِ له، فيطيعانِهِ فيما يريدُهُ منهما من الشّركِ والكفرِ باللهِ عز وجل، وفعلِ المُحرَّماتِ، فيُبطِلُ الشيطانُ عملَه عن المَسْحورِ.

قال الإمامُ ابنُ القيِّمِ: «**والثاني: النُّشرَةُ بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة؛ فهذا جائز**» أي: النّوع الثّاني من النُّشرَةِ: حلُّ السحرِ بغيرِ السِّحرِ ممّا أباحَهُ اللهُ عز وجل،

النوع الأول: حلُّ السحرِ «**بالرقية**» بأن يُقرأَ على المسحورِ من كتابِ الله عز وجل، فتُقرأ عليهِ الفاتحةُ التي هي أعظمُ الرُّقى، ويُقرأُ عليه الآياتُ التي تتعلّقُ بذكرِ السحرِ وإبطالِهِ، يقرأُها الرّاقي على المسحورِ بقلبٍ حاضرٍ وتوكُّلٍ على اللهِ سبحانه وتعالى، وحسنِ ظنٍّ باللهِ، واعتقادِ أنَّ اللهَ يُشْفي هذا المريضَ. ثمَّ على المقروءِ عليهِ أَنْ يعتقِدَ هذهِ العقيدةَ؛ فيرجو الشفاءَ من اللهِ، ويثقُ باللهِ عز وجل، ويتوكَّلُ عليه، ويعتقدُ أنَّ كلامَ اللهِ جل جلاله فيه الشِّفاءُ.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٩٦).

فإذا حَصَلَ هذا التوجُّهَ إلى اللهِ والتوكُّلُ عليهِ من الرَّاقي والمَرْقي حصلَتِ النتيجةُ بلا شكٍّ ولا رَيْبٍ. وإنَّما تتخلَّفُ النتيجةُ إذا تخلَّفَ اعتقادُ الإنسانِ، أو غَفَلَ عن ذلكِ.

النوع الثاني: حلُّ السِّحرِ «**بالتعوذات**»، وهي الأدعيةُ التي وردَتْ عن النبيِّ ﷺ، فإننا نذكرُ بعضًا منها: «**أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»(١)، «**أُعِيذُكَ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ**»(٢)،

النوع الثالث: الرقية بـ«**الأدوية المباحة**» فهناكَ أدويةٌ مباحةٌ يُذهِبُ اللهُ بها السِّحرَ، يعرِفُها الحُذّاقُ وأهلُ التجربةِ وأهلُ العقيدةِ السليمةِ تنفعُ بإذنِ اللهِ في إزالةِ السحرِ، معَ ذكرِ اللهِ، ومع التَّعوّذِ، ومع الرّقيةِ، ومع قراءةِ القرآنِ.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١).

الباب الثامن والعشرون

باب ما جاء في التطيُّر

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١].

قولُ الشَّيخِ رحمه الله: «**باب ما جاء في التطيُّر**» أي: ما وردَ في التطيُّرِ من الوعيدِ، وبيانِ أنهُ شركٌ. والتطيُّرُ: هو التشاؤمُ بالأشياءِ، واعتقادُ أنه يصيبُ الإنسانَ منها شيءٌ من الشرِّ.

وأصلُهُ مأخوذٌ من الطيرِ، لأنَّهم كانوا في الجاهليةِ يتشاءمونَ بالطيورِ وفي طَيَرانها؛ إذا رأوْها تطيرُ على جهةٍ مخصوصةٍ عندَهُم تشاءموا بها، ورَجَعوا عمّا عزموا عليه من الأسفارِ أو الزيجاتِ أو غيرِها، ثم عمَّ هذا وصاروا يتطيّرونَ بكلِّ شيءٍ، فيتطيّرونَ بالبِقاعِ، ويتطيّرونَ بالآدميِّينَ، ويتطيّرونَ بالبهائمِ، ويتطيّرونَ بكلِّ شيءٍ.

فهو عقيدةٌ جاهليةٌ، بل إنه موجودٌ في الأممِ القديمةِ؛ فهؤلاءِ قومُ فرعونَ تطيَّروا يعني: تشاءموا بموسى عليه السلام وبمَنْ معه من المُسلمينَ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ الحسنةُ المرادُ بها هنا: الخصبُ والأرزاقُ ونُزولُ الأمطارِ ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ استَحْقَقْناها على اللهِ بأفعالِنا.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ المرادُ بالسيئةِ هنا: الجدْبُ وانحباسُ الأمطارِ، وشُحِّ الآبارِ، وتلفُ الثمارِ، فإنّهم يَنسبونَ هذا إلى موسى عليه السلام، ومن مَعهُ منَ المؤمنينَ فَيقولونَ هذا الذي أصابَنا بسببِهم، فَيتطيَّرونَ بخيرِ الناسِ والعياذُ باللهِ.

والحقُّ أنَّ موسى ومَنْ معهُ مِنَ المؤمنينَ همْ سببُ الخيراتِ، وهُم سَببُ البَركاتِ، لأنَّ الرُّسلَ -علَيهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ- يُصلحونَ في الأرضِ بالطاعاتِ فَتنزلِ الخيراتُ.

وَقَولُهُ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: **أَنَّ رَسُولَ الله** ﷺ **قَالَ: «لَا عَدْوَى** ....

أهلُ القريةِ الذينَ ذَكرَهم اللهُ في سورةِ «**يس**» لَمّا جاءَتْهم الرُّسلُ قالَ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ [يس: ١٣-١٨]، يعني: تَشاءمنا بكم، وما جِئتمونا بِخيرٍ، ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾ هدّدوا الرُّسل وقَالوا: ما رَأينا مِنكمْ إلَّا الشَّرَّ فردَّ عَليهمْ الرُّسلُ: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي: ما أصابكم فأنتُمْ سَببُهُ، لأنَّ سَببَهُ الذنوبُ والمعَاصي التي تصدُر مِنكم والكُفر، فأَنتمْ السَّببُ، ونحنُ سَببُ الخيرِ، نحن رُسلٌ مِنْ عِندِ اللهِ جِئناكُم، لو أطَعْتُمونا لَحَصلتُمْ على الخَيرِ.

قوله ﷺ: «**لا عَدْوَى**» المرادُ بالعَدْوى: انتِقالُ المَرضِ من شَخصٍ إلى شخصٍ، أوْ من بَهيمةٍ إلى بَهيمةٍ، أوْ مِن مكانٍ إلى مَكانٍ.

والمَرَضُ يَتعدّى من مَحلٍّ إلى مَحَلٍّ، وَيتعدَّى من المَريضِ إلى السَّليمِ، ويَتعدَّى من الجَربى إلى الصَّحيحةِ، هذا شَيءٌ موجودٌ.

والرَّسولُ ﷺ لا يَنفي هذا، وإنَّما ينفي العَدْوى التي كان يَعْتقدُها أهلُ الجاهليةِ مِنْ أنَّ المَرَضَ يتعدَّى بنفسِهِ بدونِ تقديرِ الله سبحانه وتعالى.

فقوله ﷺ: «**لا عَدْوى**» يعني: على ما كانَ يعتقِدُهُ أهلُ الجاهِليةِ، أما أنَّ العَدْوى تحصُل بإذنِ اللهِ فهذا أمرٌ واقع، ولهِذا نَهى ﷺ عن مُخالطةِ المَجذومِ، ونَهى ﷺ عنِ القُدومِ على الأرضِ المَوبوءةِ، ونَهَى من كانَ في أرضٍ فيها وباءٌ أنْ يَخرجَ منها ومن كانَ خارِجَها لا يَدخلُ فيهَا، لأنَّ هذهِ أسبابٌ لانتشارِ المَرضِ.

وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، ولَا صَفَرَ» أخرَجَاهُ[1]. **زَادَ مُسلِمٌ**[2]: **«وَلَا نَوْءَ»، «وَلَا غُولَ»**.

وقوله: «**ولا طيَرة**» هذا نَفيٌ مَعناهُ: النَّهيُ، يَعني: لا تَتَطيَّروا، وإنْ كانَ الإنسانُ يجدُ في نفسِهِ شَيئًا فلا يَمنَعُهُ ما يَجِدُ في نفسِهِ مِنَ المُضيِّ والعَزْمِ، لأنَّ إيمانَه يَسوقُهُ.

وقوله ﷺ: «**ولا هامَة**» الهامَة: طائرٌ يسمَّى البومةَ، وكان العربُ يَتشاءمونَ به إذا وَقَعَ على بيتِ أحدِهِم قال: نَعى إليَّ نَفْسي أو أَحدًا من أَهلي. كانوا يتَشاءمونَ بِها.

قوله ﷺ: «**ولا صَفَر**» هذا فيه قولانِ لأهلِ العلمِ:

القول الأول: أنَّ المرادَ بالصَّفَر: شهرُ صَفر، لأنَّهم كانوا في الجاهِليةِ يَتشاءمون بهذا الشَّهرِ، فلا يَتزوجونَ فيه، ولا يُسافرون، ولا يُتاجِرونَ، ويَعتقِدونَ أنه شَهرٌ مَشْؤومٌ.

فَرَدْ عليهمُ النبيُّ ﷺ بأنَّه لَيس هناكَ صَفرٌ مَشؤومٌ، وإنما صَفرٌ شهرٌ من أَشْهرِ اللهِ، ليسَ فيهِ شؤمٌ ولا شرٌّ.

والقول الثاني: أن المرادَ بصَفَر: مرضٌ يكونُ في المَعدةِ، يَزعمُونَ أنه يُعْدي غَيْرَ المُصابِ بِهِ. ولكنْ سَواءٌ قيلَ هذا أو هذا، كلُّه منفيٌّ سواءً تَشاءموا مِنَ الشهرَ أو تَشاءموا من المَرضِ، كلُّه لا أَصْلَ له، فَليسَ في الشَّهرِ شؤمٌ ولا في المَرضِ، وإنَّما الأمراضُ بيدِ اللهِ ﷻ.

قوله: «**زاد مسلم**» أي: في رِوايتِهِ «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ وَلَا نَوءَ وَلَا غُولَ**» فَصارتْ ستَّةَ أَشْياء.

والنُّوءُ المرادُ بِه: أَحدُ الأنـواءِ، وهـو: النَّجْمُ، لأنهم كانـوا يعتقـدون أنَّ نزول الأمطار

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

(٢) برقم (٢٢٢٠)، وزيادة: «ولا غول» عنده من حديث جابر برقم (٢٢٢٢).

وَلَهُمَا[(١)] عَن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

وهُبوبِ الرياحِ بسببِ طلوعِ النجومِ، ويُسْندون هذا إلى النُّجومِ والكَواكِب، وهذا مِنْ اعتقاد الجاهِلية، لأن نزولَ الأمطَار وحُصول الرياح وغير ذَلك إنما هو بِقضاءِ الله وقَدْرِه، أمّا هذهِ النجوم وهذه الكواكبِ فإنّها لا تُحْدِثُ شيئًا، نَعم، وقتُ طلوعِ النَّجمِ وقتٌ للمطر بإذنِ الله، أو هُبوب الرياحِ، هذا من ناحيةِ الوقتِ لا من ناحِية الخَلْق والإيجاد.

وقَوله ﷺ: «**وَلا غُولَ**» أَحدُ الغيلانِ، والغيلانُ من أعمالِ شياطينَ تَتشكَّلُ أمامَ الناسِ في الفَلواتِ، خُصوصًا إذا اسْتَوحشَ الإنسانُ تَتَشكَّلُ أمامَه أَشياءُ تُضلُّه عنِ الطريقِ، إما بِأَنْ يَرى أمامَه نارًا تتنقَّلُ، أو أصواتًا يَسمعُها، أو غيرَ ذلِك، ولهذا يقول ﷺ: «**إِذَا تَغَوَّلَتْ الْغِيلانُ فَبَادِرُوا بِالأَذَانِ**»[(٢)] بِمَعنى: أنه إذا تَغوَّلَ الغولُ أمامَك فبادِرْ إلى ذكرِ الله، فإنَّ ذكرَ الله يطردُ الشيطانُ. وكانوا في الجاهِليةِ يَعتقدونَ في هذه الغيلانِ أَنَّها تُحدِثُ لهم شرًّا، والنبيُّ ﷺ نَفَى هذا، وقال: لا أصلَ لَها، وهي أعمالٌ شَيطانِيَّةٌ لا تضرُّ أحدًا إلَّا بإذنِ الله، وذكرَ لها عِلاجًا شافيًا وهو: ذكرُ الله.

فقوله ﷺ في حديثِ أنسٍ رضي الله عنه: «**لَا عَدْوَى**» العَدْوى سَبقَ الكلامُ فيها.

وقوله ﷺ: «**وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ**» الفألُ: تَأميلُ الخيرِ. والفألُ حسنُ ظنٍّ باللهِ جل جلاله.

فإذا سَمِعَ الشَّخصُ كلمةً طيِّبةً انشرحَ صدْرُهُ، أو رَأى شَخصًا طيّبًا جاءَ إليه انْشَرحَ صدرُهُ وأمَّلَ خَيرًا، وأحسنَ الظنَّ باللهِ سبحانه وتعالى، فهذا أمرٌ طيِّب.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠٥، ٣٨١).

وَلأَبِي دَاوُدَ[(١)] **بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن عُقبَةَ بنِ عَامِرٍ، قَالَ: ذُكرت الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ». وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»، وَمَا مِنَّا إِلَّا، وَلَكِنَّ الله يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ**[(٢)] **والتِّرمِذِيُّ**[(٣)] **وَصَحَّحَهُ. وَجَعَلَ آخِرَهُ مِن قَولِ ابنِ مَسعُودٍ.**

قوله: «**فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ**» إلخ فيه ما تُعالَجُ به الطِّيَرَةُ وهو هذا الدُّعاءُ الذي ذكَرَهُ.

وفي حديث ابن مسعودٍ قال: «**الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ**» كرَّرَ هذا مَرَّتينِ أو ثَلاثًا تأكيدًا، وقد قَدَّمنا بيانَ مَعنى كونِهَا شركًا.

قوله: «**وَمَا مِنَّا إِلَّا... وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**» هذا مِنْ كلامِ ابن مسعودٍ، يقول: يَقعُ في قلوبِنا شيءٌ من الطيَرةِ، فَإذا رَأى الإنسانُ شيئًا يَكرهُهُ يقعُ في نفسِهِ شيءٌ، لأنه لا يَقْدِرُ على ردِّ هذا، وهذا لا يُؤاخَذُ عليه الإنسانُ، فكَونُهُ يَقعُ في نفسِ الإنسانِ شيءٌ إذا رَأى شَيئًا يكرَهُه، أو يخافُ شيئًا ثمَّ لا يتأثَّرُ ولا يَتصرَّفُ تصرُّفًا يخالفُ ما شرعَهُ اللهُ؛ لا يُؤاخَذُ على هذا.

«**وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ**» هذا هو العلاجُ، فالمؤمنُ يتوكَّلُ على اللهِ ولا يَضرُّهُ ما وَقَعَ في نفسِهِ، ويذهبُ بإذنِ اللهِ إذا توكَّلَ على اللهِ.

---

(١) برقم (٣٩١٩).

(٢) برقم (٣٩١٠).

(٣) برقم (١٦١٤)، وكذا أخرجه ابن ماجه (٣٥٣٨).

وَلأحمد[1] مِن حَدِيثِ ابنِ عمرو[2]: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ». قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، ولَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ[3] مِن حَدِيثِ الفَضْلِ[4] بنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

وقوله: «**مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**» فيه أن التَّطيرَ الذي يَردُّ ويمنعُ الإنسانَ عن حاجَتِهِ شركٌ.

قوله: «**لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ**» أي: لا أَحد يَجلبُ الخيرَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى.

قوله: «**وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ**» لا يُصيبكَ شَيءٌ إلَّا بإذنِ الله وقَدرِهِ ومَشيئتِهِ، وبِسببِ ذُنوبِكَ.

قوله: «**وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**» لا مَعبود بحقٍّ سِواكَ.

قوله ﷺ: «**الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ**» يعني، ما نفَّرَك مِنَ المكانِ، أو من الشَّخْصِ، أو من المرئي الذي رَأيتهُ، وفَررْتَ منه تَأثرًا بالطيَرةِ فهو شِركٌ.

«**أَوْ رَدَّكَ**» أي: عن حاجَتِكَ، كَأَنْ تُريد أن تُسافرَ ولَمَا رأيتَ الثعلبَ أو الغرابَ أو فلانًا الذي تَكْره قلتَ: هذا سَفرٌ ليسَ بحَسنٍ أو طيِّب، ورَجعتَ عنهُ وهذا هو التطيُّر، وهو شركٌ.

ثمَّ بيَّنَ ﷺ ما تُعالَجُ به الطيَرةُ، وهو ثلاثةُ أمورٍ:

الأمر الأول: -وهو الأصلُ-: التوكُّلُ على اللهِ سبحانه وتعالى، وأنه لا يأتي بالخيرِ ولا يدفعُ الشرَّ إلَّا

---

(١) في «مسنده» (٢/ ٢٢٠)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٥).

(٢) ابنُ عمرو: هو عبدُ اللهِ بنُ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما، أحدُ السابقين المُكْثِرين.

(٣) في «مسنده» (١/ ٢١٣).

(٤) **الفضلُ**: هو الفضلُ بنُ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ ابنُ عمِّ النبيِّ ﷺ.

هو ﷻ، وهو الذي يَضرُّ ويَنفع، وهو الذي يَتصرفُ في الكونِ

الأمر الثاني: أَنْ يمضيَ في حاجَتِهِ التي أرادَها، ولا يَرجعُ عنها بِسببِ الطيرةِ.

الأمر الثالث: الدُّعاءُ، بأن يَدْعوَ اللهَ بالدّعاءِ الذي أَرشَدَ إليه النَّبيُّ ﷺ، وهو أَنْ يقولَ: «**اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**».

الباب التاسع والعشرون

باب ما جاء في التنجيم

قَالَ البُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»(١): قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا ....

قال الشيخُ رحمه الله: «**باب ما جاء في التنجيم**» أي: ما وردَ من الأدلةِ على تَحريمِ ذلكَ، والنَّهي عنه. والتنجيمُ المرادُ به: اعتقادُ أنَّ للنُّجومِ تأثيرًا في الحَوادثِ وما يَجري في هذا الكونِ.

قوله: «**قال البُخَاريُّ في صَحِيحِهِ**» هذا الحديثُ يُعتبرُ من البُخاريِّ رحمه الله من التعليقِ، والتعليقُ هو: أن يَذكُر الأثرَ بِدونِ إسنادٍ.

قوله: «**قَالَ قَتَادَةُ خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ**» يعني: لثلاثِ حِكَمٍ.

الفائدة الأولى: «**زِينَةً لِلسَّمَاءِ**» كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، لأنها سُرُج تَتلألأ.

الفائدة الثانية: «**رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**» كما قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

الفائدة الثالثة: «**عَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا**» **قال تعالى:** ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النجم: ١٥-١٦]، فاللهُ جعلَ لِلمسافِرينَ علاماتٍ يَستدلُّون بها في السَّماءِ. والعلاماتُ التي في السَّماءِ هي: النُّجومُ والشَّمسُ والقمرُ، فالناسُ يَستدلُّونَ بِسيرِهِمْ في الطرقِ، ولا سِيما في البِحارِ التي لَيْسَ فيها جِبالٌ وليسَ فيها عَلاماتٌ وكذلكَ في الليلِ، يَسيرونُ على النجومِ، يَنظرونَ إلى النجومِ ويَعرفونَ بها الجِهاتِ، فَيسيرونَ إلى الجهةِ التي يُريدونَها.

---

(١) كتاب بدء الخلق: باب في النجوم، بعد الحديث (٣١٩٨).

فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ. وَلَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَيْنَةَ[(١)] فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ[(٢)] عَنهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ[(٣)] وَإِسحَاقُ[(٤)].

أَمَّا مَنْ أَرادَ أن يَزيدَ على هذهِ الأمورِ الثلاثةِ التي ذَكَرها اللهُ في كِتابِهِ فكَما قال قتادةُ: «**فمن تَأول غيرَ ذلك أَخطأ**»، لأنَّ اللهَ لم يَخلِقْها لِهذا، لأنه أَرادَ أن يُحمِّلَها شَيئًا لم تُخلَقْ مِنْ أجلِهِ.

فقوله: تأوَّلَ فيها يعني: اعتقَد فيها غيرَ ذلكَ من هذهِ الأمورِ الثلاثةِ التي دلَّ عَليها كتابُ اللهِ، فقد أخطأَ.

«**وأضاع نَصيبه**» يعني: من الدِّينِ، وهذا يَقْتضي أنه يَكفُر.

«**وتكلّف ما لا علم له به**» لأنَّ هذهِ خَرْصٌ وتَخمينٌ وحَدْسٌ وظَنٌّ لا يُغْني من الحَقِّ شَيئًا أبدًا.

وقولُهُ: «**وَكَرِهَ قَتَادةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ. وَلَمْ يُرَخِّصِ ابنُ عُيَيْنَة فِيهِ**» منازلُ القمرِ المرادُ بها: المنازلُ التي يَنْزلُها في الشَّهرِ، وهي ثَمانِيةٌ وعِشْرون مَنزلةً؛ أربعَ عشرةَ منزلةً يمانيةً، وأربعَ عشْرةَ منزلةً شامِيةً، يَنزلُ في كلِّ ليلةٍ مَنزلةً، وعَلامةُ هذهِ المنزلةِ نَجمٌ من النُّجومِ المَعروفةِ يَقطَعُها القَمرُ في شَهرٍ، بَينما تَقْطَعُها الشَّمسُ في سَنةٍ.

وهل يَجوزُ تَعلُّمُ هذهِ المَنازِلِ لِمعرفتِها من أجلِ الحسابِ. على قولين:

---

(١) **ابنُ عيينةَ**: أي: سفيانُ بنُ عيينةَ.

(٢) **حـربٌ**: أي: حربٌ الكرمانيُّ من جلةِ أصحابِ أحمدَ.

(٣) **أحمـدُ**: أي: الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ.

(٤) **إسحاقُ**: أي: إسحاقُ بنُ رَاهَوَيْه.

وَعَن أَبِي مُوسَى(١) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحمِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»(٢).

القول الأول: المَنع، وهو قولُ قتادَةَ وسُفيانَ بنَ عُيينةَ، لأنَّ هذا -وإنْ كانَ لا شيء فيه في نَفسِهِ- إلَّا أنَّه وسيلةٌ لأنْ يُعتقَدَ فيها ما لا يجوزُ، فهذا مِن سدِّ الذرائعِ، فلا يُتعلَّمُ مَنازلُ القمرِ عِندَها، لأنه رُبّما يَتَدَرّجُ إلى اعتِقَادِ أنَّها تُؤثّر في الكَونِ وأنَّها..، وأنَّها...

والقول الثاني: أنهُ لا بأْسَ بتَعلُّمِ مَنازلِ القَمرِ، وهذا ما يُسمَّى بِعلمِ التَّيسيرِ. وهو مَذهَبُ الإمامِ أحمدَ، وإسحاقُ بنُ راهويه، وقولُ كَثيرٍ من أهلِ العلمِ.

قوله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ**» هذا وَعيدٌ يُجرَى على ظاهِرهِ، ولا يُؤَوّلُ ولا يُفَسّرُ، وإن كانَ أصحابُ هذهِ الجرائمِ لا يَخرجونَ مِن الإِسْلامِ، ولكنْ هذا مِنْ باب الوعيدِ الشَّديدِ لهم.

وهم: «**مُدْمِنُ الخَمْرِ**» والمُراد بالمُدْمِن: الذي يُداوِمُ على شُربِ الخَمرِ، ولا يَتوبُ إلى اللهِ منها.

فَشربُ الخمرِ كبيرةٌ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، ومَنِ اسْتَحْلَّهُ فَقَدْ كَفَرَ، ومَنْ اعْتَقَدَ تَحْريمَه وشَرِبَه من بابِ الشَّهوةِ النَّفسانيَّةِ فقد فَعلَ كبيرةَ من كَبائِرِ الذُّنوبِ، ويُعتبرُ فاسِقًا ناقِصَ الإيمانِ.

والثاني: «وَقَاطِعُ الرَّحمِ» والرَّحمُ هي: القَرابة من جِهة الأبِ، أو من جِهة الأُم.

وصِلةُ الأرحامِ واجبةٌ في الإسْلامِ بَعدَ بِرّ الوالدينِ، وهم: الأولادُ وأولادُهم، والإخوّةُ، والأَخواتُ وأولادُهم، والأعْمامُ والعَمّاتُ وأولادُهم، والأخوالُ والخالاتُ وأَوْلادُهم، والآباءُ

---

(١) **أبي موسى**: هو أبو موسى الأشعريُّ عبدُ اللهِ بنُ قيسٍ، صحابيٌّ جليلٌ مشهورٌ، ماتَ بالكوفةِ سنة ٥٠هـ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان برقم (٥٣٤٦) و(٦١٣٧).

والأجدادُ.

فالقُربى لَها حقٌّ واجبٌ، ومن قَطَعَ هذا الحَقَّ فإِنّه يكونُ قاطِعًا للرَّحمِ، وقاطِعُ الرحمِ مُرتكبٌ لِكبيرةٍ من كبائِرِ الذُّنوبِ ومَلعونٌ في القُرآنِ،

والثالث: «**وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ**» وهذا مَحَلُّ الشاهِدِ من الحَديثِ.

فإِنْ قلتَ: الحَديثُ في مُصدِّقِ السِّحرِ، والبابُ في بابِ التَّنْجيمِ، فَما المناسبةُ؟

قُلنا: المناسبةُ أنَّ التَّنجيمَ نوعٌ من السِّحر؛ لِما يَأتي في الحديثِ: «**مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ**»(١)، فالتنجيمُ نوعٌ من السِّحرِ، فلذلِك أوردَهُ المصنِّفُ في هذا البابِ.

وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ المُصدِّقَ بالسحرِ -ومنه المصدِّقُ بالنُّجومِ- أنه لا يَدخلُ الجنَّةَ، وهذا وَعيدٌ شديدٌ، قَد لا يدخلُ الجنَّةَ لكُفْرِهِ، وقد لا يَدْخلُها لِمَعصِيتِهِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦).

الباب الثلاثون

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وَقولُ الله تَعالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

قالَ الشيخُ رحمه الله: «**باب الاسْتِسقاء بالأنواء**» أي: طَلب السُّقيا بالنُّجومِ.

قوله: «**باب ما جاء**» أي: من الوَعيدِ في الكِتابِ والسُّنَةِ، وبيانُ أنَّ ذلك كُفرٌ باللهِ تَعالى، لأنه اعتِقادٌ في غَيرِ اللهِ في أنه يَخلقُ أو يَرزقُ أو يُدبِّرُ شَيئًا من هذا الكونِ.

قال: «**وَقَولُ الله تَعالَى:** ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾» هذه الآيةُ في سِياق الآياتِ التي قبلهَا، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، والشاهدُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (رزقكم) يعني: المَطر، (أنكم تكذبون) فتقولون: مُطرنا بِنوءِ كَذا وكَذا، فَتنسِبونَ المَطَرَ إلى الأَنْواءِ.

والأَنْواء جمعُ نَوْءٍ، والنَّوْءُ عبارةٌ عن أَحدِ مَنازلِ القمرِ الثمانيةِ والعِشرينَ.

وذلكَ أنَّ العربَ تَزعمُ في الجاهِليَّةِ أنَّ المَطرَ إنَّما يَنزل بِسببِ طُلوعِ النَّجمِ، وبَعضُهم يَقولُ: المَطرُ يَحْصُلُ بِسببِ غُروبِ النَّجمِ الذي يَغرُبُ في الفَجرِ. والخلافُ بَينهم يَسيرٌ.

المُهمُّ أنَّهم يُضيفونَ نُزولَ المَطرِ إلى طُلوعِ النَّجمِ أو غُروبِهِ، يَظنُّونَ أنَّ غُروبَ النَّجمِ أو طُلوعَ النَّجمِ في الفِجرِ هو الذي يُسبِّبُ نزولَ المَطرِ، فَيقُولون: مُطرنا بِنوءِ كذا وكذا.

وقد أَكذَبَهم اللهُ فقالَ تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: المَطر ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فتَنْبسونَه إلى

وَعَن أَبِي مَالِكٍ[1] الأشعَرِيِّ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لَا يَترُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، ....

الطالِعِ أو الغارِبِ من النُّجومِ، وهذا كَذِبٌ، لأنَّ الذي يُنزِّلُ المَطرَ هو اللهُ ﷻ.

قوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ**» أي: أربعُ خِصال.

«**فِي أُمَّتِي**» يعني: أُمَّة الإجابةِ.

«**مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ**» المرادُ بالجاهليةِ: ما قَبلَ الإسْلامِ، سُمِّي جاهِليَّة من الجَهل وهو عَدمُ العِلْمِ، لِخُلوِّ هذا الوقتِ -وقت الفتْرة- من آثارِ الرِّسالاتِ السَّماويةِ، لأنَّ بينَ بِعثةِ مُحمَّدٍ ﷺ وبَيْنَ عيسى -آخرِ أَنْبياءِ بني إِسرائيلَ- أربَعْمائة سنةٍ وَزِيادَة، كانتْ قد انْدثرَتْ فيها آثارُ الرِّسالاتِ.

فقوله ﷺ: «**أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ**» دلَّ على أنه تَبقى أَشْياءُ من الجاهليةِ تَتَسرّبُ في الناسِ، وقد تكونُ في بعضِ المؤمنينَ الصّادقينَ. وقد تكثُر الجاهليةُ في بَعضِ الأشخاصِ وتعظُم، ولكنَّه لا يَخرجُ بِها من الإسلامِ ما دامَ أنه يَشْهدُ أَنْ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ولَمْ يشركْ بالله، ولم يَرتكبْ ناقِضًا من نواقِض الإسلامِ، فليسَ كلُّ من فيه جاهِليةٌ يكونُ كافرًا.

وقوله: «**مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ**» دلَّ هذا على أنه مُحرَّمٌ، لأنَّ الرسولَ ﷺ ذكر هذا من باب الذَمِّ والتَّحذيرِ منه. وهذه الأربَعُ التي ذَكَرها النبيُّ ﷺ هي:

الأولى: «**الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ**» والمراد بالحسَب: شَرفُ الإنسانِ ومَكانتُه في المُجْتمعِ، فلا يفخَرُ بِحَسبه.

---

(١) **أبو مالكٍ**: اسمُهُ الحارثُ بنُ الحارثِ الشاميُّ، صحابيٌّ.

وَالطَعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ»(١). وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوتِهَا؛

الثانية من أمورِ الجاهليةِ: «**وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ**» بأن يَتَنَقَّصَ أنسابَ الناسِ، لأنه يُعظِّمُ نفسَهُ، ولأنه يَنتقّصُ الآخرينَ وكِلاهما مَذْمومٌ.

الثالثة: «**وَالاسِتِسْقَاءُ بِالأَنْوَاءِ**» وهذا محلُّ الشاهدِ من الحديثِ. والاستِسْقاءُ: أصله: طَلَبُ السُّقيا. والاستسقاءُ بالنُّجومِ هنا ليسَ مَعناه: أنَّهم يَطْلبونَ من النُّجومِ أن تُسقِيَهم، لكنَّ معناه: أنَّهم يَنْسِبونَ المَطرَ إلى النُّجومِ، فَيقولونَ: مُطِرْنا بنوءِ كذا وكذا.

وكما فَصَّل العُلماءُ: إنْ كانَ يعتقِدُ أنَّ النُّجومَ هي التي أَنْزلتِ المَطر وأَثَّرَتْ؛ فهذا كُفرٌ مُخرِجٌ من المِلَّةِ. وإنْ كانَ يَعتقدُ أن المُنزِّلَ للمطرِ هو اللهُ، وأنَّ النُّجومَ إنَّما هِي أسبابٌ وأضافَ ذلك إليها من بابِ التَّساهلِ في التعبيرِ؛ فهذا يُعتبرُ شِركًا وكُفرًا أصغَرَ ولا يُخرِجُ من المِلَّةِ. ولكنه مُحَرَّمٌ شديدُ التَّحريمِ، لأنه وَسيلةٌ إلى الشِّركِ الأكبرِ،

قالَ العُلماءُ: أمّا لَو قالَ: سُقيْنا في نوءِ كذَا، فأَتى بـ(في)، فَلا بَأس بِذلكَ، لأنَّ هذَا لَيس فيه نِسبةُ المَطرِ إلى النَّجمِ، وإنَّما يقولُ: سُقينا في هذا الوَقتِ، سُقينا في نوءِ كذا أي: في وَقتِ كذا.

الرابعة: قوله ﷺ: «**والنِّيَاحَةُ عَلَى المُيِّتِ**» والنياحةُ: رَفعُ الصَّوتِ على الميِّت من باب الجزَعِ والتسخُّطِ. والنياحَةُ دليلٌ على عَدمِ الرِّضى بقضاءِ اللهِ وقَدْرِهِ، وهي من أمورِ الجاهليةِ.

قوله: «**وَقَالَ: النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ**» يعني: تَرجِعُ عن النِّياحةِ، وَتَنْدمُ على ما حصَلَ منها، وتَعزمُ على أَنْ لا تَعودَ إلى النياحَةِ في مُستقبَلِها.

وفي قوله ﷺ: «**قَبْلَ مَوتِهَا**» دَليلٌ على أنه عِنْدَ الموتِ لا تُقبلُ التوبةُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1].

وَلَهُمَا[2] **عَن زيدِ بنِ خَالِدٍ**[3] رضي الله عنه **قالَ: صَلَى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ،** ....

قوله: «**تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يعني: من قَبرِها.

«**وَعَلَيْهَا سِرْبالٌ**» السِّربالُ هو: الثَّوبُ.

«**مِنْ قَطِرَانٍ**» هو النُّحاسُ المُذابُ.

«**وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**» الدِّرعُ كذلكَ هو: الثَّوبُ، والجَرَبُ: مَرضٌ جِلديٌّ، يَكونُ في الإبلِ وَيكونُ في الإنسانِ.

قوله: «**قالَ: صَلَى لَنَا**» المراد: صلَّى بِنا.

«**رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ**» يعني: صلاةَ الفجرِ.

«**بِالْحُدَيْبِيَةِ**» اسمُ مكانٍ على حدودِ الحَرمِ من جهةِ الغَرب، قريبٌ مِن التَّنعيمِ، يُقالُ له الآنَ (**الشميسي**)، وهو عندَ مدخَلِ الحرمِ للقادِمِ من جدَّةَ.

«**فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ**» لأنَّ هذا من السُّنةِ؛ أنَّ الإمامَ إذا فَرغَ من الصَّلاةِ فإنه لا يَبقى مُسْتقبلَ القِبلةِ، بل يَنْصرفُ إلى النَّاسِ ويُقبِلُ عَليهم بِوجهِهِ كما كانَ النبيُّ ﷺ يفعلُ ذلكَ.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٣) **زيد بنِ خالدٍ**: هو الجهنيُّ المدنيُّ صحابيٌّ مشهورٌ.

فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالَوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ».

«**فقَالَ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال**» أي: الرَّسول ﷺ «**قال**» أي: الله.

«**أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي**» يَعني: بِسببِ نُزولِ المَطرِ.

«**مُؤمِنٌ بِي**» بسببِ هذهِ النِّعمةِ، «**وَكَافِرٌ**» بِسببِها.

دلَّ على أنَّ حُصولَ النِّعمِ ابتلاءٌ من اللهِ سُبحانه، يَبْتلي به عبادَه، فمِنهم من يَشكرُ اللهَ فيكونُ مُؤمنًا، ومِنهم مَنْ يُنكرُ نِعمةَ اللهِ فيكونُ كافرًا بِنعمِهِ.

ثم بيَّنَ ﷺ سَببَ ذلك فَقال فيما يَرويه عن ربِّه تَبارك وتَعالى: «**فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ**» يعني: نَسبَ النعمةَ إلى اللهِ ﷻ.

«**فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ**» لأنه لَم يَنسِبْ نُزولَ المطرِ إلى طُلوعِ الكواكب أو غُروبِها، وهو ما يُسمَّى بالنَّوءِ.

«**وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوكَبِ**»

وهذا كُفرٌ، لأنَّهم نَسبوا النِّعمةَ إلى المَخلوقِ، وهذا شركٌ باللهِ ﷻ؛ شِركٌ في الرُّبوبيةِ، وكلُّ مشركٍ كافرٌ.

وَلَهُمَا(١) **مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ بِمَعنَاه، وَفِيهِ: قَالَ بَعضُهُم: لَقَد صَدَّقَ نَوءُ كَذَا وَكَذَا. فأَنزَلَ الله هَذِهِ الآياتِ:** ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ ....

قوله: «**مِن حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ بِمَعنَاه... إلخ**» هذا مِثلُ الحَديثِ الذي قَبْلَهُ؛ لَمَّا نَزَلَ عليهم المَطرُ قالوا: «**صَدَّقَ نَوءُ كَذَا وَكَذَا**» زَعموا أنَّ طلوعَ النَّجْمِ هو الذي حَصَل به المَطر، فهم نَسبوا نُزولَ المَطرِ إلى النَّوءِ، فَصدَّقوهُ، فأَنزلَ اللهُ تَعالى مُنكرًا عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ﴾ لا هذه نافِية، أي: لَيس الأمرُ كَما زَعمْتُم أنَّ نُزولَ المَطرِ بِسببِ صِدقِ النوءِ الفُلانيِّ، وإنَّما المَطرُ بِفضلِ الله.

ثم أقسمَ ﷻ على هذا النَّفي. والمَشهورُ -كما اخْتارَهُ ابنُ جرير-: أنَّ المرادَ بالنجومِ هنا: الكَواكِب، لأنَّ في طُلوعِها وغُروبِها آيةٌ عَظيمةٌ مِن آياتِ الله ﷻ لِمَنْ يتدبَّرُ ويتفكَّرُ.

واللهُ ﷻ يُقْسمُ بِما شاءَ مِنْ خَلقِهِ، أمَّا المَخلوقُ فلا يُقسِمُ إلَّا بالله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ هذا تَنبيهٌ على عِظَمِ هذا القَسَمِ.

ثم ذكرَ سُبحانَه المُقسَمَ عَليه وهو القُرآنُ فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ مِن الكرمِ وهو الشَّرفُ والرِّفعةُ، فَهو كَريمٌ في مَنْزِلتِهِ، عَظيمٌ في مَعناهُ، جَليلٌ في قدْرِهِ، لأنَّهُ كَلامُ الله ﷻ، فهو أعظمُ الكلامِ.

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ يعني: مَحفوظ، والمَشْهور: أنَّ المرادَ بالكتابِ المَكنونِ هنا: اللَّوحُ المَحفوظُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣) دون البخاري.

لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢].

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ يعني: الملائكة، وهذا فيه ردٌّ على المُشركينَ الذين يَزعمونَ أن القُرآنَ ممَّا تنزَّلَتْ به الشَّياطينُ، وأنهُ من كلامِ الشَّياطينِ.

﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾ نَزَلَ بهِ جبريلُ ﷺ إلى نَبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، وبلَّغَهُ مُحمَّدٌ ﷺ لأمَّتِهِ،

ثمَّ قالَ: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ٨١﴾ يعني: تُكذِّبونَ به، وتَقولون: هذا من كلامِ مُحمَّدٍ، أو مِنْ كلامِ فُلان، أو ممَّا تنزَّلَتْ بهِ الشَّياطينُ التي تَتنزَّلُ على الكُهَّانِ،

﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ معناه: أنَّكم تَنْسبونَ الأمْطارَ إلى الأنْواءِ، سمَّى اللهُ ذلكَ كَذبًا وباطِلاً لأنَّ الأمطارَ ليستْ مِن الأنواءِ وإنَّما الأمطارُ من اللهِ ﷻ هو الذي يُنزِّلُها ويُقدِّرُها ويَجعلُ فيها البَركةَ والنَّماءَ، فَهو الذي ينزِّلُها سُبحانه.

الباب الواحد والثلاثون

باب قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

....

أراد الشيخُ رحمه الله، بهذا البابِ أن يُبيِّنَ أن المَحبةَ نوعٌ من أنواعِ العبادةِ، وأنَّ من أَحبَّ مَعَ اللهِ غَيرَه فقد أَشركَ بِالله الشِّركَ الأكبرَ المُخرِجَ من المِلةِ، كَما كانَ عليه المُشرِكونَ الذينَ قالَ اللهُ فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والمحبةُ -كما ذكر العلماءُ- تَنقسمُ إلى نوعين:

النوع الأول: مَحبةُ العُبوديةِ، وهذه يَجِبُ أَنْ تكونَ خالِصةً للهِ عز وجل، ومَحبةُ العُبوديةِ هي التي يَكونُ مَعها ذُلٌّ للمَحبوبِ. وهذه لا يَجوزُ صَرْفُها لِغيرِ اللهِ،

ويَقول العلماءُ في تَعريفِ العبادةِ هي: غايَةُ الذُّلِ مع غايَةِ الحُبِّ.

فالعبادةُ تَتَركّزُ على ثَلاثةِ أَشياءٍ: على المَحبةِ، وعَلى الخَوفِ، وعلى الرَّجاءِ. فالمَحبةُ والخَوفُ والرجاءُ هي رَكائزُ العِبادةِ وأَساسُها، فإذا اجْتمعت تَحقَّقتِ العبادَةُ ونَفَعَتْ كالصَّلاةِ والحَجِّ وسائرِ العِبادةِ، أما إذا اخْتلَّتْ هذهِ الثَّلاثةُ فَإنَّ الإنسانَ وإِن صامَ وإِنْ صلَّى وإن حَجَّ فإنها لا تَكونُ عِبادتُهُ صَحيحةً.

النوع الثاني: مَحبةٌ لَيست محبةَ عُبوديةٍ وهي أَربعةُ أَقسامٍ:

القسم الأول: مَحبةٌ طَبيعيةٌ كَمحبةِ الإنسانِ للطعامِ والشرابِ والمُشتهياتِ المباحَةِ؛ .

القسم الثاني: مَحبةُ إجلالٍ، كَمحبةِ الوَلدِ لِوالِدِ غَيرِ المُشركِ والكافِرِ، فالوَلدُ يُحِبُّ والِدَهُ مَحبةَ إجلالٍ وتَكريمٍ واحترامٍ لأنَّه والدُهُ المُحسنُ إليه والمُربِّي له. وهذهِ مَحمودةٌ ومأمورٌ بها.

وَقَولُهُ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

القسم الثالث: محبةُ إِشفاقٍ، كَمحبةِ الوالِدِ لِوالِدِهِ، فالوالدُ يُحِبُّ وَلدَهُ محبةَ إِشفاقٍ.

القسم الرابع: محبةُ مُصاحبةٍ، كَأَنْ تُحبَّ شَخْصًا مِن أجلِ مُصاحَبتِكَ له، إما لِكونِهِ زَميلًا لك في العَملِ، أو شَريكًا في تجارةٍ، أو صاحِبًا لك في سَفرٍ،

هذهِ الأقسامُ لَيستْ مِن أنواعِ العِبادةِ، لأَنَّها لَيس مَعها ذُلٌّ، ولَيس مَعها خُضوعٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: المُشْركين، ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله، ﴿أَندَادٗا﴾ النّد هو: الشَّبيهُ والنَّظيرُ والعَديلُ، سُمُّوا أندادًا لأنَّهم ساووهُم باللهِ،

﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ أَشْركوهُم مَع اللهِ في محبةِ العُبوديةِ، فَعَبدوا الأصنامَ والأوثانَ لأنَّهم يُحِبُّونَها محبةَ ذُلٍّ وانْقيادٍ وخُضوعٍ وطاعَةٍ فأَشْركوا في أَعظَمِ أنواعِ العِبادةِ، وَهو المَحبةُ.

فالمُشْركونَ يُحِبُّونَ اللهَ لأنَّهم يَعْترفونَ بِربوبيتِهِ وخَلْقِهِ لَهم، لكنَّهم لَم يُخْلصوا محبَّتَهم، بَل أَشركوا مَعهُ آلهةً أُخرى يُحِبونها مَع اللهِ محبَّةَ عُبوديةٍ وخُضوعٍ وذلٍّ وتَقرُّبٍ إليها بِالعِبادة.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ الذينَ أَخلصوا المَحبَّةَ للهِ وهم المُؤمنونَ، هؤلاءِ أَشدُّ حبًّا للهِ من محبةِ المشركينَ للهِ، لأنَّ محبةَ المُؤمنينَ خالِصةٌ ومحبةَ المُشْركين مُشتركةٌ.

قولهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

هذه الآيةُ فيها: أَنَّ مَن قدَّمَ محبةَ هذهِ الأشياءِ عَلى محبةِ اللهِ فإنه مُتوعَّدٌ بهذا الوَعيدِ

عَن أَنسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أَخرَجَاهُ[1].

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي: انْتَظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ حتى يأتِيكُمُ اللهُ بالعُقوبةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ سَمَّاهُم فاسِقينَ، والفِسقُ هو: الخُروجُ عن طاعةِ الله ﷻ، ومَعنى ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني: لا يُوفِّقُهُم لِلإيمانِ.

فالهدايةُ المَنْفيةُ هنا: هِدايةُ التَّوفيقِ، أَمَّا هِدايةُ البَيانِ والإرشادِ فهذه مُوجودَةٌ، فاللهُ هدى كلَّ الناسِ، بمعنى: أنه بيَّنَ لهم طَريقَ الخيرِ من طريقِ الشَّرِّ.

أمَّا هِدايةُ التوفيقِ والإيمانِ فهي خاصةٌ بالمؤمنينَ.

فَقوله في هذهِ الأشياءِ إذا كانَتْ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ﴿أَحَبَّ﴾ يَدلُّ على أنَّ مَحبَّةَ هذهِ الأشْياءِ في الأصلِ لا حَرَج فيها، فالإنسانُ يُحِبُّ والدَهُ، ويُحب وَلدَهُ، ويُحب أخاهُ، ويُحبُّ قَبيلتَه، ولكنْ إنَّما يَأتي اللَّومُ إذا قَدَّمَ محبةَ هذهِ الأشياءِ على محبةِ الله فأَخَّرَتْهُ هذهِ الأشياءُ عَن طاعةِ الله ورَسولِهِ ﷺ، وعن الهجرةِ إلى الله ورسولِهِ ﷺ.

قوله: «**وعَن أَنسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» وذلك أنه بَعدَ محبةِ الله تَأتي مَحبةُ الرسولِ ﷺ، فالأوْلى: محبةُ الله ﷻ، وهي مَحبةُ عبادَهِ، وهي الأَصْلُ والقاعِدةُ. أمَّا مَحبَّةُ الرَّسولِ ﷺ فهيَ تابعةٌ لمحبةِ الله ﷻ، تأتي بعدَ محبةِ الله، وكذا مَحبة كلِّ ما يُحبُّه الله مِن الأشخاصِ والأعمالِ وهذهِ مَحبةٌ في الله ولله فالمَحبةُ المَشروعَةُ محبةُ الله والمَحبةُ في الله، والمَحبةُ الممنوعةُ هي المَحبةُ مَعَ الله. وتَقديمُ ما تُحبُّه

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

وَلَهُمَا[1] عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ....

النَّفسُ على ما يُحبُّه اللهُ.

وقوله: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ**» لَيس نَفيًا لأصلِ الإيمانِ، وإنَّما هو نَفيٌ لِكمالِ الإيمانِ.

وهذا يَقتضي أنَّ الإنسانَ يقدِّمُ طاعةَ الرسولِ ﷺ على طاعةِ غيرِه: فإذا أَمرك الرَّسول ﷺ بِأمرٍ وَأمرَكَ والدُك أو ولَدُك أو أحدٌ من النَّاسِ بأمرٍ يُخالِفُ أَمرَ الرسولِ ﷺ فإنه يَجبُ عَليك مَعصيةُ هذا الآمرِ وطاعةُ الرسولِ ﷺ، وهذا هو الدَّليلُ على محبةِ الرسولِ ﷺ،

ومن علاماتِ مَحبةِ الرسولِ ﷺ تَركُ ما لم يُشرِّعْهُ الرسولُ ﷺ من البدعِ والمُحدثاتِ.

قوله: «**قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ثَلاثٌ**» أي: ثلاثُ خصالٍ.

«**مَنْ كُنَّ فِيهِ**» اجتَمَعْنَ فيه، وَوُجِدْنَ فيه.

«**وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ**» هذا من ثمراتِ محبةِ اللهِ ورسولِهِ.

و«**حَلَاوَةَ الإِيمَانِ**» أي: لَذَّته، لأنَّ الإيمانَ الصادقَ له لذّةٌ في النُّفوسِ، وله طُمَأْنينةٌ في القلوبِ.

الخصلةُ الأولى: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا**» أي: أحبَّ إليه من نَفسِهِ، وأحبَّ إليه من كلِّ شَيءٍ، ومن الوالِدينِ والأَوْلادِ والأقاربِ والأصدقاءِ وسائِرِ النَّاسِ. وهذا يقتَضي تَقديمَ قَولِهِما على قَولِ كلِّ أحدٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعدَ إِذْ أَنقَذَهُ اللهُ مِنهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ». وَفِي رِوَايَةٍ(١): «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى...» إِلَى آخِرِهِ.

الخصلةُ الثانية: «**وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**» أي: يُحِب الإنسانَ من بني آدمَ «**لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ**» لا يُحبُّه من أجلِ طَمعِ دُنيا، وإنَّما يُحبُّه للهِ لأنه مُطيعٌ للهِ، لأنه مُؤمنٌ، لأنه تَقيٌّ. أما الذي يُحِبُّ الشَّخصَ من أجلِ الدُّنيا، فهذه مَحبةٌ لا تَنْفعُهُ عِندَ اللهِ شَيئًا.

وهذا فيه فضلُ المَحبةِ في اللهِ بَين المُؤْمنينَ، والمَحبةُ في اللهِ أَوثقُ عُرى الإيمانِ ومِن السبعَة الذين يُظلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلّ إلَّا ظِلُّه: «**رَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفرَّقا عَلَيْهِ**»(٢).

الخِصلة الثالِثة: التي يَجدُ بهنَّ العبدُ حَلاوةَ الإيمانِ: «**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعدَ إِذْ أَنقَذَهُ اللهُ مِنهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**» كلُّ الناسِ يَنْفرونَ من النارِ -والعياذُ باللهِ- لأنها مُؤلمةٌ، ولا أَحدَ يَصبرُ على حَرِّها، فكلٌّ يَفرُّ من النَّارِ وَيَبْتعدُ عَنها، والكفرُ نارٌ، والمُسلِمُ مَنَّ اللهُ عليهِ بالإسلامِ يَكرَهُ أن يَعودَ إلى الكُفرِ، ويَكرهُ الرِّدّةَ عن دينِ الإسلامِ، كما يَكْرهُ أن يُلقى في النّارِ، هذا هو المُؤمنَ حَقًّا، الذي تمكَّنَ الإيمانُ من قلبِهِ فلا يساوِمُ عليه، ولا يتنازلُ عن شيءٍ منه أبدًا مهما كلَّفَهُ الأمرُ. فهذا الحديثُ ميزانٌ يزنُ العبدُ به إيمانَهُ.

قوله: وفي روايةٍ: «**لا يجدُ أحدٌ طعمَ الإيمان**» هذه الروايةُ في «**صحيح البخاريِّ**» وفائدتُها: أنها نَفَتْ بمنظومِها وجودَ طعمِ الإيمانِ عمَّنْ لم يتّصِفْ بهذِهِ الصفاتِ الثلاثِ: «**أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعدَ إِذْ أَنقَذَهُ اللهُ مِنهُ**»، أَمَّا الروايةُ الأولى فهي دلَّتْ بالمفهومِ -مفهوم المُخالفةِ- على أنَّ مَنْ لم تكُنْ فيه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: مَنْ أَحَبَّ فِي الله، وَأَبْغَضَ فِي الله وَوَالَى فِي الله، وَعَادَى فِي الله، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ الله بِذَلِكَ. وَلَن يَجِدَ عَبدٌ طَعمَ الإيمانِ وَإِن كَثُرَت صَلَاتُهُ وَصَومُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. وَقَد صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمرِ الدُّنيَا، وَذَلِكَ لَا يُجدِي عَلَى أَهلِهِ شَيئًا. رَوَاهُ ابنُ جَرِيرٍ(١).

هذهِ الخصالُ فإنه لا يجدُ طَعْمَ الإيمانِ، وإنْ كانَ فيه إيمانٌ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قَالَ: مَنْ أَحَبَّ فِي الله**» يعني: من أجلِ الله، فأحبَّ المؤمنينَ لأنهم أولياءُ الله، لا يحبُّهُم من أجلِ طمعِ دنيا أو رغبةٍ عاجلةٍ.

«**وَأَبْغَضَ فِي الله**» أَبْغَض الكفّارَ والمنافقينَ والعُصاةَ من أجلِ الله لا من أجلِ أنهم ضربوهُ أو أنهم حرموهُ من شيءٍ، أو أنهم تعدُّوا عليهِ، أو ظلموهُ،

«**وَوَالَى فِي الله**» **أي**: أحبَّ وناصَرَ. فالمُوالاةُ: المحبةُ والمُناصرةُ والمُعاونَةُ.

«**وَعَادَى فِي الله**» أي: أبغضَ الكفارَ والمنافقينَ والفاسقينَ من أجلِ الله، لأنَّ اللهَ يَبْغضُهم.

«**فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ الله**» ولايةُ الله محبَّتُهُ ونُصْرتُهُ.

فقوله: «**فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ الله بِذَلِكَ**» أي لا يحصُلُ الإنسانُ على محبَّةِ الله ونُصرتِهِ إلَّا بهذهِ الأمورِ: المَحبَّة في الله، والبُغْض في الله، والمُوالاة في الله، والمُعاداة في الله.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، **قَالَ: المَوَدَّةُ**[١].

قالَ رَحِمَهُ اللهُ: «**وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦]، **قَالَ: المَوَدَّةُ**» هذهِ نهايةُ مَنْ عبدَ غيرَ اللهِ يومَ القيامةِ، فعَبَدَةُ غيرِ اللهِ في الدُّنيا يحبُّونَ ما عبدوهُ وكذلكَ التابعونَ في الدُّنيا يحبُّونَ المتبوعينَ على الضلالةِ، فتوجدُ المحبةُ بين الكفارِ بعضِهم مَعَ بعضٍ، وبَيْنَ المشركينَ ومعبوداتِهِم في الدُّنيا، لكِنْ يومَ القيامةِ تنعكس الأمورُ، وتصيرُ هذهِ المحبةُ عداوةً كما قالَ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلا يبقى إلَّا المحبةُ التي كانَت في اللهِ وللهِ هي التي تبقى يومَ القيامةِ: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

فهذا البابُ بابٌ عظيمٌ، يجِبُ على المسلمِ أن يَزِن نفسَهُ به، ولهذا يُسمَّى ببابِ الامتحانِ، فكلٌّ يدَّعي الإيمانَ وكلٌّ يَدَّعي الإسلامَ، وكلٌّ يدَّعي الزهدَ والورعَ ولكن الميزانَ ما ذُكِرَ في هذا الباب.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ٧١).

الباب الثاني والثلاثون

باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

....

هذا البابُ عَقَدهُ الشيخُ ﵀ في موضوعِ الخوفِ.

والخوفُ من اللهِ هو أحدُ ركائزِ العبادةِ، كما سَبَقَ أنَّ المحبةَ والخَوفَ والرَّجاءَ أعظمُ أنواعِ العبادةِ، وهي أعمالٌ قلبيةٌ، فلمَّا ذكرَ المحبةَ في البابِ السابقِ ذكرَ في هذا البابِ الخوفَ؛ ليدُلَّ على أنَّ المحبةَ لا تكفي وحدَها، لأنَّ التعبُّدَ بالمحبةِ وحدَها منهجُ الصوفيةِ الضُلَّالِ، أمَّا منهجُ الرُّسلِ وأتباعُهم فإنه ينبني على المحبَّةِ والخوفِ والرجاءِ،

والخوف ثلاثة أنواعٍ:

النوع الأول: خَوْف السرِّ وهو الخوفُ الذي يكونُ معهُ عبادةٌ لغيرِ الله أَوْ تَرْكٌ لِمَا أَوْجبَ اللهُ. ومعناه: أَنْ يخافَ الإنسانُ مِنْ غيرِ الله من الأصنامِ والأوثانِ وما عُبِدَ من دونِ الله، من القبورِ والأضرحةِ، أو يخافَ الشياطينَ والجنَّ، ويتقرّبَ إليهم بما يحبونَ من الشركِ باللهِ من أجلِ أنْ يسلمَ من شرِّهم، فهذا شركٌ أكبرُ يُخرجُ مِن المِلّةِ.

النوع الثاني: الخوفِ المذمومِ: أَنْ يترُكَ الإنسانُ ما أوجَبَ اللهُ عليهِ من الدعوةِ إلى اللهِ والأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ خوفًا من النَّاسِ أَنْ يُؤذوهُ أو يُضايقوهُ أو يُعذِّبوهُ فيترُكَ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكرِ والدعوةَ إلى اللهِ وبيانَ الحَقِّ خوفًا من النَّاسِ، فهذا شركٌ أصغرُ، وهو محرّمٌ، وقَدْ جاءَ في الحديثِ: «**أَنَّ اللهَ يُحَاسِبُ العَبْدَ يَوْمَ القِيَامةِ: لِمَ لَمْ تَأمُرْ بِالمَعْرُوفِ**

وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: إِيَّايَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَى»(١). ونعني بذلكَ: القادرَ على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ والقادرِ على الدعوةِ إلى الله.

النوع الثالث: الخوف الطبيعي، الذي ليسَ معه عبادةٌ للمَخوفِ ولا تركٌ لواجبٍ. كأَنْ يخافَ الإنسانُ من العدوِّ، أو من السَّبُعِ، فهذا الخوفُ خوفٌ طبيعيٌّ لا يُلامُ عليه الإنسانُ لأنه ليسَ عبادةٌ وليسَ تركًا لواجبٍ، ولا يُؤاخَذ عليه الإنسانُ.

ثمَّ أوردَ الشيخُ قولَهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوِّفُكم بأوليائِهِ من الكُفارِ، فالشيطانُ هو الذي خطَّ هذهِ الخطَّةَ من أجلِ أن يخوِّفَكُم بأوليائِهِ، يعني: المشركينَ.

ثمَّ قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، لا تخافوا من الكفَّارِ بل توكَّلوا على اللهِ، وخافوا من اللهِ، وفي الأثرِ: «**من خاف الله خافه كلُّ شيء، ومن خاف غير الله أخافه من كلِّ شيء**»(٢).

وليس معنى ذلك: أنَّ المسلمينَ لا يخافونَ من شرِّ الكفّارِ ويتركونَ الأخذَ بالأسبابِ الواقيةِ، بل عليهم أَنْ يستعدُّوا بالسلاحِ والقوّةِ والعُدّةِ التي يُرهبونَ بها عدوَّ اللهِ وعدوَّهُم.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٨).

(٢) انظر: «شعب الإيمان» (٧٢٤١)، و«حلية الأولياء» (٣/ ٢٠٨)، و«العلل المتناهية» (٢/ ٨١٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا محلُّ الشَّاهِدِ من الآيةِ للبابِ، أي: لم يَخْشَ من غيرِ اللهِ، لا من المعبوداتِ، ولا من سائرِ المخلوقاتِ، وإنَّما الخشيةُ حقٌّ للهِ ﷻ لا يجوزُ أن يُشركَ معهُ فيها غيرُهُ، وهي عملٌ قلبيٌّ -من العباداتِ القلبيةِ-.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين اتَّصفوا بهذِهِ الصفاتِ: الإيمانُ باللهِ واليومِ الآخرِ، وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، والخشيةِ من اللهِ وحدَه، ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ عسى حرف ترجٍّ، ولكنها من اللهِ واجبةٌ، لأنها وعدٌ من اللهِ ﷻ، واللهُ لا يخلِفُ وعدَه،

﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ المهتدين إلى الحقِّ، أما مَنْ لم يتّصِفْ بهذِهِ الصفاتِ فَليسَ من المهتدينَ، بل هو من الضالِّينَ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: نالَه أذى بسببِ إيمانِهِ باللهِ.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أذاهم.

﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: مُساوِية لعذابِ اللهِ، مع الفرقِ العظيمِ، لأنَّ فتنةَ النَّاسِ زائلةٌ ومنتهيةٌ وخفيفةٌ، بخلافِ عذابِ اللهِ -والعياذُ باللهِ- فإنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ وباقٍ ومُستمِرٌّ.

ومعنى هذا: أنه يُطاوِعُ الكفارَ، فينسلخُ من دينِهِ، لأنه ليسَ له دينٌ أصلًا وإنَّما تظاهَرَ به، فإذا جاءَتِ المحنُ انكشفَ وتبيَّنَ أنه ليسَ في قلبِهِ إيمانٌ، أو كانَ في قلبِهِ إيمانٌ ضعيفٌ، ثمَّ زالَ.

والشَّاهدُ من الآيةِ: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنَّهُ يخْشى النَّاسَ ولا يَخْشى

عَن أَبِي سَعِيدٍ ﵁ مَرفُوعًا: إِنَّ مِن ضَعفِ اليَقِينِ: أَن تُرضِي النَّاسَ بِسَخطِ الله، وَأَن تَحمَدَهُم عَلَى رِزقِ الله وَأَن تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَم يُؤتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزقَ الله لَا يَجُرُّه حِرصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ»(١).

اللهَ ﷻ، فهذا هو موضعُ اللَّوْمِ.

قال: «**إنَّ مِن ضَعفِ**» الضَّعف ضدّ القوة. «**اليَقِين**» واليقينُ هو أعلى درجاتِ العلمِ.

«**أَن تُرضِي النَّاسَ بِسَخطِ الله**» فمَنْ أرضى الناسَ بما يُسخطُ اللهَ إذا طلبوا منه ذلك من المخالفاتِ والمعاصي، فهذا من ضعفِ اليقينِ، لأنه لو كانَ يقينُهُ قويًّا لكانَ العكسُ، فكان يُرضي اللهَ ﷻ بسخطِ الناس.

«**وَأَن تَحمَدَهُم عَلَى رِزقِ الله**» أي: ومن ضعفِ اليقينِ: أن تَحْمَدَ الناسَ على رزقِ الله، إذا جاءَكَ رزقٌ وجاءَكَ خيرٌ تنسِبُ هذا إلى النَّاسِ وتَحمَدَهم عليه، مع أنَّ الرزقَ من الله ﷻ، فالواجبُ: أَنْ تحمدُ اللهَ ﷻ لأنه هو الرزَّاقُ، وإذا كانَ لأحدٍ من النَّاسِ تَسبُّبٌ في هذا الرزقِ، فإنَّ هذا المُتَسبِّب يُشكَرُ على قدْرِ ما فَعَل، لا أن يُنسبَ الرزقُ إليه، وإنما يُشكَرُ على قدرِ سَعْيِهِ وعلى ما بذلُ من السببِ فقَطْ، مع الاعترافِ أنَّ الرزقَ من اللهِ.

«**وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله**» يعني: إذا سعيتَ تطلبُ شيئًا محبوبًا من أمورِ الدُّنيا ولم يحصُلْ لك فلا تذمَّ النَّاسَ، لأنَّ هذا بيدِ الله، لو شاءَ اللهُ لحصَلَ لك، والنَّاسُ ليسَ بِيدهم شيءٌ.

ثُمَّ قال: «**إن رزق الله لا يَجُرُّه حرص حريص، ولا يَرُدُّه كراهية كاره**» مهما حرِصَ الإنسانُ وحرصَتِ الواسطة التي عمَدَها، فالحرصُ لا يجلِبُ لك المطلوبَ إذا لم يقدِّرْه اللهُ ﷻ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٠٦، و١٠/ ٤١)، والبيهقي في «الشعب» (٢٠٧)، وأخرجه البيهقي (٢٠٨) من حديث ابن مسعود.

وَعَن عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللهُ عَنهُ وأَرضَى عَنهُ النَّاسَ، وَمَن التَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ الله، سَخِطَ اللهُ عَلَيهِ وَأَسخَطَ عَلَيهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ»(١).

«**ولا يَرُدُّه كراهية كاره**» لو أرادَ اللهُ لك شيئًا فلو اجتمعَ أهلُ الأرضِ أَنْ يمنعوهُ لم يستطيعوا إذًا علَّقْ قلبَك باللهِ ﷻ وأحسنِ المعاملةَ معَ اللهِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وهذا هو حقيقةُ التوحيدِ؛ أن يكونَ العبدُ معتمدًا على اللهِ ومتوكِّلًا على الله، ويعتقدُ أنَّ النَّاس مجرَّدُ أسبابٍ، والأسبابُ إِنْ شاءَ اللهُ نفعتْ وإنْ شاءَ لم تَنْفع، فلا يُجْعَلُ الحمدُ والذمُّ للنَّاسِ، وإنما يُجْعَل الحمدُ للهِ ﷻ، وإذا لم يحصُلْ له مطلوبُهُ فليصبِرْ وليعلَمْ أن ما قُدِّر له لا بدَّ أن يكونَ فَلْيحمدِ اللهَ أيضًا.

وهذا الحديثُ فيه: أنَّ الإنسانَ يقدِّمُ خشيةَ اللهِ على خشيةِ النَّاسِ، ويقدِّمُ رِضى اللهِ على رِضى النَّاس.

فإذا جُمِعَت هذهِ الآياتُ وهذهِ الأحاديثُ دلَّتْ على أنَّ الخوفَ عبادةٌ يجِبُ إفرادُ اللهِ تعالى بها، ونعني بالخوفِ النَّوْع الأوَّل الذي هو خوفُ العبادةِ، الخوفُ الذي يترتَّبُ عليهِ العملُ بطاعةِ اللهِ وتركُ معصيةِ اللهِ.

---

(١) برقم (٢٧٦)، وهو عند الترمذي (٢٤١٤) مرفوعًا وموقوفًا.

الباب الثالث والثلاثون

باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣].

وَقولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

التوكُّل هو: تفويضُ الأمورِ إليهِ سُبْحانه، وهو من أعظمِ أنواعِ العبادةِ.

ومناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيدِ: أنه لَمَّا كانَ التوكُّل على الله عبادةً لله ﷻ وجَبَ إخلاصُهُ لله وتركُ التوكُّلِ على مَنْ سواهُ، لأنَّ العبادةَ حقٌّ لله، فإذا صُرِفَتْ لغيرِهِ صارَ ذلكَ شركًا؛ فالتوكُّل على غيرِ الله شركٌ.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: توكّلوا على الله ولا تتوكّلوا على غيرِهِ.

قال: «**وَقولُهُ:** ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ **الآية**» أي: إذا خُوِّفوا باللهِ خافوا، وإذا ذُكِّروا باللهِ تذكّروا، وإذا قيلَ لهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوا من اللهِ ﷻ وأشفقوا من عذابِهِ، إذا وُعظوا وذُكِّروا فإنهم يخشَوْنَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ القرآنية ﴿زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ وهذه علامةُ الإيمانِ؛ أنَّ المؤمنَ إذا تُليت عليهِ آياتُ اللهِ وسمِعَ القرآنَ يزيدُ إيمانهُ ويقينُه، وينتفِعُ بالقرآنِ الكريمِ.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يُفيدَ الحصرَ، وبيان أنَّ التوكُّلَ عبادةٌ يجبُ إفرادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، ولا يجوزُ التوكُّل على غيرِ اللهِ؛ لأنَّ مَنْ توكَّلَ على غيرِ اللهِ فقدْ أشرَكَ.

وَقَولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]. **وَقَولُهُ:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. **وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا **قَالَ:** ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، **قَالَهَا إِبرَاهِيمُ** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ **حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ** ....

قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: كافيكَ.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: وحسب من اتَّبعَكَ مِنَ المؤمنينَ.

ومحلُّ الشاهدِ من الآية: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾، فإذا كانَ حسبُكَ اللهُ فيجِبُ التوكُّلُ على اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ والاعتماد عليه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وحدَه. لأنهُ يكفي من توكَّلَ عليه،

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا على غيرِه.

﴿فَهُوَ﴾ أي: الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

﴿حَسۡبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه.

فهذا فيه: ثمرةُ التوكُّلِ على اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأنَّ اللهَ يكفي مَنْ توكَّلَ عليه، ومن كانَ اللهُ كافيهِ فإنه هو الرابحُ والمُفْلِحُ في الدُّنيا والآخرةِ، ولا يخافُ من غيرِهِ أبدًا، إنما يخافُ من اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

قوله: «**قالها إبراهيم** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ **حينَ أُلقيَ في النَّار**» أي: قالَ هذهِ الكلمةَ حينما ألقاهُ قومُهُ في النَّارِ انتصارًا لآلهتِهم، فقالَ اللهُ للنارِ: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ١٦٩].

والشَّاهدُ في قولِهِ: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ فهذا فيه: التوكُّلُ على اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وبيانُ ثمراتِهِ، وأنَّ ثمرةَ التوكُّلِ على اللهِ حوَّلَتِ النَّارَ إلى بَرْدٍ وسلامٍ على إبراهيمَ عَلَيۡهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالَوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، **رَوَاهُ البُخَارِيُّ والنَّسَائِيُّ**(١).

قوله: «**وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالَوا لَهُ:** ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ **الآية**» لَمَّا حصلَتْ غزوةُ بدرٍ في السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ، وانتصَرَ المسلمونَ فيها، تشاورَ المشركونَ في مكةَ بقيادةِ أبي سفيانَ بن حربٍ، وأرادوا غَزْوَ رسولِ الله ﷺ انتقامًا لرؤسائِهم الذينَ قُتلوا في بدرٍ، فاجتمعوا بقيادةِ أبي سفيانَ بنِ حربٍ، وجاءوا بجيوشٍ عظيمةٍ- ونزلوا عندَ أحدٍ، فخرجَ الرسولُ ﷺ بأصحابِهِ وعسْكَرَ عندَ أحدٍ، ونظَّمَ أصحابَهُ، وجعَلَ جماعةً من الرُّماةِ على الجبلِ ليحموا ظهورَ المسلمينَ أن يأتِيهَم الكفّارُ من الخلفِ.

ثم دارَتِ المعركةُ وصارَ النَّصْرُ للمسلمينَ، فصاروا يجمعونَ المغانِمَ، فلمَّا رأى الذينَ على الجبلِ أنَّ أصحابَهم يَجْمعون المغانِمَ ظنوا أنَّ المعركةَ قد انتَهَتْ؛ أرادوا النزولَ من الجبلِ ليشاركوا في جمعِ الغنائِم، فمنَعُهم قائدُهُم عبدُ الله بنُ جُبَيْر، لأنَّ الرسولَ ﷺ قالَ لهم: «**لا تتركوا الجبل سواء انتصرنا أو هُزمنا**»، ولكنهم رضي اللهُ عنهم اجتهدوا ونزلوا من الجبلِ، وأما رئيسُهُم فبقِي طاعةً لرسولِ الله ﷺ، فلمَّا رأى خالدُ بنُ الوليدِ -وكانَ يومَ ذاك على الشركِ- الجبلَ قد فَرُغَ، وكان قائدًا محنَّكًا يعرفُ السياسةَ الحربيةَ؛ دارَ بمَنْ معهُ من كتيبةِ الخيلِ، وانقضّوا على المسلمينَ من خلفِ ظهورِهم، والمسلمونَ لم يشعروا.

فدارتِ المعركةُ من جديدٍ، وأصابَ المسلمينَ ما أصابَهم من القرْحِ، واستُشهدَ منهم سبعونَ من خيارِ الصحابةِ من المهاجرينَ والأنصارِ، وعلى رأسِهم حَمْزَةُ بنُ عبدِ المطّلبِ عمُّ الرسولِ ﷺ، بَلْ إنَّ الرسولَ ﷺ أصابَهُ ما أصابَهُ، ثم انتهتِ المعركةُ، وأُعلِنَ أنَّ محمَّدًا ﷺ لم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٤٣٩).

يُقتَلْ، فحينئذٍ فَرِحَ المسلمونَ فرحًا شديدًا، واغتاظَ المشركونَ غيظًا شديدًا، فانصرَفَ المشركونَ إلى مكّةَ، والنّبيُّ ﷺ أَمَرَ أصحابَهُ أَنْ يدفنوا الشهداءَ، وحملوا الجرْحى إلى المدينةِ، ولَمَّا وصلوا إلى المدينةِ جاءَهم مندوبٌ من أبي سفيانَ بأنه سيعيدُ الكرّةَ عليهم، ويرجع عليهم يستأصلُ بقيَّتَهم، فما زادَهُم ذلكَ إلَّا إيمانًا، وأمَرَ الرسولُ ﷺ الذين خرجوا معه إلى أُحُد أَنْ يَخْرجوا ولا يَخْرج معهم غيرُهُم، فخرجوا معَ الرسولِ ﷺ بجراحِهم ونزلوا في مكانٍ يُقالُ له: (حَمْراء الأسدِ) - قريبٌ من المدينةِ- ينتظرونَ الكفّارَ.

لما بلَغَ أبا سفيانَ ومَنْ معهُ أنَّ الرسولَ ﷺ خرجَ في أَثَرِهم وفي طلبِهم أصابَهُمُ الرعبُ، فمضَوْا إلى مكةَ خائفينَ من الرسولِ ﷺ، ورجَعَ المسلمونَ إلى المدينةِ سالمينَ.

وأنزل الله ﷻ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾، هذا قولُ أبي سفيانُ أننا نأتي ونقضي على بقيَتِهم ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

هذهِ ثمراتُ التوكُّل على الله ﷻ، وهذه ثمراتُ الاعتمادِ على الله، كما صارَت النَّارُ برْدًا وسلامًا على إبراهيمَ؛ صارَتْ هذهِ المعركةُ وهذهِ التخويفاتُ بردًا وسلامًا على صحابةِ رسولِ الله ﷺ.

الباب الرابع والثلاثون

باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

....

هذا البابُ وضعَهُ المصنِّفُ رحمه الله في «**كتاب التوحيد**» لأنَّ الأمنَ من مكرِ الله والقنوطِ من رحمتِهِ يُنقصان التوحيد، وينافيانِ كمالَه، وهذا الكتابُ كلُّه في موضوعِ التوحيدِ ومكمِّلاتِهِ وبيانِ مناقضاتِهِ ومنقِّصاتِهِ.

ومكرُ اللهِ سبحانه وتعالى هو: إيصالُ العقوبةِ إلى مَنْ يستحقُّها من حيثُ لا يشعرُ.

قالَ تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ هذا استنكارٌ من اللهِ سبحانه وتعالى على مَنْ يغترُّ بالنعم وينسى العقوبةَ أن يأخذَهم على غِرّةٍ وهم آمنونَ مُنعَّمون.

﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يأمنُ عقوبةَ اللهِ التي تنزلُ على خُفْيةٍ ومن غير تأهُّبٍ ومن غيرِ توقعٍ لها.

﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين حقّتْ عليهم الخسارةُ التي لا رِبْحَ معها أبدًا ولا نجاةَ.

والشَّاهدُ في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ فهو استفهامُ إنكارٍ على مَنْ يقعُ مِنه مثلَ ذلك.

فالأمنُ من مكرِ اللهِ يستلزمُ عدمَ الخوفِ من اللهِ سبحانه وتعالى، كما يستلزمُ الاستمرارَ في المعاصي والزيادةِ منها، ويستلزِمُ تركَ التوبةِ والرجوعَ إلى اللهِ عز وجل. وهذه حالةُ الأشقياءِ من الخلقِ.

والأمنُ من مكرِ اللهِ ينافي التوحيدَ؛ لأنه يدلُّ على عدمِ الخوفِ من الله عز وجل.

وَقَولُهُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]. **وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «الشِّركُ بِالله، وَاليَأسُ مِن رَوْحِ الله،** ......

قال: «**وقوله**: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾» هذا استفهامُ إنكارٍ من الله سبحانه وتعالى، وهو بمعنى النفي، أي: لا أحدَ يقنَطُ من رحمةِ ربِّه. ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ التائهونَ عن الحقِّ؛ لأنَّ المؤمنينَ يعلمونَ من قدرةِ الله سبحانه وتعالى وفضلِهِ وإحسانِهِ ويعلمونَ من قُربِ رحمتِهِ وفرجِهِ ما لا يعلمُهُ غيرُهم.

ففي هذهِ الآيةِ: أنَّ الذي يقنَطُ من رحمةِ ربِّه يكونُ من الضالينَ، والضلالُ ضدُّ الهدى.

قوله: «**وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكَبَائِرِ؟**» أي: عن الذنوبِ الكبائرِ: جَمْعُ كبيرةٍ وهي: العظيمةُ.

فقال: «**الإشْرَاكُ بِالله**» هذا أكبرُ الكبائر: الإشراكُ بالله عز وجل، وهو عبادةُ غيرِ الله بأيِّ نوعٍ من أنواعِ العبادةِ وأيًّا كانَ هذا المعبودُ صنمًا أو شجرًا أو حجرًا أو حيًّا أو ميِّتًا أو قبرًا أو غيرَ ذلك. وهذا هو الذي لا يُغفَر إلَّا بالتوبةِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا هو الذي يُحبِطَ الأعمالَ جميعَها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

قوله ﷺ: «**واليأسُ من رَوْح الله**» هذا مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ فالقنوطُ من رحمةِ الله من أكبرِ الكبائرِ، لأنَّ فيه إساءةَ ظنٍّ بالله سبحانه وتعالى، ولأنهُ يحمِلُ صاحبَهُ على عدمِ التوبةِ لأنه يقولُ: لا يغفرُ اللهُ لي وإنْ تُبْتُ، واللهُ سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٤].

وَالأمنُ مِن مَكْرِ الله»(١). **وَعَن ابنِ مَسعُودٍ** رضي الله عنه **قَالَ: أَكبَرُ الكَبَائِرِ: الإشرَاكُ باللهِ، وَالأمنُ مِن مَكرِ اللهِ، وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ اللهِ، وَاليَأسُ مِن رَوْحِ الله. رَوَاهُ عَبدُ الرَّزَّاقِ**(٢).

قوله ﷺ: «**والأمن من مكر الله**» أي: ومن أكبرِ الكبائرِ: الأمنُ من مكرِ اللهِ، أي: من عقوبتِهِ عندَ المعصيةِ من حيثُ لا يشعرُ. والغفلةُ عن طاعةِ اللهِ سبحانه وتعالى.

قال: «**وَعَن ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: أَكبَرُ الكَبَائِرِ**» هذا فيهِ دليلٌ على أنَّ الذنوبَ تنقسِمُ إلى كبائرَ وصغائرَ والكبائرُ تختلِفُ، بعضُها أكبرُ من بعضٍ.

وقوله: «**وَالأمنُ مِن مَكرِ اللهِ**» سبقَ معنى الأمنِ من مكرِ اللهِ.

«**وَالقُنُوطُ مِن رَحمَةِ اللهِ**» هذا سبَقَ أيضًا معناهُ.

«**وَاليَأسُ مِن رَوْحِ الله**» القنوطُ واليأسُ متقارِبانِ، وكلاهما فيهِ استبعادٌ لرحمةِ اللهِ عز وجل وسوءُ ظنٍّ باللهِ عز وجل.

«**وَاليَأسُ مِن رَوْحِ الله**» قالَ اللهُ سبحانه وتعالى على لسانِ نبيه يعقوبَ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، أما المؤمنون فلا ييأسونَ من رَوْحِ اللهِ مهما بلغَ بهم الكربُ والشدةُ؛ لعِلْمِهم باللهِ عز وجل وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وقُربِ فَرَجِه، وقُربِ رحمتِهِ من عبادِهِ؛ فهم لا ييأسونَ من رَوْحِ اللهِ مهما اشتدَّتْ بهم الخطوبُ، بل كلَّما اشتدَّ الخطبُ عَظُمَ رجاؤُهُم باللهِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم- كما في تفسير ابن كثير (١/ ٤٨٥)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٢/ ٥٠٢-٥٠٣).

(٢) في «المصنف» (١٩٧٠١).

الباب الخامس والثلاثون

باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

....

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيدِ: أنَّ الصبرَ على أقدارِ اللهِ من مكمِّلاتِ التوحيدِ، وأنَّ عدمَ الصبرِ على أقدارِ الله يكون من منقِّصات التوحيد.

فقولهُ: «**بابٌ من الإيمان بالله**» أي: من خصالِ الإيمانِ باللهِ، ومن شعبِ الإيمانِ بالله ﷻ: الصبرُ على أقدارِهِ ﷻ. والإيمانُ -كما عرَّفَه أهلُ السنةِ والجماعةِ-: «**قَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ**» يعني: الجوارح، «**واعتقاد بالجَنانِ**» يعني: بالقلب: «**يزيد بالطاعة، وينقُص بالمعصية**».

«**الصبر على أقدار الله**» الصَّبر لغةً: الحَبْس.

وأما في الشرعِ فالصَّبْر هو: حَبْس النفسِ على طاعةِ اللهِ ﷻ، وتركِ معصيتِهِ.

وذكرَ العلماءُ: أنَّ الصبرَ له ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعةِ اللهِ، وصبرٌ عن محارمِ اللهِ، وصبرٌ على أقدارِ اللهِ المؤلمةِ.

فالأول: صبرٌ على طاعةِ اللهِ: بأن يؤدِّيَ الإنسانُ ما أمرَ اللهُ تعالى به؛ وإنْ كانَ فيه مشقَّةٌ عليه، فإنه يصبرُ.

الثاني: صبرٌ عن محارمِ اللهِ: فيتجنَّبُ ما نهى الله تعالى عنه.

والثالث: صبرٌ على أقدار اللهِ المؤلمة: فإنْ أصابَهُ أو أصابَتْه مصيبةٌ في مالِهِ أو ولدِهِ أو في قريبِهِ فإنه يصبرُ ولا يجزَعُ. هذا من الإيمانِ باللهِ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]، يعرفونَ أنَّ هذا من اللهِ، وأنه بقضاءِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]. **قَالَ عَلقَمَةُ**[(١)]**: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعلَمُ أَنَّهَا مِن عِندِ الله، فَيَرضَى وَيُسَلِّم**[(٢)].

اللهِ وقدرِه؛ فلا يجزعونَ ولا يتسخّطونَ.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾» هذا بعضُ آية من سورةِ التغابُن، وأوّلها قولُه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

فقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يعني: أنَّ جميعَ المصائبِ التي تنزلُ بالنّاسِ من أولِ الخليقةِ إلى آخرِها، فإنَّ اللهَ قدَّرَها، ليسَ هناكَ مصيبةٌ تحدُث في العالمِ إلَّا وقد قدَّرَها اللهُ ﷻ.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: بقضائِه وقدرِه.

معنى قوله: «**هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ**» يعني: تنزلُ بِهِ المصيبةُ، إما في نفسِهِ وإما في مالِهِ وإما في ولدِهِ وإما في أهلِهِ وإما في أقاربِهِ، فلا يجزَعُ، ولكِنْ يعلمُ أنها من عندِ الله، يعلمُ أنَّ اللهَ قد قدَّرَها وقَضاها، فيرضى بقضاءِ اللهِ، ولا يجزَعُ ولا يسخَطُ، ويسلِّمُ للهِ ﷻ، ولقضاءِ اللهِ وقدرِه.

وقد سمَّى اللهُ هذا التسليمَ وهذا الرضى إيمانًا، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني: يرضى بقضاءِ اللهِ ويسلِّم له، وهذا هو الشاهدُ: أنَّ اللهَ سمَّى الصبرَ على المصيبةِ والرضى بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ إيمانًا.

---

(١) **علقمة**: هو علقمةُ بنُ قيسِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ علقمةَ، وُلِدَ في حياةِ النبيِّ ﷺ، وهو مِنْ كِبارِ التابِعين وعلمائِهم وثقاتِهِم، ماتَ بعدَ الستينَ مِنَ الهجرةِ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١٢٣)، والبيهقي (٤/ ٦٦).

وَفِي «صَحِيحِ مُسلِمٍ»(١) عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ». وَلَهُمَا(٢) عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ، ....

قوله ﷺ: «**اثْنَتَانِ**» يعني: خَصْلتان.

«**فِي النَّاسِ**» في بني آدمَ حتَّى ولو كانوا مسلمين.

«**هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ**» هو كفرٌ أصغرُ، لأنَّ الكفرَ إذا نُكِّر فإنه يُرادُ به: الكفرُ الأصغرُ.

فالخُصْلة الأولى: «**الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ**» تقدَّم الكلامُ عليهِ في بابٍ سابقٍ.

والخصلة الثانية: «**النِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ**» والنِّياحةُ معناها: إظهارُ الجَزَعِ على الميتِ، كما كانَ أهلُ الجاهليةِ يفعلونَهُ. والمطلوبُ والواجبُ: الصبرُ على موتِ الأقاربِ أو موتِ الأحبابِ. ولا يَمْنَعُ هذا أنَّ الإنسانَ يتألَّمُ ويبكي، فالبكاءُ لا مانعَ فيه.

قوله: «**عَن ابنِ مَسعُودٍ مَرفُوعًا**» أي: إلى النبيِّ ﷺ.

«**لَيْسَ مِنَّا**» معناها: البراءةُ ممَّن فعلَ ذلك، ولكنْ ليسَ معناها أنه يخرُج من الإسلامِ، وإنما معناها: التنفيرُ من هذا العملِ.

وقوله ﷺ: «**مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ**» ضربُ الخدودِ جزعًا من المصيبةِ كفعلِ الجاهليةِ، لأنَّ المشروعَ الصبرُ، وهذا عكسُه.

«**وَشَقَّ الجُيُوبَ**» أي: جيوب الثِّيابِ؛ جزعًا من المصيبةِ.

---

(١) برقم (٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٧)، ومسلم (١٠٣).

وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ». وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ: **أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ، حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[1]. **وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ** ....

«**وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**» يعني: نادى عند المصيبةِ بالألفاظِ التي تقولُها الجاهليةُ، والمرادُ بالجاهليةِ: ما كانَ قبلَ بِعْثةِ الرسولِ ﷺ في وقتِ الفترةِ.

قوله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ**» أي: من علامةِ إرادةِ اللهِ بعبدِهِ الخيرَ: أن يعجِّلَ له العقوبةَ على ذنوبِهِ؛ لأنَّ الذنوبَ تصدُرُ من الإنسانِ بكثرةٍ، ليسَ هناكَ أحدٌ معصوم إلَّا الأنبياء فإذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ خيرًا عجَّلَ له العقوبةَ على هذهِ المعاصي في الدُّنيا حتى يطهِّره، وحتى ينتقلَ إلى الدارِ الآخرةِ ليسَ عليه ذنوبٌ فيدخلَ الجنَّةَ.

وقوله ﷺ: «**وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ**» فلا تنزلُ به عقوبةٌ، مع أنه يَعْصي ويزني ويُخالِفُ أوامرَ اللهِ ﷻ، ومع هذا يُنعَّم ويُصَحّ في جسمِهِ، ولا يمرضُ. وهذه علامةُ شرٍّ، من أجلِ أن تبقى عليهِ ذنوبُهُ.

«**حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يعني: يرجعُ إلى اللهِ في الدارِ الآخرةِ وذنوبُهُ عليه لم يُحطَّ عنه منها شيءٌ، فيعذَّبُ بها يومَ القيامةِ.

قوله: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ**» أي: عندَ اللهِ ﷻ.

«**مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ**» وذلكَ أنَّ المُبتَلَى إذا صبرَ ورضيَ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ فإنَّ اللهَ يجزيهِ على ذلكَ الخيرَ العاجلَ والآجلَ، فيجزيه الجزاءَ العظيمَ آجِلًا وعاجلًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وقال: حديث حسن غريب.

وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ». حَسَّنَهُ التِّرمِذِيُّ(١).

والمرادُ بالبلاءِ هنا: الابتلاءُ والامتحانُ، فيُصابُ الإنسانُ بالشدّةِ، ويُصابُ بالمرضِ ويُصابُ بضياعِ المالِ ويُصابُ بموتِ القريبِ.

وقوله: «**وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ**» هذهِ أيضًا حِكمةٌ أخرى، وهي: أنَّ وجودَ الابتلاءِ والامتحانِ الذي يصيبُ المسلمينَ دليلٌ على محبةِ اللهِ لهم، ولَمَّا أحبَّهم ابتلاهُم من أجلِ أن يخفِّفَ عنهم، ومن أجلِ أَنْ ينتقلوا إليه وهم مخلَّصونَ من الذنوبِ.

«**فَمَنْ رَضِيَ**» بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ «**فَلَهُ الرِّضَا**» من الله ﷻ. وهذا دليلٌ على أنَّ الجزاءَ مِنْ جنسِ العملِ.

«**وَمَنْ سَخِطَ**» على قضاء الله وقدره «**فَلَهُ السَّخَطُ**» من اللهِ ﷻ جزاءً وفاقًا.

وهذه المصائبُ إنما هي ابتلاءٌ وامتحانٌ ليظهرَ الصابرَ من غيرِ الصابرِ، وليترتَّبَ الجزاءُ على ذلكَ من اللهِ ﷻ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦م)، وابن ماجه (٤٠٣١).

الباب السادس والثلاثون

باب ما جاء في الرياء

....

قولُ الشيخِ رحمه الله: «**باب ما جاء في الرياء**» أي: ما جاءَ فيه من الوعيدِ، وبيانِ أنه شركٌ يحبطُ العملَ الذي خالَطَه. والشركُ على نوعينِ: شركٌ ظاهرٌ، وشركٌ خفيٌّ.

فالشركُ الظاهرُ هو: ما يكونُ في الأعمالِ الظاهرةِ كالذي يذبحُ لغيرِ اللهِ أو ينذرُ لغيرِ اللهِ أو يستغيثُ بغيرِ اللهِ إلى غيرِ ذلكَ من أنواعِ الشركِ الأكبرِ الذي يراهُ الناسُ ويسمعونَهُ.

أما النوع الثاني وهو: الشركُ الخفيُّ، فهذا لا يراهُ النَّاسُ ولا يعلمونَه؛ لأنه في القلوبِ، وفي النيّاتِ والمقاصدِ القلبيةِ التي لا يعلمُها إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى.

والرياءُ مأخوذٌ من: الرؤيةِ، وذلك بأن يزيِّنَ العملَ ويُحَسِّنه من أجلِ أن يراهُ الناسُ ويمدحوهُ ويُثْنوا عليه، فهذا يُسمَّى رياءً، لأنه يَقْصِد رؤيةَ النَّاسِ له.

والفرقُ بينَ الرياءِ والسمعةِ: أنَّ الرياءَ فيما يُرى من الأعمالِ التي ظاهرُها للهِ وباطنُها لغيرُهِ كالصلاةِ والصدقةِ. أما السمعةُ فهي لِمَا يُسْمَعُ من الأقوالِ التي ظاهرُها للهِ والقصدُ منها لغيرِ اللهِ كالقراءةِ والذكرِ والوعظِ وغيرِ ذلك من الأقوالِ، وقَصْدُ المتكلِّمِ أن يسمعَ الناسُ كلامَه فيثنوا عليه.

والرياء على قسمين:

القسم الأول: شركٌ أكبرُ وهو: إذا كانَ قَصْد الإنسانِ بجميعِ أعمالِهِ مراءاةَ الناسِ، ولا يقصدُ وجهَ اللهِ أبدًا، وإنَّما يقصدُ العيشَ مع المسلمينَ، وحقنَ دمِهِ، وحفظَ مالِهِ، فهذا رياءُ المنافقينَ، وهو شركٌ.

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ....﴾

القسم الثاني: قد يصدرُ من مؤمنٍ، ويكونُ في بعضِ الأعمالِ، وهو: أن يكونَ العملُ فيه قصدٌ للهِ وفيه قصدٌ لغيرِ اللهِ. وهذا هو الشركُ الأصغرُ.

وهذا النوع من الرياء له ثلاثةُ حالاتٍ:

الحالة الأولى: إن كان مقصودًا في العملِ من أوَّلِهِ واستمرَّ معه إلى آخرِهِ فإنّ هذا عملٌ مردودٌ، لا يقبلُهُ اللهُ ﷻ.

الحالة الثانية: أن يكونَ أصلُ العملِ للهِ ثمَّ يطرأُ عليه الرياءُ. فهذا إن تابَ منه صاحبُهُ في الحالِ ودفعَهُ، وأخلصَ العملَ للهِ؛ فإنه لا يَضرُّ صاحبَه قولًا واحدًا،

الحالة الثالثة: أَنْ يطرأَ في أثناءِ العملِ ويستمرَّ معه. فهذا موضعُ خلافٍ بينَ أهلِ العلمِ؛ منهم من قالَ: إنه يحبِطُ العملَ كالنوعِ الأول، ومنهم من قالَ: إنه يثابُ على قدرِ نيّته للهِ في هذا العملِ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أمرَ اللهُ نبيَّه ﷺ أَنْ يقولَ للناسِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ فالرسولُ ﷺ بشرٌ ليس له من الربوبيةِ شيءٌ ولا من العبادةِ شيءٌ.

ثمَّ قالَ: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ يعني: مثلكم في أمورِ البشريّةِ، فهو بشرٌ يجوعُ، ويمرضُ، ويتعبُ في السفرِ مثلَ البشرِ وتجري عليه العوارضُ البشريةُ كما تَجْري على البشرِ.

وإنَّما امتازَ ﷺ عن البشرِ بالرسالةِ والفضيلةِ وكمالِ العبوديةِ للهِ، فهو أكملُ الخلقِ عبوديةً للهِ، وأخشاهم للهِ، وأتقاهُم له.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من اللهِ ﷻ بواسطةِ جبريلَ عليه السلام.

أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. **وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ مَرفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ،** ....

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ يعني: معبودكم بحقٍّ. فالإلهُ معناهُ: المعبودُ.

والمعبودُ بحقٍّ هو اللهُ وحدَه. وما سواهُ فهو معبودٌ بالباطل.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾ معناه: يخشى ويخاف، وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: (أي: يؤمِّل رؤيةَ اللهِ يومَ القيامةِ، لأنَّ المؤمنينَ يرَوْنَ ربَّهم يومَ القيامةِ، ويتنعّمونَ برؤيتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعظمَ مما يتنعّمونَ بنعيمِ الجنةِ).

﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ لأنه لا يمكنُ أن تحصُلَ هذهِ الرؤيةُ إلَّا لمَنْ عمِلَ عملًا صالحًا.

والعملُ لا يكونُ صالحًا إلَّا إذا توفَّرَ فيه شرطانِ:

الشرط الأول: الإخلاصُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ من الرياءِ والسُّمعةِ،

والشرط الثاني: أَنْ يكونَ موافقًا لسنةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خاليًا من البدعِ والمحدثاتِ والخُرافاتِ.

قوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ فإنه إذا راءى بعملِهِ، أو سمَّع به، أبطلَهُ اللهُ وردَّهُ عليه.

وقوله: ﴿أَحَدَۢا﴾ نكرةٌ في سياقِ النَّهي، تعمُّ كلَّ أحدٍ، فاللهُ لا يقبلُ أن يُشركَ معه أحدٌ لا من الملائكةِ، ولا من الرسلِ، ولا من الأولياءِ والصالحينَ، ولا من الأحجارِ والأشجارِ، ولا من الجنِّ، ولا من الإنسِ.

قوله: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**» اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ عن عبادةِ خلقِهِ، وإنَّما أمرَهم بعبادتِهِ لمصلحتِهم هم لأنَّهم محتاجونَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يُقرِّبهم من اللهِ إلَّا العبادةُ، من أجل

مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسلِمٌ(١). وَعَن أَبِي سَعيدٍ مَرفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ». رَوَاهُ أَحمَدُ(٢).

أَنْ يغفرَ اللهُ لهم، وأن يرزُقَهم، وأن يُدخلَهم الجنَّةَ، أما اللهُ ﷻ فإنه لا تنفَعُه طاعةُ الطائعينَ ولا تضرُّه معصيةُ العاصينَ، وإنَّما هو النافعُ الضّار، ولهذا يقول ﷻ: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

وفي قوله: «**تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**» دليلٌ على أنَّ الشركَ يُحْبِط العملَ سواءً كانَ أكبرَ أو أصغرَ. والشاهدُ منه للبابِ: أنَّ الرياءَ نوعٌ من الشركِ يردُّ العملَ الذي خالَطَه على صاحبِهِ، ولا يقبلُهُ اللهُ.

قوله: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» هذا الحديثُ له سببٌ وهو: أنَّ النبيَّ ﷺ خرجَ إلى أصحابِهِ وهم يتحدّثونَ عن الدَّجالِ وعن فتنتِهِ، وكانوا خائفينَ منه، فقالَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟**» الحديث.

فأجابوا: و«**قَالُوا: بَلَى**».

قال: «**الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومَ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إليه**» هذا فيهِ: أنَّ الرياءَ شركٌ خفيٌّ، ووجهُ كونِهِ خفيًّا: أنه في النيَّاتِ والمقاصدِ وأعمالِ القلوبِ، وهذهِ لا يعلمُها إلَّا اللهُ ﷻ، لا أحدَ يعلمُ النيّاتِ ويعلمُ المقاصدَ إلَّا اللهُ ﷻ.

---

(١) برقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه (٤٢٠٤).

الباب السابع والثلاثون

بابٌ من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا﴾ **الآية** [هود: ١٥-١٦].

قوله رحمه الله: «**بابٌ من الشرك**» أي: من أنواعِ الشركِ، والمراد: الشرك الأصغر.

«**إرادة الإنسان بعمله الدنيا**» ومعناه: أَنْ يعملَ العَمَل الذي شُرِع للآخرةِ وهو لا يريدُ به إلَّا طمعَ الدُّنيا، كأَنْ يجاهدَ من أجلِ المَغْنَم، أو يتعلَّمَ من أجلِ الرئاسةِ والوظيفةِ، وهكذا.

والفرقُ بينَ هذا البابِ والذي قبلَه: أنَّ البابَ الذي قبلَه في الرياءِ وهذا في إرادةِ الإنسانِ بعملِهِ الدُّنيا، وهما يجتمعانِ في العملِ لغيرِ وجهِ الله، وفي أنَّهما شركٌ خفيٌّ، لكِنْ يفترقانِ في أنَّ الرياءَ يُرادُ به الجاهُ والشُّهرةُ، وأما طلبُ الدُّنيا فيُراد بِهِ الطمعُ والعَرَضُ العاجلُ، قالوا: والذي يعمَلُ من أجلِ الطمعِ والعرضِ العاجلِ أعقلُ من الذي يعملُ للرياءِ، لأنَّ الذي يعملُ للرياءِ لا يحصُلُ له شيءٌ، وأما الذي يعملُ من أجلِ الدُّنيا فقد يَحصُلُ له طمعٌ في الدُّنيا ومنفعةٌ في الدُّنيا، ولكِنْ كلاهُما خاسرٌ عندَ الله سبحانه وتعالى، حيثُ أنَّ كُلًّا منهما أشركَ في نِيَّته وقصدِهِ.

قوله: «**وقول الله تعالى:** ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾» أي: من كانَ يقصِدُ بعملِ الآخرةِ عَرَض الدُّنيا.

﴿وَزِينَتَهَا﴾ زينة الدُّنيا وهي المالُ والولدُ

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ نُعطِهِ من الدُّنيا ما أرادَ وما قَصَدَ إذا شِئْنا ذلكَ، استدراجًا له، ومعاملةً له بما قَصَد، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا يُنقصون.

فِي «الصَّحِيح»(١) **عَن أَبِي هُرَيرَةَ** رضي الله عنه **قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وسلم: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ** ....

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ بيانٌ لعاقِبتِهم، في الآخرةِ فإنَّهم يُحْرَمون من الثوابِ، لأنهم لم يريدوا الآخرةَ، والآخرةُ إنما تحصُل لمن أرادَها

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرةِ ما صنعوهُ في الدُّنيا.

﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ البُطلانْ يكونُ في الدُّنيا، والحُبوطُ يكونُ في الآخرةِ، في الدُّنيا أعمالُهم باطلةٌ لأنَّها بدونِ قصدٍ خالصٍ لوجهِ الله، فإذا جاءَتِ الآخرةُ حبطتْ أعمالُهم.

قال: «**عن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله** صلى الله عليه وسلم: **تَعِسَ**» يعني: هلك،

«**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ**» الدِّينارُ هو: النَّقد المضروبُ من الذهبِ، والدرهم هو: النقدُ المضروبُ من الفضةِ.

«**عَبْدُ الخَمِيصَةِ**» الخميصة: كساءٌ يُلبس، لونُهُ أسودُ وفيه خطوطٌ حُمْرٌ.

«**عَبدُ الخَمِيلَةِ**» الخميلةُ: القطيفةُ، سُمِّيت خميلةٌ لأنها ذاتُ خُمُل يعني: ذاتَ أهدابٍ، سمَّاهم عبيدًا لهذهِ الأشياءِ لأنَّهم يعملونَ لها، فصاروا عبيدًا لها،

ثم ذكرَ علامتَهم، فقالَ: «**إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ**» هذهِ علامةُ الذي يعملُ من أجلِ الدُّنيا، أنه إنْ أُعطيَ منها رضِيَ وإن لم يُعْطَ منها لم يَرْضَ،

أما المُؤمنُ فإنه إنْ أُعطي شَكَر، وإن لم يُعطَ فإنه يصبرُ ولا يسخَطُ، لأنه يعملُ لله لا يعملُ من أجلِ الدُّنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ. طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، ....

وهذا هو الشاهدُ من الحديثِ: أنه سمَّاه عبدًا لهذِهِ الأشياءِ مع أنه مُسلِمٌ مؤمنٌ، ولكِنْ لَمَّا كانَ يعملُ ويريدُ هذهِ الأشياءِ صارَ عبدًا لها، وهذهِ عبوديةُ شركٍ لكنه شركٌ أصغرُ.

ثم أعادَ الدعاءَ عليهِ مرّةً ثانيةً فقال: «**تَعِسَ وَانْتَكَسَ**» يعني: كُلَّما تماثَلَ للشفاءِ عادَ إليه المرضُ وعادَ عليهِ الهلاكُ.

«**وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**» أي: أنه يصابُ بالعجزِ حتَّى إذا ضَربتْهُ الشوكةُ في رجلِهِ أو في يدِهِ لا يستطيعُ أخذَها من العجزِ الذي أصابهُ، عقوبةً له في أنه إنَّما يعملُ من أجلِ الدُّنيا.

ثمَّ بيَّن الفرقَ بينَ الذي يعملُ للآخرةِ والذي يعملُ للدُّنيا فقالَ ﷺ: «**طُوبَى**» قيل: إنها شجرةٌ في الجنةِ ظلُّها مسيرةُ مائةِ عامٍ منها ثيابُ أهلِ الجنةِ، وقيلَ: إنها الجنَّةُ نفسُها، فالجنَّة يُقالُ لها طوبى، فطوبى من أسماءِ الجنَّة أو شجرةٌ فيها. وهذا دعاءٌ من الرسولِ ﷺ لهذا الشخصِ بأنْ يكونَ مِن أهلِ الجنَّةِ.

«**لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعنَانِ فَرَسِهِ**» العِنان: اللِّجام.

«**فِي سَبِيلِ الله**» يعني: للجهادِ في سبيلِ الله، مُعِدٌّ نفسَه ومُعِدٌّ فرسَه للجهادِ في سبيلِ الله.

«**أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ**» هذهِ الصفةُ الأُولى لهذا العبد المُجاهِدُ لم يتفرغْ للرفاهيةِ ويعتني بنفسِهِ عليه آثارُ الجهادِ في سبيلِ الله من الشعثِ والغبارِ.

«**إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ**» هذهِ صفةٌ ثانيةٌ، أي: أنه لا يبالي بنوعِ العملِ الذي يشتغِلُ فيه.

إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

«**وَالْحِرَاسَةِ**» حمايةُ الجيشِ مِنْ أن يَهجمَ عليهم العدوُّ، سواء بالليلِ أو في النهارِ.

«**وَالسَّاقَةِ**» آخر الجيشِ من أجلِ أن يتفقْدَ العاجزَ ويتفقّدَ من يحتاجُ إلى إعانةٍ من المجاهدينَ، لأنه لا يريدُ لنفسِهِ العزَّ في الدُّنيا والظهورَ والبُروزَ أمامَ النَّاسِ، ولا يريدُ لها الراحةَ والرفاهيةَ، وإنَّما يريدُ الجهادُ في سبيلِ الله على أيِّ سبيلٍ كانَ.

وقوله: «**إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**» أي: هو أيضًا غيرُ معروفٍ عندَ الناسِ، لأنه لا يحبُّ الظهورَ أمامَ الناسِ، لا يُحِب المدحَ، بل يَحْرص على الاختفاءِ، لأنه يعملُ لله، ولكونِهِ غيرَ معروفٍ إنِ استأذنَ للدخولِ على وُلاةِ الأمورِ، أو على السلاطينِ، أو على أصحابِ الجاهِ، لم يُؤذَنْ له، لأنه غيرُ معروفٍ، وهذا لا يضرُّهُ عندَ الله سُبحانه لأنه معروفٌ عندَ الله ﷻ لأنَّ اللهَ يعلمُهُ ويعلمُ مكانَه.

«**وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**» إن توسَّطَ في قضاءِ حاجةِ أحدٍ لم تُقْبَل وساطتُهُ، فهو إنسانٌ ما له هيئةٌ عندَ الناسِ، منظرُهُ ليسَ منظرَ صاحبِ هيئةٍ، ومخبرُهُ أيضًا غيرُ معروفٍ عند النَّاس، لكنَّه عندَ اللهِ عزيزٌ لأنه يعملُ فيما بينَه وبينَ اللهِ بإخلاصٍ.

الباب الثامن والثلاثون

بابُ من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلَّ الله أو تحليل ما حرّمه الله فقد اتخذهم أربابًا

....

قول الشيخُ رحمه الله: بابٌ «**من أطاع العلماء والأمراء**» هذا شرطٌ وجوابُهُ، وذلك لأنَّ التحليلَ والتحريمَ حقٌّ لله سبحانه وتعالى لا يشاركُهُ فيه أحدٌ، فمن حلَّلَ أو حرَّمَ من غيرِ دليلٍ من كتابِ اللهِ أو سُنةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقد جعَلَ نفسَهُ شريكًا لله، ومن أطاعَهُ فقد أشركَهُ معَ اللهِ في التشريعِ.

وهذا ما يُسمَّى بشركِ الطاعةِ، لأنَّ العبادةَ معناها: طاعةُ اللهِ سبحانه وتعالى بفعلِ أوامرِهِ وتركِ نواهيهِ، ومن ذلكَ: مسألة التحليلِ والتحريمِ، فهي داخلةٌ في العبادةِ، بدليلِ قولِهِ تعالى لَمَّا ذكَرَ ما يفعلُهُ المشركونَ من استباحةِ ما حرَّمه اللهُ من الميتةِ التي حرَّمَها وهم يستحلُّونها ويقولونَ: هي أولى بالأكلِ من المُذَكّاةِ، لأنَّ المذكّاةَ أنتم ذبحتموها، وأمّا الميتةُ فإنَّ اللهَ هو الذي ذَبَحَها، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١١٨-١٢١]، أي: إنْ أَطَعْتُموهم في استباحةِ الميتةِ وخالفتُم أمرَ اللهِ سبحانه وتعالى بتركِها، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مع اللهِ في التحليلِ والتحريمِ.

فطاعةُ العلماءِ والأمراءِ في مثلِ هذا شركٌ، في تحليلِ ما حرَّم اللهُ أو تحريمِ ما أحلَّ اللهُ. فإنْ كانَ الذي أطاعَهُم يعلمُ أنهم خالفوا أمرَ اللهِ في ذلكَ وتعمَّدَ طاعتَهم واستباح هذا، فهذا شركٌ أكبر يُخرِجُ من الملّةِ.

وإن كانَ الذي أطاعَهم يعتقدُ أنَّ هذا حرامٌ، ويعترفُ أنَّ هذا خطأٌ، ولكنَّه أطاعَهم لهوىً في نفسِهِ معَ اعترافِهِ بالمعصيةِ، فهذا شركٌ أصغرُ. وإن كانَ أطاعَهم وهو لا يعلمُ أنهم خالفوا

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُوشِكُ أَن تَنزِلَ عَلَيكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ! أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ. وَقَالَ أَحمَدُ بْنُ حَنْبَل: عَجِبتُ لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسنَادَ وَصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إِلَى رَأيِ سُفيَانَ[1]، ....

شرعَ اللهِ، بل ظَنَّ أنَّهم على حقٍّ، فهذا معذورٌ إن كانَ مثلُهُ يجهَلُ ذلك.

قوله: «**وقال ابنُ عَبَّاس: يوشِكُ**» معناه: يقرُب.

«**أَن تَنزِلَ عَلَيكُم حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ**» عقوبةً لكم كما نزلَتِ الحجارةُ على مَنْ كان قَبلَكم ممَّن خالفوا الرسلَ.

«**أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكرٍ وَعُمَرُ**» هذا هو السببُ الذي يوجِبُ نزولَ الحجارةِ وهو طاعةُ العلماءِ والأمراءِ فيما يخالفُ شرعَ اللهِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذهِ المقالةَ لَمّا بلغَهُ أنَّ أبا بكرٍ وعمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الخليفتين الراشدين، كانا لا يريانِ فسخَ الحجِّ إلى العمرةِ، بينما رسولُ اللهِ ﷺ أمرَ بفسخِ الحجِّ إلى العمرةِ لَمَنْ لم يَسُقِ الهدي. فإذا كانَ ابنُ عبّاسٍ يُنكرُ على من أَخَذَ برأيِ الخليفتينِ الراشدينِ أبي بكر وعمرَ، لأنه اجتهادٌ مخالفٌ للنصِّ، وأنَّ ذلكَ يوجِبُ العقوبةَ، فكيفَ بطاعةِ العلماءِ والأمراءِ في التحليلِ والتحريمِ من غيرِ دليلٍ؟

قوله: «**وقال أحمد: عَجِبتُ**» تعجُّب استنكارٍ.

«**لِقَومٍ عَرَفُوا الإِسنَادَ وَصِحَّتَهُ**» يعني: عندَهم علمٌ بالأدلّةِ.

«**يَذْهَبُونَ إِلَى رَأيِ سُفيَانَ**» يعني، يتركونَ ما صحَّ بهِ الإسنادُ عن رسولِ اللهِ ﷺ ويذهبونَ

---

(١) **سفيانُ**: هو أبو عبدِ اللهِ سفيانُ بنُ سعيدٍ الثوريُ الإمامُ الزاهدُ العابدُ الثقةُ الفقيهُ، ماتَ سنة ١٦١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النور:٦٣]. **أَتَدرِي مَا الفِتنَةُ؟ الفِتنَةُ: الشِّركُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعض قَولِهِ أَن يَقَعَ فِي قَلبِهِ شَيءٌ مِن الزَّيغِ فَيَهلِكَ.**

إلى رأي سفيانَ، وهو الإمامُ الجليلُ الفقيهُ الزاهدُ المتقنُ، سفيانُ بنُ سعيد الثوريُّ.

قال الإمامُ أحمدُ: «**والله تعالى يقولُ:** ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»

والضمير في ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ يرجعُ إلى الرسولِ ﷺ.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فسَّرها الإمامُ أحمدُ بالزيغِ والشركِ، قالَ: «**أَتَدرِي مَا الفِتنَةُ؟ الفِتنَةُ: الشِّركُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعضَ قَولِهِ**» أي: بعض قول الرسول ﷺ: «**أن يقع في قلبه شيءٌ من الزَّيْغ فيَهْلِك**».

فمن ردَّ قولَ الرسولِ ﷺ متعمِّدًا تَبعًا لهواهُ، أو تعصُّبًا لشيخِهِ الذي يقلِّدُهُ، فإنه مهدَّدٌ بعقوبتينِ:

العقوبة الأولى: الزيغُ في قلبِهِ، لأنه إذا ترَكَ الحقَّ ابتُلي بالباطلِ،

والعقوبة الثانية: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في أبدانِهم، بالقتلِ في الدُّنيا، بأَنْ يسلِّطَ اللهُ عليهم من يستأصِلُ شَأْفَتهم ويقتلُهم، إمَّا من المؤمنين، وإما من غير المؤمنين.

وَعَن عَدِيٍّ[1] بنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١]، **فَقُلتُ لَهُ: إِنَّا لَسنَا نَعبُدُهُم. قَالَ: «أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّم الله فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلكَ عِبادَتُهم» رواه أَحمَدُ والتِّرمِذِيُّ[2] وَحَسَّنَهُ.**

قوله: «**وَعَن عَدِيٍّ بنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقرَأُ هَذِهِ الآيَةَ:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ﴾» الأحبار جَمْع حَبر أو جمع حِبر وهو: العالِمُ.

﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾ جَمْع راهب، وهو: العابدُ، والغالبُ أنَّ الأحبارَ من اليهودِ، والرُّهبانَ من النصارى. ﴿أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطيعونَهم في التحليلِ والتحريمِ.

فَلَمَّا سمع عديٌّ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ يقرأُ هذهِ الآيةَ قال: «**إِنَّا لَسنَا نَعبُدُهُم**»، فهِمَ رضي الله عنه أنَّ عبادتَهم تعني الركوعَ لهم والسجودَ لهم، والذبحَ لهم فقَطْ.

قال ﷺ: «**أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّم الله فَتُحِلُّونَهُ؟**»، **قال: بَلَى. قَالَ:** «**فَتِلكَ عِبادَتُهم**» فدلَّ هذا على أنَّ طاعةَ الأحبارِ والرُّهبانِ في تحريمِ الحلالِ وتحليلِ الحرامِ عبادةٌ لهم، ويُعتبر هذا من شركِ الطاعةِ، لأنَّ التحليلَ والتحريمَ حقٌّ لله سبحانه وتعالى، فليستِ العبادةُ قاصرةً على السجودِ والركوعِ والدعاءِ والذبحِ والنذرِ وغيرِ ذلك مما يفعلُهُ الوثنيُّون، بل ويشملُ طاعةَ المخلوقينَ في معصيةِ الخالقِ سبحانه وتعالى ومخالفته في تشريعِهِ.

---

(١) **عديٌّ**: هو عديُّ بنُ حاتمٍ الطائيُّ، صحابيٌّ شهيرٌ حَسَنُ الإسلامِ، ماتَ سنة ٦٨هـ وله ١٢٠ سنةً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) ولم أجده في «مسند» الإمام أحمد.

الباب التاسع والثلاثون

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝٦٠﴾ الآيات [النساء: ٦٠-٦٢].

....

هذا البابُ من جنسِ البابِ الذي قبلَه كلاهما في تغييرِ شرعِ الله، لكنَّ هذا البابَ يخصُّ التحاكمَ في الخصوماتِ خاصةً والبابُ الذي قبلَه في التحليلِ والتحريمِ عمومًا.

قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعجُّبُ استنكارٍ.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ هل يتّفق هذا معَ دعوى الإيمانِ؟ لا يتّفق، لأنّهم يريدونَ أن يجمعوا بين الإيمانِ والكُفرِ، ولا يمكنُ هذا، فالمؤمنُ بالله وبرسولِهِ ﷺ يحكّم كتابَ الله وسُنَّةَ رسولِهِ ﷺ، أما الذي يدّعي الإيمانَ ولكنّه في الحكم لا يرجعُ إلى الله، ولا إلى رسولِ الله ﷺ، فهذا ليسَ بمؤمنٍ، ولهذا قال: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ والزّعمُ هو: أكذبُ الحديثِ، وهذا يدلّ على أنهم كاذبون في دعواهم الإيمانَ.

وقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القُرآنُ.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو: الكُتُب السابقةُ، لأنَّ الإيمانَ بالكُتُبِ كلِّها هو أحدُ أركانِ الإيمانِ الستّةِ.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، الطّاغوت: مشتقٌّ من الطُّغيان، وهو مجاوزةُ الحدِّ، قال الإمامُ ابنُ القيِّم: (الطّاغوت: ما تجاوزَ به العبدُ حدَّهُ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ في

معصيةِ الله، والطّواغيتُ كثيرونَ، ورؤوسُهُم خمسةٌ: إبليسُ لعنه اللهُ، ومَن عُبد وهو راضٍ، ومَن دعا النَّاسَ إلى عبادةِ نفسِهِ، ومَن حكم بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، ومَن ادَّعى علمَ الغيبِ).

هؤلاءِ رؤوسُ الطواغيتِ، ومنهم: مَن حكَمَ بغيرِ ما أنزل اللهُ، الذي هو موضوعُ هذا الباب، وهم الذينَ يحكمونَ ويتحاكمونَ بغيرِ شريعةِ الله ﷻ من القوانين والأنظِمَةِ، والعاداتِ والتقاليدِ، وأمورِ الجاهليّةِ والقَبَلِيّة، وكلُّه مطروحٌ بعد بِعثَةِ الرَّسولِ ﷺ، ويجبُ الرُّجوعُ إلى كتابِ الله وسُنَّةِ رسولهِ ﷺ، وكُلُّ مَنْ حَكَمَ بغيرِ كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِهِ مُستحلاً لذلك فإنه طاغوتٌ يجبُ الكُفر به. ولهذا قال: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ﴾ .

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾، بيّن ﷻ أنَّ عملَهم هذا إنما هو إملاءٌ من الشيطانِ، فهو الذي سوَّلَ لهم هذهِ الإرادةَ -إرادةَ التحاكُمِ إلى الطّاغوتِ-، فهو الذي يُبْعِد الناسَ عن تحكيمِ كتابِ الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ.

ثم أيضًا من علاماتِهم: أنهم لا يقبلون النّصيحةَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ طُلب منهم ونُصحوا أن يرجعوا إلى الحقِّ لا يقبلون، لأنهم تعمَّدوا مخالفةَ الحقِّ، فهم ما تركوا الحقَّ عن جهلٍ، ولكنَّهم تركوهُ عن تعمُّد، فلذلك لا يقبلون النّصيحةَ، ولهذا قال: ﴿رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء:٦١] يعرضونَ إعراضًا كليًّا.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾، يعني: إذا نزلَتْ بهم كارثةٌ، أو أنزل اللهُ فيهم قرآنًا يفضحُهم جاءوا إلى الرّسولِ ﷺ يعتذرونَ، ويحلفونَ باللهِ وهم أكثرُ الناسِ حلفًا باللهِ وهم كاذبونَ.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢]، يقولون: ما أرَدْنا مخالفتَك، ولا أردنا مخالفةَ كتابِ الله، ولكن عَمِلْنا هذا للمصلحةِ، وتوفيقًا بينَ الناس، وهذا ممّا يدلُّ على غباوتِهم، وعلى قُبْحِ سجيّتِهم، فالاعتذار أخسُّ من الفعلِ، لأنهم يدَّعون أنَّ تحكيمَ غيرِ كتابِ الله إحسانٌ وتوفيقٌ، فهذا عذرٌ أقبحُ من فعلٍ،

﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ لا تقبَلْ اعتذارَهم، لأنّه اعتذارٌ كاذبٌ،

﴿وَعِظۡهُمۡ﴾ يعني: الواجبُ عليك تُجاههم: الموعظة، بأن تخوِّفَهم باللهِ ﷻ، وتحذّرَهم من النّفاقِ والكذبِ، وتأمُرَهم بالتَّوبةِ، وتبيِّن لهم عقوبةَ مَن فَعَل هذا الفعلَ.

﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ قيل: معناه: بيِّن لهم ما في أنفسِهم، وما يبيِّتونه ممَّا بيَّنه اللهُ لك، وأَطْلَعك عليه. وقيلَ: معناه: أي: قل لهم خاليًا بهم وحدَهم وأَسِرَّ إليهم بالنّصيحةِ. ﴿قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾ يعني: كلامًا جَزْلًا فاصلاً يؤثِّر فيهم.

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ يعني: جميع الرُّسلِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- ومنهم: محمدٌ ﷺ.

﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ بشرعِهِ ودينِهِ، أو بتوفيقِهِ ﷻ، فالواجبُ: طاعةُ الرسول ﷺ، وعَدمُ مخالفتِهِ، ومن طاعته: التحاكُمُ إليه.

ثم بيّنَ ﷻ: أنَّ هؤلاءِ لو تابوا ورجعوا إلى اللهِ لتابَ اللهُ عليهم، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يعني: لَمَّا حصَلَ منهم ما حصَلَ من التحاكُمِ إلى غير كتابِ اللهِ وسنّةِ رسولِهِ ﷺ ﴿جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا عَرْضٌ للتّوبة. ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ لأن استغفارَ

الرّسولِ ﷺ شفاعةٌ منه ﷺ. وهذا في حياته ﷺ، أما بعدَ مماتِه ﷺ فلا يُذهب إلى قبرِه، ولا يُطلب منهُ الاستغفارُ ولا الدّعاء، لأنّ هذا انتهى بموتِهِ ﷺ، ولكن بقي -ولله الحمدُ- كتابُ الله وسنّةُ رسولِهِ ﷺ فيهما الخيرُ، وفيهما البركةُ، وما كانَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يذهبون إلى قبرِه، ويطلبونَ منه ذلك.

ثمَّ قالَ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا ردٌّ على دعواهم الإيمانَ، وهو ردٌّ مؤكَّدٌ بالقسمِ.

﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ من النِّزاعِ والاختلافِ، وهذا عامٌّ في الخُصوماتِ في المذاهبِ والآراءِ الفقهيةِ، وعامٌّ في الخصومِ في المناهجِ الدّعويّةِ التي انقسمَ فيها النّاسُ اليومَ، يجبُ أن يُحكَّم فيها كتابُ الله وسنّةُ رسولِهِ ﷺ، فإن لم يفعلوا فليسوا بمؤمنينَ، لأنَّ اللهَ أقسَمَ سبحانَهُ على نفي الإيمانِ عمن لم يعمَلْ هذا العملَ.

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ أما مَن تحاكَم إلى الشّريعةِ ولكنّه قَبِل الحُكم على مَضَض، وهو يجدُ في نفسِهِ كراهيةً لهذا الحكم فهذا ليسَ بمؤمنٍ، لا بدَّ أن يقبَل هذا الحُكْم عن اقتناعٍ،

ثمَّ قالَ تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ ينقادون انقيادًا تامًا.

والشّاهدُ من الآياتِ للبابِ واضحٌ، أنّها تدلُّ على أنَّ تحكيمَ الشّريعةِ والتحاكُم إليها من توحيدِ اللهِ ﷻ، وأنَّ تركَ ذلك من الشّركِ باللهِ ومن صفاتِ المنافقينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]. **وَقَوْلُهُ:** ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله رحمه الله: «**وَقَوْلُهُ:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾» أي إذا قيلَ للمنافقينَ: لا تُفسدوا في الأرضِ بالمعاصي، ومن أشدِّ المعاصي: التحاكُمُ إلى غيرِ ما أنزلَ اللهُ، وهذا وجهُ إيرادِ الآيةِ في هذا البابِ فصلاحُ الأرضِ إنّما يكونُ بطاعةِ اللهِ عز وجل، وفسادُ الأرضِ إنّما يكونُ بمعصيةِ اللهِ عز وجل.

قالَ رحمه الله: «**وقوله:** ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾» لا تُفسدوا في الأرضِ بالمعاصي، والشِّركِ باللهِ عز وجل، وتحكيمِ غيرِ ما أنزلَ اللهُ، ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بإرسالِ الرُّسلِ وإنزالِ الكتبِ والإيمانِ باللهِ عز وجل.

قال رحمه الله: «**وقوله تعالى:** ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾» هذا استنكارٌ من اللهِ سبحانه وتعالى لِمَنْ يريدُ أن يستبدلَ الشّريعةَ بالقوانينِ الوضعيّةِ، لأنَّ القوانينَ الوضعيّةَ هي حكمُ الجاهليّةِ، لأنَّ حكمَ الجاهليةِ أوضاعٌ وضعوها ما أنزلَ اللهُ بها من سلطانٍ، والقوانينُ الوضعيّةُ أوضاعٌ وضعَها البشرُ، فهي وحكمُ الجاهليّةِ سواءٌ لا فرقَ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَمَنْ﴾ بمعنى: لا، أي: لا أحدَ أحسنُ من اللهِ حكمًا، لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى، عليمٌ حكيمٌ خبيرٌ، يعلمُ ما يصلُح به العبادُ، ويعلمُ حوائجَ النّاسِ، ويعلمُ ما يُنْهِي النزاعاتِ بينَ النّاسِ، ويعلمُ العواقبَ وما تؤولُ إليه، فهو تشريعٌ من عليمٍ حكيمٍ سبحانه وتعالى.

قوله صلى الله عليه وسلم: «**لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ**» هذا نفيٌ للإيمانِ الكاملِ، وليسَ نفيًا للإيمانِ كلِّه.

وَعَن عَبدِ الله بنِ عُمر: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تبعاً لِمَا جِئتُ بِهِ» قَالَ النَّوَوِيُّ(١): حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رُوِّينَاهُ فِي «كِتَابِ الْحُجَّةِ» بِإِسنَادٍ صَحِيحٍ(٢).

وَقَالَ الشَّعبِي(٣): كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ -لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لا يَأخُذُ الرَّشوَةَ- وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليَهُودِ -لِعِلمِهِ أَنَّهُم يَأخُذُونَ الرَّشوَةَ- فَاتَّفَقَا أَن يَأتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَينَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيهِ، ....

وقوله ﷺ: «**حَتَّى يَكُونَ هَواهُ تبعاً لِمَا جِئتُ بِهِ**» معناه: تكونُ محبّتُهُ ورغبتُهُ تابعةً لِمَا جئتُ به، فما جاءَ بِهِ الرّسولُ ﷺ أحبَّه، وما خالفَ ما جاءَ به الرّسولُ ﷺ أَبْغضه، هذا هو المؤمنُ الذي يحبُّ ما جاءَ به الرّسولُ ﷺ ويُبغضُ ما خالفَهُ.

قوله: «**قَالَ الشَّعبِي: كَانَ بَينَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ**» لأنَّه يعرفُ أنَّ محمدًا ﷺ لا يأخذُ الرّشوةُ.

«**وَقَالَ الْمُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليَهُودِ- لِعِلمِهِ أَنَّهُم يَأخُذُونَ الرَّشوَةَ**» والرّشوةُ هي: ما يدفعُهُ أحدُ الخصمين للحاكمِ من أجلِ أن يقضي له.

قوله: «**فَاتَّفَقَا أَن يَأتِيَا كَاهِنًا**» والكاهنُ هو الذي يتلقّى عن الشّياطينِ في استراقِ السمعِ، فالكاهنُ يستخدمُ الشياطينَ، وتُخبرُهُ بأشياءَ من الأمورِ الغائبةِ، فيُخبِر بها الناسَ ويَكْذب معها.

قوله: «**جُهَينَةَ**» وجهينة: قبيلةٌ معروفةٌ، ويقال: إنها حيٌّ من قُضاعَة، وهي قبيلةٌ كبيرةٌ.

---

(١) **النوويُ**: هو مُحْيِي الدين أبو زكريا يحيى بنُ شرفٍ النوويُّ -نسبةٌ إلى نَوَى قريةٍ بالشامِ- وهو إمامٌ مشهورٌ صاحبُ تصانيفَ مفيدةٍ، تُوُفِّي سنة ٦٧٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنَّة» (١٥) والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٦٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٠٤).

(٣) **هو**: عامرُ بنُ شراحيلَ الشعبيُّ، أبو عمرو الكوفيُّ، ثقةٌ حافظٌ فقيهٌ مِنَ التابِعِينَ. قِيلَ ماتَ سنة ١٠٣هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فنزَلَت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ **الآية** [النساء: ٦٠](١).

وَقِيلَ: نَزَلَت فِي رَجُلينِ اختصَما، فقَالَ أَحَدُهُما: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعبِ بنِ الأشرَفِ(٢). ثُمَّ تَرَافَعَا إلى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُما القِصَّةَ. فقَالَ للَّذِي لَم يَرضَ بِرَسُولِ اللهِ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَم. فَضَرَبَهُ بِالسَّيفِ فقَتَلَهُ(٣).

«**فنزلت:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ **[النساء: ٦٠]**».

فيكون هذا أحد القولين في سبب نزول الآية الكريمة.

قوله: «**وَقِيلَ: نَزَلَت فِي رَجُلينِ اختصَما، فقَالَ أَحَدُهُما: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعبِ بنِ الأشرَفِ**» وكَعْب بن الأشرفِ زعيمٌ من زعماءِ اليهودِ.

«**ثُمَّ تَرَافَعَا إلى عُمَرَ**» وكلُّ هذا محاولةٌ للابتعادِ عن حكمِ اللهِ ورسولِهِ ﷺ.

«**فَذَكَرَ لَهُ**» أحدهما «**القِصَّة**» يعني: سببَ مجيئِهما.

«**فَقَالَ**» عمرُ رضي الله عنه: «**للَّذِي لَم يَرضَ بِرَسُولِ اللهِ: أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَم. فَضَرَبَهُ بِالسَّيفِ فقَتَلَهُ**» لأنَّه مرتدٌ عن دينِ الإسلامِ، أو لأنَّه لـم يُسْلِم من الأصلِ، ولكنّه أظهرَ الإسلامَ نفاقًا، والمنافقُ إذا ظهرَ منه ما يعارِضُ الكتابَ والسنَّةَ وَجَب قتلُه دفعًا لشرِّهِ، ولكنَّ النبيَّ ﷺ لم يقتلِ المنافقينَ كعبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ وغيرِهِ، درْءً للمفسدةِ، لئلا يتحدّثَ الناسُ أنَّ محمدًا يقتُل أصحابَه.

---

(١) أخرجه الطبري (٥/ ٩٧)، والواحدي في «أسباب النزول» (٣٢٩).

(٢) **كعبُ بنُ الأشرفِ:** يهوديٌّ عربيٌّ من طيءٍ وأُمُّه مِنْ بَنِي النضيرِ، كان شديدَ العداوةِ للنبيِّ ﷺ.

(٣) علقه الواحدي (٣٣٠) والبغوي في «تفسيره» (١/ ٥٥٢).

الباب الأربعون

بابُ من جَحَد شيئًا من الأسماء والصفات

وَقَولِ الله تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ **الآية** [الرعد: ٣٠]. **وَفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ»: «قَالَ عَلِيٌّ: حَدِّثوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!»**(١).

الشيخ رحمه الله تكلَّم على توحيدِ الألوهيّةِ في معظَمِ أبوابِ هذا الكتابِ، لأنه هو المقصودُ، وتوحيدُ الربوبيةِ دليلٌ عليه، وداخلٌ في ضمنِهِ، ثمَّ ذكَرَ في هذا البابِ توحيدَ الأسماءِ والصّفاتِ، ولم يذكُرْ توحيدَ الرّبوبيّةِ، لأنَّ توحيدَ الرّبوبيّةِ مُعتَرَفٌ به عندَ جميعِ الخلقِ، وتُقِرُّ به حتَّى الأمَمُ الكافرةُ على جاهليّتِها وشركِها، ولكنّه خصَّ بابَ الأسماءِ والصّفاتِ هنا لأنَّ منكريهِ من هذه الأمّةِ من الفِرَق الضَّالّةِ كثيرون.

فأرادَ بهذا البابِ أن يبيّن حكمَ هذه الفِرقِ المخالِفةِ في هذا النوعِ العظيمِ من أنواعِ التوحيدِ. ولهذا قالَ: «**بابُ من جَحَد الأسماء والصّفات**» أي: بيان حكمه.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿وَهُمْ﴾» أي: المشركون.

﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: ينكرونَ هذا الاسمَ الكريمَ، ويَجْحدونه. ويوضّحُ ذلكَ سببُ نزولِ الآيةِ، وهو: أنَّ كُفّارَ قريشٍ لمّا سمعوا رسولَ الله ﷺ يذكُر الرحمنَ، قالوا: وما الرّحمنُ؟ لا نعرفُ الرّحمنَ إلَّا رحمنَ اليمامةِ. يَعْنُون: مسيلِمةَ الكذّاب، فأنزلَ اللهُ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

قال: «**وَفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ: قَالَ عَلِيٌّ**» عليُّ بنُ أبي طالبٍ يخاطِبُ العلماءَ، ويقولُ لهم: «**حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ**» أي: تكلَّموا عندَهم بما يعرفونَ، أي: بما لا تستنكِرُهُ عقولُهم، بل

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧).

وَرَوَى عَبدُ الرَّزَّاقِ[1] عَن مَعمَرٍ[2] عَن ابنِ طَاوسٍ[3] عَن أَبيهِ عَن ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انتَفَضَ -لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عن النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ- استِنكَارًا لِذَلكَ فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عَن مُحْكَمِهِ، وَيَهلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ[4]. انتَهَى.

حدِّثوهم بما تتحمّلُهُ عقولُهم، وتُدركه أفهامُهم، ولا تُسمعوهم شيئًا لا يفهمونَ معناهُ، أو يجهلونه، فيبادِرون إلى تكذيبِهِ فتوقعونَهم في الحَرَجِ.

قوله: «**عن عبد الله بنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عن النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ؛ استِنكَارًا لِذَلكَ فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عَن مُحْكَمِهِ، وَيَهلِكُونَ عِندَ مُتَشَابِهِهِ**» الفَرَق: الخوف. والمُحكَم من النّصوصِ هو: الذي يُفهم معناه من لفظِهِ، ولا يحتاجُ إلى دليلٍ آخرَ يفسِّرُهُ.

والمتشابه هو: الذي لا يُفهَم معناه من لفظِهِ، ويحتاجُ إلى دليلٍ آخرَ يفسِّرُهُ.

فقاعدةُ أهلِ السنّةِ والجماعةِ: أنّهم يردّونَ المُتشابه إلى المحكَمِ، فيفسِّرون بعضَ النّصوصِ ببعضٍ، لأنّها كلَّها كلامُ اللهِ أو كلامُ رسولِهِ ﷺ. وأمّا أهلُ الزّيغِ فإنّهم يأخذونَ المتشابِه، ويترُكون المُحكَم.

فدلَّ قولُه رضي الله عنه: «**يجدون رِقّة عند محكَمه**» على أنَّ آياتِ الصّفاتِ من المُحكَم وليسَتْ من المُتشابه. وفي هذا ردٌّ على أهلِ الضَّلالِ الذينَ يجعلونَ نصوصَ الصّفاتِ من المتشابهِ، ويفوِّضونَ

---

(١) **عبدُ الرزاقِ**: هو عبدُ الرازقِ بنُ همامِ الصنعانيُّ، الإمامُ الحافظُ صاحبُ المصنفاتِ، مات سنةَ ٢١١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) **معمرٌ**: هو أبو عروةَ معمرُ بنُ راشدٍ الأزديُّ البصريُّ، ثقةٌ ثبتٌ، ماتَ سنة ١٥٤هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) **ابنُ طاووسٍ**: هو عبدُ اللهِ بنُ طاووسٍ اليمانيُّ، ثقةٌ فاضلٌ عابدٌ، ماتَ سنة ١٣٢هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) في «المصنف» برقم (٢٠٨٩٥).

وَلَمَّا سَمِعَت قُرَيش رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذكُرُ الرَّحمنَ أَنكَرُوا ذَلِكَ، فَأنزَلَ اللهُ فِيهِم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [سورة الرعد: ٣٠](١).

معناها إلى اللهِ، وهذا ضلالٌ وغلطٌ، بل هي من المُحكَم الذي يُعرف معناه ويفسَّرُ.

فائدة: إنَ إنكارَ الأسماءِ والصفاتِ كفرٌ لقولِهِ تعالى: «﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ **[الرعد:٣٠]**»، ولكنّه كفرٌ فيهِ تفصيلٌ قد يكونُ كفرًا أكبرَ مُخرجًا من المِلّةِ، وقد يكونُ كفرًا أصغرَ لا يُخرجُ من الملّةِ لكنّه ضلالٌ، وهذا بحسبِ حالِ النّافي للأسماءِ والصّفاتِ: هل هو مقلِّدٌ أو غيرُ مقلِّد؟، هل هو متأوِّلٌ أو غيرُ متأوِّلٍ؟

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ١٥٠).

الباب الواحد والأربعون

بابُ قول الله تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣].

....

قولُه ﷻ: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

المفسِّرون -رحِمَهم اللهُ- ذكروا أقوالًا في تفسيرِ هذهِ الآيةِ، وكلُّها صحيحةٌ، ولا تناقُض بينها، لأنَّها كلُّها تدخُل في نعمةِ الله، وكلٌّ منهم يذكُر مثالاً من هذهِ النعمِ. فأقوالُ المفسّرينَ لا تناقضَ بينها، واختلافُهم -كما يقولُ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ-: اختلافُ تنوُّعٍ، وليسَ هو اختلافَ تضادٍّ.

فمنهم مَن قالَ: المرادُ بقولِهِ: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: بِعثة مُحَمَّد ﷺ، ولا شكَّ أنَّ هذهِ النعمةَ هي أكبرُ النعمِ،

ومنهم مَن قال: المرادُ بالنعمةِ: كلُّ ما ذكرَهُ اللهُ في هذهِ السّورةِ من أصنافِ النِّعَم.

لأنَّ قولَه: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ مفردٌ مضافٌ، فيعمُّ جميعَ النِّعم، فقولُه تعالى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي: يعرفون نِعَمَ الله المذكورةَ في هذهِ السورةِ، ولا يَجْحدونها في قَرارةِ أنفسِهم، ولكنَّهم بألسنتِهم ينسبونها إلى غيرِ الله ﷻ، أو بالعكس، يتلفَّظونَ بأنَّ هذهِ النَّعَم من اللهِ، ولكنَّهم في قلوبِهم يعتقدون أنَّها من غيرِه.

﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ المُراد بإنكارِها: جُحودُها، إما باللّسانِ وإمَّا بالقلبِ، بأن تُنسَب إلى غيرِ مَن أنعمَ بها، إما أن تُنسبَ إلى الأسبابِ، وإمّا أنْ تُنسب إلى الأصنامِ والآلِهةِ، وإمَّا أن تُنسبَ إلى الآباءِ والأجدادِ، وإمّا أن تُنسبَ إلى كَدِّ العبدِ وكسبِه وحِذْقِه ومعرِفَته وإما بصرفِها في معصيةِ اللهِ. فما ذكرَهُ الشيخُ رحمه الله في هذا البابِ إنما هو أمثلةٌ لكُفرانِ النعمةِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ[١] **مَا مَعنَاهُ: هُوَ قَولُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَن آبَائِي**[٢]**. وَقَالَ عَونُ**[٣] **بنُ عَبدِ الله: يَقُولُونَ: لَولَا فُلَانٌ، لَم يَكُن كَذَا**[٤]**. وَقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ**[٥]**: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفاعَةِ آلِهَتِنَا.**

قوله: «**هَذَا مَالِي وَرِثْتُهُ عَن آبَائِي**»، فلا يَنْسِب حصولَ المالِ إلى الله ﷻ، وإنما ينسِبُه إلى آبائِهِ وأجدادِهِ.

قوله: «**وَقَالَ عَونُ بنُ عَبدِ الله: يَقُولُونَ: لَولَا فُلَانٌ، لَم يَكُن كَذَا**» وهذا لا يجوزُ، لأنَّ فيه نِسبةَ النعمةِ إلى غيرِ الله، والذي يجوزُ ما أرشدَ إليه النَّبيُّ ﷺ: أن تقولَ: **(لولا الله، ثُمَّ فلان)**، لأنّك نسبتَ النعمةَ إلى اللهِ، وذَكَرْتَ أنّ فلانًا إنّما هو سببٌ فقط، لأنَّ **(ثُمَّ)** للترتيبِ والتعقيبِ.

قوله: «**وَقَالَ ابنُ قُتَيبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفاعَةِ آلِهَتِنَا**» يعني: يقولُ المشركونَ: هذا الذي حصَلَ من الخيرِ ومن النّفعِ إنما هو بشفاعةِ آلهتِنَا. يعني: أنَّ آلهتَهم شفعتْ عندَ اللهِ في حصولِها، لأنَّ المشركينَ الذينَ يعبُدون غيرَ اللهِ لا يعتقدونَ أن معبوداتِهم هي التي تخلُق وترزُق، وإنما يعبدونَها لاعتقادِ أنّها تشفَع لهم عندَ الله، وهذا كذِبٌ، لأنَّ اللهَ بيَّنَ الشفاعةَ الصحيحةَ، وهي ما توفَّرَ فيها شرْطانِ، إذْنُ اللهِ للشَّافعِ أَنْ يشفعَ، ورضاهُ عن المشفوعِ فيه بأن يكونَ من أهلِ التّوحيدِ.

---

(١) **مجاهدٌ**: هو شيخُ التفسيرِ مجاهدُ بنُ جبرٍ المكيُّ الإمامُ الربانيُّ مِنْ تلاميذِ ابنِ عباسٍ، ماتَ سنة ١٠٤هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه الطبري (١٤/ ١٥٨).

(٣) **عونٌ**: هو عونٌ بنُ عبدِ الله بنِ عتبةَ بنِ مسعودٍ الهذليُّ، ثقةٌ عابدٌ، ماتَ حوالي سنة ١٢٠هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) أخرجه الطبري (١٤/ ١٥٨).

(٥) **ابنُ قتيبةَ**: هو عبدُ اللهِ بنُ مسلمِ بنِ قتيبةَ الدينوريُّ الحافظُ صاحب التفسيرِ وغيرِهِ مِنَ المؤلفاتِ، مات سنة ٢٧٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ(١)- بَعدَ حَدِيثِ زَيْد بنِ خَالِد الَّذِي فِيهِ: «أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ: أصبَحَ مِن عِبادِيَ مُؤمِنٌ بِي وَكَافِر» الحَدِيث وَقَد تَقَدَّمَ(٢) وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنعَامَهُ إِلى غَيرِهِ وَيُشرِكُ بِهِ. قَالَ بَعضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَولهم: كَانَت الرِّيحُ طَيبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقًا ....

قوله: «**قَالَ أَبُو العَبَّاسِ بَعدَ حَديثِ زَيْد بنِ خَالِد الَّذِي فِيهِ: أَنَّ الله تَعَالَى قَالَ: «أصبَحَ مِن عِبادِيَ مُؤمِنٌ بِي وَكَافِر فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذا وَكَذا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**».

ثُمَّ قالَ أبو العباسِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به**» فكلُّ مَنْ أضافَ نعمَ الله إلى غيرِهِ فقَدْ كفرَ نعمةَ الله، وأشركَ بهِ.

وهذا الشركُ وكفرُ النعمةِ ليسَ من الكفرِ والشركِ المخرجِ مِنَ الملّةِ، إذا كانَ الإنسانُ يعتقدُ أن إضافةَ النعمةِ إلى الشّيءِ من إضافةِ المُسبِّب إلى سببِهِ، وإنّما المُنْعم هو اللهُ، وأضافَها إلى السبب مُجرَّد مجازٍ، فهذا كفرٌ أصغرُ. أما إذا اعتقدَ أنَّ النعمَ من إحداثِ المخلوقِ ومن صُنعِ المخلوقِ، فإنَّ هذا كفرٌ أكبرُ يُخرِجُ من الملّةِ.

قال المصنفُ: «**قَالَ بَعضُ السَّلَفِ**» المرادُ بالسَّلَف: القُرونُ المفضَّلةُ، وصَدْر هذهِ الأمةِ.

قوله: «**هُوَ كَقَولهم: كَانَت الرِّيحُ طَيبَةً، وَالمَلَّاحُ حَاذِقًا**» يعني أنَّ من إنكارِهم لنعمةِ الله أنهم إذا ساروا في البحرِ في السُّفُنِ التي كانَتْ تسيرُ بالرِّيح إذا نجَوْا من البحرِ وخرجوا إلى البرِّ يُثنون على الرِّيح وعلى الملّاح، ولا يقولونَ: هذا بفضلِ الله، بل يقولونَ: كانتِ الريحُ التي حملَتِ

---

(١) **أبو العباس**: هو شيخُ الإسلامِ أحمدُ بنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) تقدم في باب (٢٩): باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء. وانظر تخريجه هناك.

وَنَحوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلسِنَةِ كَثِيرٍ.

السفينةَ طيِّبةً.

«**وكان الملَّاح حاذقًا**» الملَّاح هو قائدُ السفينةِ، سُمِّي ملَّاحًا لملازمتِهِ للماءِ المِلْح، والحاذق: الذي يجيدُ المهنةَ.

وكانَ الواجبُ عليهم أنْ يقولوا: إنَّ اللهَ هو الذي نجَّانا، وهو الذي سخَّرَ لنا الرِّيحَ الطيِّبةَ، وهو الذي أَقْدَر قائدَ السَّفينةِ وألهَمَه أن يقودَها إلى برِّ السلامةِ. أما أن يقولوا: إنَّ نجاتَنا وخُروجَنا إلى البرِّ بسببِ طيبِ الريحِ وحِذقِ القائدِ، فهذا كفرٌ بنعمةِ الله ﷻ.

وقوله: «**وَنَحوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلسِنَةِ كَثِيرٍ**» يعني: نحوَ هذهِ الألفاظِ ممَّا يجري على ألسنةِ كثيرٍ من الناسِ من نِسْبةِ النِّعَم إلى غيرِ الله ﷻ، إمَّا من بابِ التساهُلِ في التعبيرِ، وإمَّا من بابِ سوءِ الاعتقادِ، فإنْ كانَ من سوءِ الاعتقادِ فهو كفرٌ يخرجُ من الملّةِ، وإنْ كانَ من بابِ الإساءةِ في التعبيرِ معَ الاعتقادِ بأنَّ اللهَ هو الذي أوجَدَ هذا الشيءَ: فهذا كفرٌ أصغرُ، يُسمَّى بكفرِ النّعمةِ.

الباب الثاني والأربعون

بابُ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

....

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نادى النَّاسَ جميعًا، المؤمنَ والكافرَ، والعربيَّ والعَجميَّ.

وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هذا أمرٌ من اللهِ ﷻ بعبادتِهِ وحدَه لا شريكَ له، وتركِ عبادةِ ما سواه.

ومعنى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وحّدوا ربّكم، وأفرِدُوهُ بالعِبادة، لأنَّ العربَ في وقتِ نُزولِ القرآنِ كثيرٌ منهم يعبُدونَ اللهَ، ولكنَّهم يعبُدونَ معه غيرَه.

ثمَّ ذكَرَ الدليلَ على وُجوبِ عبادةِ اللهِ تعالى فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ لأنَّ العبادة لا تصلُح إلَّا للخالِقِ ﷻ، فالذي لا يَخلُق لا يصحُّ أن يُعبَد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا ذكرتُمْ بأنّه هو الخالِقُ لكم ولمن قَبْلَكم، لعلَّ تذكُّركم لذلكَ يبعثُكُم على تقوى اللهِ ﷻ، فتعبُدونه وتتّقونَ عذابَه.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، تجلسونَ عليها، وتنامونَ عليها، وتعيشونَ على ظهرِها، وتُدفنونَ في بطنِها إذا متّم، وتُبعثون منها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ يعني: سقفًا، لأنَّ السماءَ فوقَ الأرضِ، وجعلَ اللهُ فيها الكواكِبَ

وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ في الآيَةِ: الأندَادُ: هُوَ الشِّركُ..........................

والشمسَ والقمرَ التي بها مصالِحُ العبادِ، وَحَفِظَها من الشياطينِ.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ.

﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ بهذا المطرِ.

﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ هذا المطرُ ماءٌ واحدٌ ومع هذا يُخرِجُ اللهُ بِهِ ثمراتٍ مختلِفةً ومتنوّعةً، والتُّربةُ واحدةٌ، ومع هذا يُخرِجُ في هذهِ التُّربة ومن هذا الماءِ أصنافًا من الثّمراتِ مختلفَة الطُّعومِ، ومختلفةَ الألوانِ، مختلفةَ الرّوائحِ، مَن الذي نظّمَها هذا التنظيمَ؟! هو اللهُ ﷻ.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ تأكُلونَ منه قوتًا ويتفكَّهونَ به فواكهَ متنوّعةً،

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هذا نهيٌ من اللهِ ﷻ عن الشركِ بعدَ الأمرِ بالتوحيدِ.

أي: فلا تجعلوا للهِ نُظراء وأمثالاً تشبِّهونَهم به، وتُشركونَهم معهُ في العبادةِ، وهم خلْقٌ مثلُكم لا يملكونَ لأنفسِهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا نِدّ له ﷻ، وتعلمونَ أنَّ أحدًا لم يشارِكِ اللهَ في خلقِهِ وفي تدبيرِهِ.

قال: «**وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ في الآيَةِ: الأندَادُ هُوَ الشِّركُ**» الشركُ منه نوعٌ جليٌّ واضحٌ كالذبحِ لغيرِ اللهِ، والنّذرُ لغيرِ اللهِ، ودُعاءُ غيرِ اللهِ، والاستغاثةُ بغيرِ اللهِ،

وهُناك شركٌ خفيٌّ، وهو نوعانِ:

النّوع الأول: شركٌ في المقاصدِ والنيّاتِ، وهذا خفيٌّ لأنّه في القُلوبِ، والقُلوبُ لا يعلمُ ما فيها إلَّا الله ﷻ، كالذي يُصلِّي، لكِنْ يُصلِّي رياءً وسُمعةً، وهذا لا يعلمَه إلَّا اللهُ.

أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَى صَفاةٍ سَودَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ. وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَالله وحياتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَياتِي وَتَقُولَ: لَولَا كُلَيبَةُ هَذَا لَأَتَانا اللُّصُوصُ. وَلَولَا البَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَانا اللُّصُوصُ. وَقَولُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ. وَقَولُ الرَّجُلِ: لَولَا الله وَفُلَانٌ. لَا تَجعَل فِيهَا فُلَانًا؛ هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِركٌ. رَوَاه ابنُ أَبِي حَاتِم(١).

والنوع الثاني: شركٌ خفيٌّ، لأنّه لا يعلمُهُ كثيرٌ من النّاسِ، وهو الشركُ في الألفاظِ دونَ الاعتقادِ، وهو المذكورُ هنا.

قالَ ابنُ عباسٍ: «**الشِّركُ أَخفَى مِن دَبِيبِ النَّملِ عَلَى صَفاةٍ سَودَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ**» سُمّي خفيًّا: لأنه قَلَّ مَنْ يتنبَّهُ له.

ثمَّ ضرَب له أمثلةً بكلماتٍ يقولُها بعضُ النّاسِ بألسنتِهم.

«**وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: وَالله وحياتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَياتِي**» فالحلِفُ بغيرِ اللهِ من الشركِ الذي يجري على ألسنةِ كثيرٍ من النّاسِ، ولا يعلمونَ أنهُ شركٌ،

والحلفُ بغيرِ اللهِ شركٌ أصغرُ، إنْ كانَ لا يَقْصِدُ تعظيمَ المحلوفَ بِهِ كما يُعظِّم اللهَ. وإنْ كانَ يقصدُ تعظيمَ المحلوفَ بِهِ مثل ما يعظِّم اللهَ فإنَّ الحلفَ يكونُ شركًا أكبرَ.

ومن الشركِ في الألفاظِ قولُ الرَّجلِ: ما شاءَ اللهُ وشئتَ، لولا اللهُ وفُلانٌ. لأنه لا يجوزُ الجمعُ بينَ اللهِ وغيرِه بالواو، لأنَّ الواوَ تقتضي التشريكَ.

والصّواب: ما أرشد إليه النّبيُّ ﷺ أن تقولَ: ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ شاءَ فلانٌ. لأنَّ (**ثُمَّ**) ليسَتْ للتشريكِ، وإنَّما هي للترتيب، وجعلَ مشيئةَ المخلوقِ بعدَ مشيئةِ الخالقِ،

---

(١) في «تفسيره» برقم (٢٢٩).

وَعَن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَن حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَد كَفَرَ، أَو أَشرَك» رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ(١) وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الحَاكِمُ(٢). وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ: لَأن أَحلِفَ بِالله كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَحلِفَ بغَيرِهِ صَادِقًا(٣). وَعَن حُذَيفَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَفُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ مَا شَاءَ فُلَانٌ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(٤) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

قوله ﷺ: «**مَنْ حلفَ بِغَيْرِ الله**» أي: أقسمَ بغيرِ الله، كأَنْ يقولَ: والنّبي، أو يقولَ: والأمانةِ، أو يقولَ: وحياتِكَ ما فعلتُ كذا، أو ما أشبهَ ذلك.

«**فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**» وهذا إمّا شكٌّ من الراوي، أو أنّ (أو) بمعنى (الواو)، فيكونُ المعنى: «**فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»، يعني: جَمَعَ بينَ الكفرِ والشّركِ.

قوله: «**وَقَالَ ابنُ مَسعُودٍ: لَأن أَحلِفَ بِالله كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِن أَن أَحلِفَ بِغَيرِهِ صَادِقًا**» الكذبُ حرامٌ، وكبيرةٌ من كبائرِ الذّنوبِ، ولكنّه أسهلُ من الحلفِ بغيرِ الله، لأنَّ الحلِفَ بغيرِ اللهِ شركٌ، والحلفُ بالله كاذبًا محرمٌ ومعصيةٌ، ولكنه دون الشركِ، لأنَّ الشركَ أكبرُ الكبائرِ.

قوله ﷺ: «**لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ الله وَفُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ مَا شَاءَ فُلَانٌ**» هذا نهيٌ من الرّسولِ ﷺ عن الجمعِ بينَ اللهِ وبينَ المخلوقِ في المشيئةِ؛ لأنَّ (الواو) لمطلقِ الجمعِ والتّشريكِ، فكأنَّك جعلتَ المشيئةَ صادرةً من اللهِ ومن المخلوقِ، وهذا شركٌ في اللّفظِ وتصحيحُ العبارةِ أَنْ يُقالَ: «**مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**».

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥) وأبو داود (٣٢٥٢) وأحمد (٢/ ٣٤ و٨٦).

(٢) في «المستدرك» (١/ ١٨ و٤/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٥٩٢٩) وابن أبي شيبة (١٢٢٨١) والطبراني (٨٩٠٢).

(٤) برقم (٤٩٨٠).

وَجَاءَ عَن إِبرَاهِيمَ النَّخعِي: أَنَّهُ يَكرَهُ أَن يَقُولَ: أَعُوذُ بِالله وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَن يَقُولَ: بِالله ثُمَّ بِكَ. قَالَ: وَيَقُولُ: لَولَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ. وَلَا تَقُولُوا: وَلَولَا اللهُ وَفُلَانٌ.

قوله: «**وَجَاءَ عَن إِبرَاهِيمَ النَّخعِي: أَنَّهُ يَكرَهُ أَن يَقُولَ: أَعُوذُ بِالله وَبِكَ**» الاستعاذةُ نوعٌ من أنواعِ العبادةِ، لا يجوزُ صرفُها إلَّا لله ﷻ، فلا يجوزُ أَنْ تقولَ: «**أَعُوذُ بِالله وَبِكَ**»، لأنَّك إذا قلتَ هذا شرَّكتَ بينَ الخالِق والمخلوقِ، والتجأتَ إليهما جميعًا، وهذا شركٌ، لكنَّ تصحيحَ العبارةِ أَنْ تقولَ: (أعوذ بالله، ثم بك) ف (ثُمَّ) تجعلُ الالتجاءَ إلى المخلوقِ بعدَ الالتجاءِ إلى الخالقِ ﷻ.

وقوله: «**وَيَقُولُ: لَولَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ. وَلَا تَقُولُوا: وَلَولَا اللهُ وَفُلَانٌ**» سَبَقَ شرحُهُ.

الباب الثالث والأربعون

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ...

قوله: «**باب ما جاء فيمن لم يَقنع بالحلف بالله**» يعني: ما جاءَ فيهِ من الوعيدِ، وأنّه ينقِّصُ التّوحيدَ، لأنَّ الذي لا يقنعُ بالحلفِ بالله لا يعظِّم الله ﷻ حقَّ التّعظيم، لأنَّه لو كانَ يعظِّمُ اللهَ حقَّ التعظيمِ لرضيَ بالحلفِ به، وهذا ينقِّصُ التوحيدَ. هذا وجهُ المناسبةَ لعقدِ هذا البابِ في كتابِ التوحيدِ.

ثم ذَكَرَ الحديثَ عن ابنِ عمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**» سبَقَ في البابِ الذي قَبلَه النهي عن الحلفِ بغيرِ الله، وأنه شركٌ أو كفرٌ، وهو يختلفُ باختلافِ الحالِفين: مَن كان يعظِّم المحلوفَ به كما يعظِّم اللهَ فهو شركٌ أكبرُ، ومَن كان لا يعظِّمُهُ كتعظيمِ الله بل عندَه نوعُ تعظيمٍ لا يساوي تعظيمَ الله، فإنّه يكونُ شركًا أصغرَ.

وقوله ﷺ: «**لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ**» ليسَ هذا خاصًّا بالآباءِ، فالحلفُ بغيرِ الله لا يجوزُ، سواءٌ كان بالآباءِ أو بِغيرِهم، فذِكْرُهُ الآباءَ هو من بابِ ذكرِ بعضِ أفرادِ المَنْهيِّ عنه، لأنَّ عادتَهم أن يحلفوا بالآباءِ.

قوله: «**وَمَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُق**» هذا أمرٌ من النبيِّ ﷺ أنَّ الحالفَ بالله يجبُ عليه أن يصدُق، فلا يحلِفُ بالله كاذبًا، لأنَّ من حلَفَ بالله هو كاذبٌ فقد استهانَ بعظمةِ الله ﷻ، والحلفُ بالله كاذبًا هي اليمينُ الغَموسُ، سُمِّيت بذلكَ لأنَّها تغمسُ صاحبَها في الإثمِ ثمَّ في النَّارِ -والعياذُ بالله-.

وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِالله فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» رَوَاهُ ابنُ مَاجَه[1] بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

وقوله: «**وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ**» هذا محلُّ الشاهِدِ من الحديثِ للبابِ، فليرضَ باليمينِ باللهِ تعظيمًا لله سُبْحانه، وهذا يدلُّ على كمالِ التوحيدِ. ثمَّ الحالفُ إنْ كانَ صادقًا فهو على ما حلَفَ، وإنْ كانَ كاذبًا فإثمُه عليه.

قوله: «**وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ**» هذهِ براءةٌ من اللهِ ممَّن لم يقنَعْ بالحلفِ به، وهذا وعيدٌ شديدٌ.

(١) برقم (٢١٠١).

الباب الرابع والأربعون

باب قول: ما شاء الله وشئت

عَن قُتَيلَةَ[١]: أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ. فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَن يَقُولُوا: مَا شَاءَ الله ثُمَّ شِئْتَ. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[٢] وَصَحَّحَهُ.

قال الشيخُ رحمه الله: «**باب قول: ما شاء الله وشئت**» يعني: ما ورَدَ في ذلكَ من النَّهي، وأنَّه شركٌ وتنديدٌ، لأَنَّكَ إذا قلتَ ذلكَ شرَّكْتَ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في المشيئةِ، حيثُ عطفتَ بالواوِ، والواو تقتضي التشريكَ، فهذا شركٌ في الرّبوبيّةِ، وهو لا يجوزُ، وإنْ كانَ القائلُ لا يعتقدُ هذا في قلبِهِ، فهو شركٌ في اللفظِ منهيٌّ عنه.

قوله: «**أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ الله وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ**» هذا اليهودي عرَفَ أنَّ هذا شركٌ، وأقرَّهُ النَّبيُّ ﷺ على ذلكَ، ووجّهَ أمَّته أن يستبدلوا هذه الألفاظَ بألفاظٍ صحيحةٍ، فيقولوا «**وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ**».

فقوله: «**قولوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ**» ربُّ الكعبةِ هو اللهُ سبحانه وتعالى، والكعبةُ: بَيْتُ الله، فلا يحلفُ بالكعبةِ، وإنَّما يحلفُ بربِّ الكعبةِ، هذا هو البديلُ الصحيحُ الخالي من الشركِ.

وقوله: قولوا: «**مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ**»، هذا اللفظُ الصحيحُ: أن تأتي بـ(ثُمَّ) بدلَ (الواو)، لأنَّ (الواو) للتشريكِ بينَ الخالقِ والمخلوقِ في المشيئةِ، أما (ثُمَّ) فإنّها للتّرتيبِ حيثُ جعلَتْ

---

(١) **قُتيلةُ**: بضمِّ القافِ وفتحِ التاءِ مصغرًا بنتُ صيفيٍّ الجهنيةُ صحابيةٌ رضي الله عنها.

(٢) برقم (٣٧٧٣).

وَلَهُ[1] أَيضًا عَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ الله وَشِئتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلتَنِي لله نِدًّا؟ مَا شَاءَ الله وَحدَهُ». وَلابنِ ماجَه[2]: عَن الطُّفَيلِ[3] -أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا- قَالَ: رَأَيتُ كَأَنِّي أَتَيتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ؛ فَقُلتُ: إِنَّكُم لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ الله ....

مشيئةَ المخلوقِ بعدَ مشيئةِ الخالقِ.

قوله ﷺ: «**أَجَعَلتَنِي لله نِدًّا؟ قل: مَا شَاءَ الله وَحدَهُ**» يعني: أجعلتني شبيهًا لله ومثيلًا لله وشريكًا له في المشيئةِ، ثم أمرَهُ أن يستبدلَ هذهِ اللفظةَ بلفظةِ التّوحيدِ فيقولُ: ما شاء اللهُ وحدَهُ.

وهذا إرشادٌ إلى الأكملِ أن يقولَ: ما شاءَ اللهُ وحدَهُ، وإذا قالَ: ما شاءَ اللهُ، ثُمَّ شئتَ. فهذا بيانٌ للجائزِ، فلا تعارُض بينَ الحديثينِ.

«**قَالَ: رَأَيتُ**» يعني في النّوم. والرؤيا حقٌّ، وهي جزءٌ من ستّةٍ وأربعينَ جزءًا من النّبوّةِ.

قوله: «**كَأَنِّي أَتَيتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ**» النفر: الجماعة،

قوله: «**قُلت: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ**» هذا مدحٌ لهم، لأنّهم كانوا في الأصلِ على دينٍ صحيحٍ.

«**لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ الله**» ينسِبون الولدَ إلى الله ﷻ، و«**عُزَيْر**» اسمُ رجلٍ منهم، قيلَ: إنّه نبيٌّ، وقيلَ: إنّه رجلٌ صالحٌ وعالِمٌ من علمائِهِم.

«**لَوْلَا أَنَّكُمْ**» يعني: لولا هذهِ المقولةُ الكافرةُ فيكم.

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه مختصرًا (٢١١٨م)، وأحمد (٥/ ٧٢ و٣٩٨).

(٣) **الطفيلُ**: هو الطفيلُ بنُ عبدِ الله بنِ الحارثِ بن سخبرةَ الأزديُّ صحابيٌّ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، وليسَ لَهُ إلَّا هذا الحديثُ.

قَالَوا: وَإِنَّكُمْ لأنتم الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مررتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلت: إِنَّكُم لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ الله. قَالَوا: وَإِنَّكُمْ لَأنتُم الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحتُ أَخْبَرتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرت، ثُمَّ أَتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلتُم كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ».

«قَالُوا» ردًّا على الطُّفيل، «وَأَنْتُمُ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ» يمدحونَ المسلمينَ.

«لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ» فيه: أنَّ الإنسانَ يرى عيبَ غيرِهِ، ولا يرى عيبَ نفسِهِ، وإن كانَ عيبُهُ أكبرَ من عيبِ غيرِهِ. وفيه: قبولُ الحقِّ ممَّنْ جاءَ به.

قال: «ثُمَّ مَرَرْتُ عَلَى نفرٍ مِنَ النَّصَارَى» النصارى: أتباعُ عيسى عليه السلام في الأصلِ.

«فَقُلتْ: إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ الله» وهو عيسى ابنُ مريمَ، ثمَّ ردَّ عليه النَّصارى بمثلِ ما قاله اليهودُ، قال طُفيلٌ: «فَلَمَّا أَصْبَحتُ أَخْبَرتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرت، ثُمَّ أَتيتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعدُ

فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلتُم كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا» قيل: كان يمنعُ النبيَّ ﷺ الحياءَ، لأنَّه لم ينزِلْ عليه وحيٌ في المنعِ منها.

«فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلكِن قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحدَهُ» لَمَّا نبَّههم على خطأِ هذهِ الكلمةِ أرشدهم إلى البديلِ الصالحِ منها، وهو أن يقولوا: ما شاءَ اللهُ وحدَه.

□

الباب الخامس والأربعون

باب من سبّ الدهر فقد آذى الله

وَقَولُ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ **الآية** [الجاثية: ٢٤].

قال الشيخُ رحمه الله: «**باب من سبّ الدهر**» السبُّ معناه: الذَّمُ والتنقُّص، والدَّهر المرادَ به: الزمانُ والوقتُ.

ومعنى «**آذى الله**»: أنَّ اللهَ تعالى يبغضُ ذلكَ ويكرهُهُ، لأَنَّه تنقُّصٌ لله تعالى، ولكنَّه لا يتضرَّرُ بذلكَ، لأَنَّه اللهُ لا يضرُّه شيءٌ: ووجهُ كونه يتأذّى بسبِّ الدهرِ: لأنَّ السبَّ يكونُ مُتوجِّهًا إليه، لأَنَّه هو المتصرِّفُ الذي يجري في قدَرِهِ وقضائِهِ الخيرَ والشرّ والمكروهَ والمحبوبَ، أما الدهرُ فإنّما هو زمانٌ ووقتٌ للحوادِث، لا أنَّ الدهرَ نفسَه هو الذي يتصرَّفُ ويُحدِث هذه الحوادثَ التي تجري فيه.

ثمَّ ساقَ الشيخُ رحمه الله الآيةَ، وهي قولُه تعالى عن المشركين: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] ذكر الله تعالى في هذهِ الآيةِ عن المشركينَ، الذينَ بُعث إليهم رسولُ الله ﷺ أنَّهم يُنكرونَ البعثَ ويستبعدونه، فهم ينكرونَ البعثَ والنشورَ ويقولونَ: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، ما هناكَ حياةٌ أُخرى بعد هذهِ الحياةِ، ما هناكَ إلَّا الحياةُ التي نَحْنُ فيها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: يموتُ ناسٌ ويولَد ناس، كما يقولون: أرحامٌ تدفَعُ، وأرضٌ تبلَعُ.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أي: أنّ سببَ الموتِ إنما هو طولُ العمرِ طولُ الحياةِ، الإنسانُ يعمِّرُ ثم يَهْرَم ثمَّ يموتُ، أو سبب المَوْت هو: حوادثُ الدهرِ، فينسبون الهلاكَ إلى الدهرِ.

فِي «الصحيح»(١) عَن أَبِي هُرَيرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ الله تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، ....

وإذا أصابَهم قحطٌ أو انحباسُ مطرٍ نسبوهُ إلى الدّهرِ، وإذا أصابَتْهم مجاعةٌ أو أصابهم قتلٌ أو مرضٌ نسبوهُ إلى الدهرِ، ويزعمون أنّ هذا من تصرُّفِ الدهرِ، ولذلك يهجونَ الدهرِ في أشعارِهم.

وهذا في الحقيقةِ إنّما هو ذمٌّ لله ﷻ، لأنَّ الدهرَ ليسَ في مقدورِهِ شيءٌ، فليس هو الذي يصدِرُ هذه المجرَياتِ، وإنَّما هي صادرةٌ عن اللهِ ﷻ، فمن ذَمَّ الدهرَ فقد ذمَّ اللهَ سبحانه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ يعني: ما لهم دليلٌ على هذا، بل الدليلُ على العكس، على أنَّ الدهرَ ليسَ له تصرُّف وإنَّما التصرُّف هو للخالقِ ﷻ.

ثمَّ قالَ: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ يعتمدونَ على الظنّ، والظنُّ ﴿لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨].

هذا هو المنطقُ الصحيحُ في لسانِ المناظراتِ، أما مجرّدُ الوهمِ ومجرّدُ الظنِّ فلا يُبنى عليهِ مثلَ هذا الأمرِ العظيمِ، وهو إنكارُ البعثِ.

ثمَّ ساقَ الشيخُ الحديثَ، وهو من الأحاديثِ القدسيّةِ، والحديثُ القدسيُّ: هو الذي يرويهِ النبيُّ ﷺ عن ربِّه، فهو كلامُ اللهِ ﷻ.

يقولُ ﷻ: «**يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ**» اللهُ يتأذّى ببعضِ أفعالِ عبادِهِ، لكنَّهُ لا يتضرَّرُ بها.

ثمَّ فسَّر ذلك الأذى بقولِهِ: «**يَسُبُّ الدَّهْرَ**» والدهرُ ليس محلًّا للسّبِّ، فيكونُ محلُّ السبِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) ومسلم (٢٢٤٦).

وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ». وَفِي رِوَايَةٍ[1]: **«لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»**.

هو اللهُ ﷻ، لأنَّه هو الذي خلَقَ أو أوجدَ هذا الأمرَ الذي يكرَهُهُ هذا الإنسانُ، فإذا سبَّ الدهرَ فقد سبَّ الفاعلَ وهو اللهُ ﷻ، والواجبُ على أهلِ الإيمانِ أنه إذا أصابَهم ما يكرهونَ أن يعتبروا أنَّ هذا قضاءٌ من اللهِ وقدرٌ، وأنّه من اللهِ ﷻ، وأنَّه لم يخلُقْهُ عبثًا، وأنَّه بسببِ الذّنوبِ والمعاصي، فيتوبُ المؤمنُ، ويصبرُ على المصيبةِ، ويحتسبُ الأجرَ عندَ اللهِ ﷻ،

ثم بيَّن معنى قولِهِ: «**وَأَنَا الدَّهْرُ**» فقال: «**أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وليس معناه: أنَّ اللهَ يُسمّى الدَّهر، فليس الدَّهرُ من أسماءِ اللهِ، والحديثُ يفسِّر بعضُه بعضًا، فمن زعَمَ أنَّ (الدهر) من أسماءِ اللهِ فقد غلِط.

«**وفِي رواية: لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ**» هذا نهي، والنَّهي يقتضي التحريمَ.

ثمَّ علَّلَ ذلكَ بقوله: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ**» يعني: مَن سبَّ الدهرَ فقد سبَّ اللهَ، لأنَّ اللهَ هو الخالقُ ﷻ، وهو الذي أجرى هذا الحادثَ الذي يكرهُهُ العبدَ ويتألّم منه، فإذا سبَّ الدهرَ فقد سبَّ الفاعلَ وهو اللهُ ﷻ.

---

(١) لمسلم (٢٢٤٦).

الباب السادس والأربعون

باب التسمّي بقاضي القضاة ونحوه

فِي «الصَّحِيحِ» عن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ، رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَملَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»(١).

قوله: «**التَسمِّي بقاضي القُضاة ونحوه**» يعني: كلَّ اسمٍ فيه تعظيمٌ شديدٌ للمخلوقِ من الألقابِ والأسماءِ التي فيها التعظيمُ الذي لا يليقُ إلَّا بالله ﷻ: مثلَ (**مَلِكَ الأَمْلَاكِ**) و(**سيِّد السادات**)، وما أشبهَ ذلكَ من الألقابِ الضَّخمةِ التي يتلقَّبُ أو يتسمَّى بها بعضُ الجبابرةِ أو المستكبرينَ. وكلُّ هذا يُخلُّ بعقيدةِ التوحيدِ، لأنَّ عقيدةَ التوحيدِ تدورُ على توحيدِ الله ﷻ، وعلى تنزيهِ اللهِ عن المشابَهةِ والمماثَلةِ، فمن تسمَّى باسمٍ لا يليقُ إلَّا باللهِ على وجهِ التعاظُم فهذا فيه تشبيهٌ بأسماءِ الله ﷻ.

فمثلًا: (**قاضي القضاة**) هذا لا يليقُ إلَّا لله ﷻ، لأنَّ اللهَ ﷻ الذي يقضي بين الناسِ يومَ القيامةِ القضاءَ النهائيّ، يقضي بينَ جميعِ الخلْقِ، فالقضاءُ المطلَق هو للهِ ﷻ، فلا يليقُ أَنْ يُقالَ للمخلوقِ: (**قاضي القُضاة**).

فالمناسبُ أن يقالَ: (**رئيس القضاة**)، بمعنى: أنه يُرجعُ إليه في أُمورِ القضاءِ وتنظيماتِهِ ومُجرياتِهِ.

وكذلكَ: «**مَلِكَ الأَمْلَاكِ**»، لأنَّ المُلكَ المطلقَ للهِ ﷻ، وهو المُلْكُ الدائمُ الشاملُ، أما مُلْكُ المخلوقِ فهو مُلكٌ جزئيٌ ومؤقتٌ.

فالشيخُ ﷺ ترجَمَ بقاضي القُضاةِ لأنَّ كلمةَ (**قاضي القضاة**) تدخُلُ في «**مَلِكَ الأَمْلَاكِ**»،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣).

قَالَ سُفيَان(١): مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ(٢). وَفِي رِوَايَةٍ(٣): «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ». قَولُهُ: أَخنَع يَعنِي: أَوضَع.

فإذا نُهي عن كلمةِ «**مَلِكَ الأَمْلَاكِ**» فإنّ (**قاضي القُضاة**) تأخُذ حكمَها،

«**فِي الصَحيح: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: إِنَّ أَخْنَعَ**» فسَّرها المؤلِّفُ في آخرِ البابِ: «**أَخْنَعَ يعني: أَوْضَعَ**» فهذه الكلمةُ إذا أُطلِقَتْ على المخلوقِ «**مَلِكَ الأَمْلَاكِ**» فإنَّها تكونُ وضيعةً عندَ الله ﷻ، وإنْ كانَ مقصودُ صاحبِها الرِّفعةَ والعُلُوَّ، فإنَّ اللهَ يجازيهِ بنقيضِ قصدِه، ويجعلُه وضيعًا

«**رَجُلٌ تَسَمَّى**» يعني: سمّى نفسَهُ، أو«**يُسَمَّى**» يعني: سمّاهُ غيرُه ورضيَ هو بذلكَ ولم يُنكره. فهذا فيه سوءُ أدبٍ معَ الله ﷻ، وتعاظُمٌ ورِفعةٌ لا يستحقُّها المخلوقُ، واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣].

قوله: «**مثل: شاهَانْ شَاهْ**» يعني: عندَ العجمِ، فمعنى هذا اللقبِ عندَهم: «**مَلِكَ الأمْلَاكِ**». ومقصودُ سفيانَ ﵀ بهذا أن يبيِّن أَنَّ هذا اللّقبَ ممنوعٌ في جميعِ اللّغاتِ، سواءٌ بالعربيّةِ أو بالأعجميّةِ، سواءٌ سُمّي «**مَلِكَ المُلوك**» أو «**شَاهَانْ شَاهْ**»، فالمعنى واحدٌ، وكذلكَ (قاضي القضاة) أو ما أشبهَ ذلك، فهذا منهيٌّ عنه في جميعِ اللُّغاتِ.

«**وفي رواية: أَغْيَظُ**» هذا أفعلُ تفضيلٍ، والغيظ: شدّةُ الغضبِ.

---

(١) هو سفيانُ بنُ عيينةَ بنِ ميمونِ الهلاليُّ، ثقةٌ حافظٌ فقيهٌ، وُلِدَ بالكوفةِ سنةَ ١٠٧هـ وسكنَ مكةَ وماتَ فيها ١٩٨هـ.

(٢) كذا ضبطها في البخاري.

(٣) عند مسلم (٢١٤٣).

الباب السابع والأربعون

باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم من أجل ذلك

عَن أَبِي شُرَيحٍ[1] أَنَّهُ كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحَكَمِ ....

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: «**باب احترام أسماء الله**» أي: إكرامُها وإجلالُها، وعدمُ إهانتِها، أو استعمالِها في شيءٍ يُمْتهن. واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أسماءٌ سمَّى بها نفسَه في كتابِهِ، وسمَّاهُ بها رسولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنَّتِهِ، وله أسماءٌ لا يعلَمُها إلَّا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعدُّدُ الأسماءِ يدلُّ على عِظَم المُسمَّى، فهي أسماءٌ عظيمةٌ، يجِبُ على العبادِ: احترامُها، وإجلالُها، ودُعاءُ الله تعالى بها، والتوسّلُ إليه تعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ، فيقولُ في الدّعاءِ: «**يا رَحمَنُ يا رَحيم، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**» لأنَّ ذلكَ من أسبابِ الإجابةِ، فدلَّ على عظمِها.

وقوله: «**وَتَغْيير الاسْمِ**» أي: إذا سُمّي شيءٌ من المخلوقاتِ باسمٍ من أسماءِ الله الخاصّةِ به، كـ(الله) أو (الرحمن) أو ما أشبهَ ذلكَ؛ فإنّه يجِبُ تغييرُ الاسمِ احترامًا لأسماءِ الله. «**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ**» أي: من أجلِ احترامِ أسماءِ الله تعالى. أما الأسماءُ التي يُسمَّى بها المخلوقُ ويسمَّى بها الخالقُ مثلَ: الملِك، والعزيزُ، وأشباهُ ذلكَ؛ فهذهِ ليسَتْ من هذا البابِ، فهذهِ أشياءُ مشترَكةٌ يجوزُ أن يُسمَّى بها المخلوقُ، ولكن يُعلم أنّها ليسَتْ كأسماءِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ الدليلَ فقالَ: «**عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّه كَانَ يُكَنَّى أَبَا الْحُكَمِ**» الحكم هو: الذي يَحكم بينَ النّاسِ ويَفصِل النِّزاعَ، فالحَكَم -بالألف واللَّام- لا يُطلَقُ إلَّا على الله عَزَّوَجَلَّ، أما أَنْ يُقالَ: (حكم) بدونِ تعريفٍ فلا بأسَ، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥].

---

(١) **أبو شريح**: هو هانئُ بنُ يزيدٍ الكنديُّ، صحابيٌّ نزلَ الكوفةَ وتُوِّفي بالدينةِ سنةَ ٦٨ هـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيهِ الحُكمُ». فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الْولدَ؟» قَالَ: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ الله. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلتُ: شُرَيْحٌ. قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيرُهُ(١).

وقوله: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**» بمعنى: أنَّه هو الذي يحكُم بينَ عبادِهِ، في الدُّنيا بوحيِهِ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ ﷺ من الكتابِ والسنّةِ: وكذلك هو الحَكَم في الآخرةِ الذي يحكُم بينَ الناس فيما كانوا فيه يختلفونَ، ففي الآخِرة ليس هناكَ حاكمٌ سواهُ ﷻ.

والنبيُّ ﷺ قالَ: «**إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ**» على سبيلِ الإنكارِ على أبي شريحٍ.

ثم إنَّ أبا شريحٍ أرادَ أن يبيِّن السببَ للرّسولِ ﷺ، وأنَّه لم يسمِّ نفسَه بذلكَ؛ وإنَّما الناسُ هم الذينَ سمّوهُ به، والسببُ في هذا: أنَّه إذا اختلفَ قومُه في شيءٍ رجعوا إليه فحكَمَ بينهم فرضيَ كِلَا الفريقين، وهذا عملُ خيرٍ، ولهذا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**مَا أَحْسَنَ هَذَا!**» تعجُّبًا وثناءً على عملِ هذا الرّجلِ، وتشجيعًا له على ذلكَ، وإنما أنكرَ التكنّي بأبي الحكمِ، وأرادَ تغييرَه، حيثُ قال ﷺ: «**فَمَا لَكَ مِنَ الْوُلْدِ؟**»، ليجعلَ له بديلًا صالحًا.

قالَ أبو شريحٍ: «**قلت: شُرَيْحٌ، وَمُسْلِمٌ، وَعَبْدُ اللهِ**». قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَنْ أَكْبَرُهُمْ؟**». قالَ: شُريح.

فقالَ النبي ﷺ: «**أَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ**» بَدَّل «**أَبِي الْحَكَمِ**»، وكنّاه بأكبرِ أولادِهِ، فدلَّ على أنَّ الكنيةَ تكونُ بأكبرِ الأولادِ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥٥) والنسائي (٥٣٨٧).

الباب الثامن والأربعون

باب من هزل بشيء فيه ذكر لله أو القرآن أو الرسول

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]. **عَن ابنِ عُمَرَ**(١)**، وَمُحَمَّدِ بنِ كَعبٍ**(٢)**، وَزَيدِ بن أَسْلَمَ**(٣)**، وَقَتَادَةَ**(٤) **-دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِم فِي بَعضٍ-**

هذا البابُ بابٌ عظيمٌ، إذا تأمّلَهُ الإنسانُ وعرَفَ واقِعَ الناسِ فإنَّه ينفعُهُ اللهُ به.

فقوله: «**بابُ مَن هَزل**» الهَزْل هو: اللعبُ والاستهزاءُ.

«**بشيءٍ فيه ذكرُ الله أو القرآن أو الرّسول** ﷺ» يعني: مَن استهزأ بشيءٍ من هذه الأشياءِ فما حكمُه؟

حكمُه: أنّه يرتدُّ عن دينِ الإسلامِ، لأنَّ هذا من نواقِض الإسلامِ بإجماعِ المسلمينَ، سواءٌ كان جادًّا أو هازلًا أو مازحًا، حيث لم يستثنِ اللهُ إلّا المُكْرَه، وقد بيَّن الشيخُ أن هذا الحكمَ في كتابِ اللهِ معَ سببِ نزولِهِ فقالَ: «**وقول الله تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ **[التوبة:٦٥]**».

ثم ذَكَرَ سببَ نُزولِ الآيةِ، فقالَ: «**عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ**» يعني: كلَّ هؤلاءِ رووا هذا الحديثَ، ولكن لَمَّا كانَتْ ألفاظُهم متقارِبةً والمعنى واحدًا دخَلَ حديثُ بعضِهم في بعضٍ، فسِيْق سياقًا واحدًا، من بابِ الاختصارِ.

---

(١) **ابنُ عمرَ:** هو عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) **محمدُ بنُ كعبٍ:** هو محمدُ بنُ كعبِ بنِ سُليمٍ القرظيُّ المدنيُّ وهو ثقةٌ عالمٌ، ماتَ سنة ١٢٠هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) **زيدُ بنُ أسلمَ:** هو مولى عمرَ بنِ الخطابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو ثقةٌ مشهورٌ، مات سَنَة ١٣٦هـ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٤) **قتادةُ:** ه قتادةُ بنُ دعامةَ السدوسيُّ، مفسرٌ حافظٌ، مات سنة ١١٧هـ تقريبًا رَحِمَهُ اللَّهُ.

أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزوَةِ تَبُوكٍ: مَا رَأَينَا مِثلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ أَرْغَبَ بُطُونَاً، وَلَا أَكذَبَ أَلسُنًا، وَلَا أَجبَنَ عِندَ اللِّقَاءِ؛ يَعنِي رَسُولَ الله ﷺ وَأَصحَابَهُ القُرَّاءَ. فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ[1]: كَذَبتَ، وَلكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ. فَذَهَب عَوفٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيُخبِرَهُ، فَوَجَدَ القُرآنَ قَد سَبَقَهُ. فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَد ارتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ.

«**أن رجلًا**» يعني: من المُنافقينَ.

«**كَانَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ**» تبوك: اسمُ موضعٍ، شماليّ المدينةِ من أدنى الشّامِ.

قوله: «**ما أرينا مثل قُرّائنا هؤلاء**» يعني بالقُرَّاء: رسولَ الله ﷺ وأصحابَهُ.

«**أرغب بطونًا، ولا أكذَب ألسُنًا، ولا أجبَن عند اللّقاء**» وهذه الصفاتُ في الواقعِ هي صفاتُ المنافقينَ، لكنَّهم وصفوا بها رسولَ الله ﷺ وأصحابَهُ.

فقالَ عوفُ بن مالكٍ: «**كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ**» وهذا مِن إنكارِ المنكرِ، ومن النصيحةِ لوُلاةِ الأُمورِ، فالمسلمُ يبلِّغهم مقالاتِ المُفسدينَ والمُنافقين من أجلِ أنْ يأخُذوا على أيدي هؤلاءِ، لئلا يُخِلُّوا بالأمنِ ويفرِّقوا الكلِمة،

«**فذهب عوفٌ إلى رسولِ الله ﷺ ليُخبره فوجد القرآن قَدْ سَبَقه**» لأنَّ اللهَ ﷻ سَمِعَ مقالتَهم وأنزلَ على رسولِهِ ﷺ الخبرَ قبلَ أن يصلَ إليه عوفٌ.

ثمَّ جاءَ ذلكَ الرجلُ الذي تكلَّمَ بهذا الكلامِ -والعياذُ بالله-، ووجَدَ النبيَّ ﷺ: «**قد ارتحل وركِب ناقته**» من أجلِ أن يُفسدَ على المنافقينَ خُطَّتهم، الخبيثةَ.

---

(١) **عوفُ بنُ مالكٍ**: هو عوفُ بنُ مالك الأشجعيُّ أولُ مشاهِدِهِ خيبرُ، ورَوَى عنه جماعةٌ مِن التابعين، تُوِّفي سنة ٧٣هـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَقَالَ يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكبِ، نَقطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ. قَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيهِ مُتَعَلِّقًا ببِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكبُ رِجلَيهِ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾. **فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ:** ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]. **مَا يَلتَفِتُ إِلَيهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ**(١).

«**فقال: يا رسول الله، إنما كنّا نخوض ونتحدّث حديثَ الرَّكْب، نقطع به عناء الطّريق. قال ابنُ عمرَ: كأنّي أنظرُ إليه متعلِّقًا بِنِسْعَة ناقة النبي ﷺ**» النِّسْعَة هي الحبلُ الذي يُشَدُّ به الرحلُ.

«**وهو يقول: يا رسول الله، إنَّما كنا نخوض ونلعب**» فالرسولُ ﷺ يرُدُّ عليه بقولِهِ تعالى: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾.

---

(١) أخرجه ابن جرير (١٠/ ١٧٢).

الباب التاسع والأربعون

بابُ قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ﴾ الآية [فصِّلت: ٥٠].

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ[(١)]. وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ: مِن عِندِي.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ الضمير في ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ ضمير الغائبِ راجعٌ إلى الإنسانِ المذكورِ في الآيةِ التي قبلَها في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فُصِّلَت:٤٩]، يعني: لا يملُّ الإنسانُ من طلبِ الدُّنيا، ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾ يعني: إذا أصابَتْهُ مصيبةٌ في مالِهِ أو في بدنِهِ، ﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ يستبْعِد الفَرَج من اللهِ ﷻ ويقنطُ من رحمةِ اللهِ، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ يعني: هذا الإنسانَ: أي أعطيناه، ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ عافيةً وصحّةً في بدنِهِ وغنىً من فقرِهِ، ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ في بدنِهِ من المرضِ والمصائبِ، أو في مالِهِ من الفقرِ والإعوازِ. ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ ينسى الضرَّاءَ التي مسَّتْهُ، وينسى مِنْ أينَ جاءَتْ هذه النعمُ، ويظنُّ أنّ ما في يدِهِ إنما هو بحولِهِ وقوّتِهِ، فلا يشكُر الله ﷻ أو يعترفُ بنعمتِهِ، بل ينسِبُ هذه النعمةَ إليه هو وإلى كَدِّه وكسْبِهِ، أو إلى آبائِهِ وأجدادِهِ.

«**قَالَ مُجَاهِدٌ هَذَا بِعَمَلِي، وأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ**» يعني: هذه النعمةَ إنَّما حصلتُ عليها بعملي وكَدِّي وكسبي واحترافي، وأنا محقوقٌ بها، أي: أستحقُّها،

«**وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ: مِن عِندِي**» يعني: بعمِلي وبسببِي، أنا الذي حصّلتُه وتعبْتُ فيه.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٥/ ٣).

وَقَولُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]. **قَالَ قَتَادَةَ: عَلَى عِلمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ. وَقَالَ آخَرُونَ: عَلَى عِلمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهلٌ. وَهَذَا مَعنَى قَولِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ. وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ،** ....

«**وقوله:** ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨] **قالَ قتادةُ: على علمٍ منّي بوجوهِ المكاسبِ. وقالَ آخرونَ: على علمٍ من اللهِ أني له أهل**» القولُ الأولُ معناه: أنّني رجلٌ عالمٌ بالاقتصادِ وطُرقُ الكسبِ، كما يقولُهُ اليومَ الاقتصاديُّون، ويظنّونَ أنَّ الأموالَ والثّرواتِ التي يحصُلونَ عليها بسببِ حِذْقهم ومعرفتِهم وخِبرَتهم، ولا ينسبونَ هذا إلى اللهِ ﷻ.

والقولُ الثاني معناه: أنَّ اللهَ أعطاني هذا المالَ لأنّه يعلمُ أنّي أستحقُّه، ولا فضلَ للهِ عليّ فيهِ.

قال الشيخُ: «**وهذا معنى قول مجاهد: أوتيتُه على شرف**» أي: أنَّ اللهَ علِمَ أنني رجلٌ شريفٌ وذو مكانةٍ ومنزلةٍ، ف أعطانيهِ لمنزلتي، ومعنى هذا إنكارُ الفضلِ من اللهِ ﷻ.

قال العلماءُ: «**هذه الأقوال لا تنافيَ بينَها**» فاختلافُهُم إنّما هو اختلافُ تنوُّعٍ وليسَ اختلافُ تضادٍّ.

قال: «**عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ** رضي الله عنه**: إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ**» بنو إسرائيلَ هم ذريةُ يعقوبَ، وإسرائيلَ، معناه: عبدُ اللهِ.

«**أَبْرَصَ**» الأبرص: من أُصيبَ بالبَرَص، وهو داءٌ يُصيبُ الجلدَ فيتحوّلُ إلى أَبْيَض كَريهِ المنظرِ، وهذا المرضُ لا يُمكِن علاجُهُ في الطِبِّ البشريِّ.

«**وَأَقْرَعَ**» وهو الذي لا ينبُت لرأسِهِ شعرٌ، ويُصبح كريهَ المنظرِ.

وَأَعْمَى، فَأَرَادَ الله أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا. فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ -شَكَّ إِسحاقُ- فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا ....

وأما «**الأَعْمَى**» فهو الذي ذهَبَ بصرُه كلُّه.

وقوله: «**فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ**» يعني: أن يختبرَهُم.

«**فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا**» المَلك: واحدُ الملائكةِ.

«**فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحَهُ المَلك**» مسحَ على هذا الأبرصِ فبرِئَ، وعادَ إليه لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ، وهذا بقدرَةِ الله تعالى لأنَّ المَلكَ رسولُ الله.

«**قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ [شَكَّ إِسحاق]**» المرادُ: إسحاقُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي طلحةَ، راوي الحديثِ، شكَّ هل قالَ الرّسولُ ﷺ الإبلَ، أو قالَ البقرَ؟

«**فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ**» العُشَراء هي: الحاملُ التي تمَّ لها ثمانيةُ أشهرٍ، لأنّها أنفسُ الأموالِ.

«**وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا**» دعا له بالبركةِ، ودعوةُ المَلكِ مستجابةٌ، وهذا بأمرِ الله سبحانه وتعالى من أجلِ الامتحانِ والابتلاءِ.

قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّ الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ، وَأُعْطِيَ شَعرًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَو الإِبِل. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا؟ قَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا. فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ إِبِلٍ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الغَنَمِ.

«**ثُمَّ أَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّ الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ، وَأُعْطِيَ شَعرًا حَسَنًا. فَقَالَ: أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَو الإِبِل. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا**» البقرةُ الحاملُ هي التي في بطنِها جَنين.

«**وقَالَ: بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا**» دعا له مثلَ الأوَّلِ.

«**فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا**» يعني: قد ولدَتْ حملَها.

«**فَأُنْتِجَ هَذَانِ**» أنتجَ أصحابُ الإبلِ والبقرِ.

«**وَوَلَّدَ هَذَا**» أي: صاحب الشّاةِ.

«**فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ**» بسببِ بركةِ دعوةِ المَلكِ ولأجلِ الابتلاءِ والامتحانِ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ بَعِيرًا أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الحُقُوق كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَنِي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَص يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله ﷻ المَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ.

«**ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ**» أي: في صورةِ رجلٍ أبرصَ، لأنَّ اللهَ أعطى الملائكةَ القُدرةَ على التشكُّلِ، فيظهَرونَ في صورٍ مُختلفةٍ.

«**فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ**» يَعْرِض حالَه عليه ليتصدَّقَ عليه.

«**وَابْنُ سَبِيلٍ**» ابنُ السّبيل هو: المسافِرُ الذي انقطعَ ما معهُ من الزّاد، وقد جعل اللهُ له حقًّا في الزكاةِ ما يوصِّله إلى بلدِهِ، ولو كان غنيًّا في بلدِهِ.

«**قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ**» يعني: الأسبابُ، ثم ذكَّرهُ بحالتِهِ الأولى فقالَ: «**أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ بَعِيرًا أَتبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الحُقُوق كَثِيرَةٌ**» يعني: أنَّ الحقوقَ التي عليّ كثيرةٌ وينفد المالُ لو أعطيتكَ، وأعطيتُ هذا ممّن لهم عليّ حقوقٌ، وهذا اعتذارٌ منه. ثم ذكَّره المَلَك مرّةً ثانيةً وقالَ له: «**كَأَنِي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَص يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ الله ﷻ المَالَ؟**». ثمَّ إنه جحَدَ نعمةِ اللهِ عليه، وجَحَدَ هذهِ الحالةَ التي مرَّتْ بهِ، وقالَ: «**إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ**» يعني: ليس بمالٍ جديدٍ كما تقولُ، بل هو معي من قديمٍ ومع آبائي من قبلُ، وهذا جُحودٌ لنعمةِ اللهِ ﷻ.

فدعا عليه المَلَكُ، وقالَ: «**إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ**» يعني: صيَّرَكَ اللهُ فقيرًا أبرصَ.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كاذبًا، فَصيَّرَكَ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ الله إِلَيَّ بَصَري، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَ الله لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله ﷻ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ؛ ....

«**قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا**» أي: رجلٌ مسكينٌ وابن سبيل... إلى آخرِه.

«**وَرَدَّ علَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا**» قال له: الحقوقُ كثيرةٌ.

وذكّره المَلَكُ بحالتِهِ من قبلُ، فأنكر ذلك، فدعا عليه المَلَكُ كما دعى على الأبرصِ بأن يُصيرَهُ اللهُ إلى ما كانَ عليه من قبلُ.

قال: «**وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، قَد انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي**»، فاعترفَ الأعمى بنعمةِ اللهِ وقالَ: «**كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ الله إِلَيَّ بَصَري، فَخُذْ مَا شِئْتَ**» يعني: خُذْ الذي تُريدُهُ.

«**فَوَ الله لَا أَجْهَدُكَ**» أي: لا أمنعُكَ، «**بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله**»، لأنّه ليسَ مالي وإنما هو مالُ اللهِ ﷻ.

ثم ظهرت نتيجة الامتحان: «**فَقَالَ لهُ المَلَك: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ**» يعني: اختبُرْتُم أنتَ وصاحباكَ.

فَقَدَ رَضِيَ الله عَنْكَ، وسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ». أَخرَجَاهُ(١).

«**فَقَدَ رَضِيَ الله عَنْكَ**» بسببِ شكرِكَ لنعمةِ الله ﷻ.

«**وسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ**» بسببِ كفرِهم بنعمةِ الله ﷻ.

فهذا الأعمى فازَ برضى اللهِ تعالى وَسلِمَ عليه مالُه، أما أولئكَ فعاقبَهم اللهُ وسَخِط عليهم، وهذه نتيجةُ الابتلاءِ والامتحانِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) ومسلم (٢٩٦٤).

الباب الخمسون

بابُ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

....

هذا البابُ المقصودُ به: بيانُ أنَّ تعبيدَ الأسماءِ لغيرِ الله شركٌ ينافي كمالَ التّوحيدِ، إنْ كانَ المقصودُ مجرّدَ التسميةِ، أما إنْ كانَ المقصودُ تعبيدَ التألُّهِ لغيرِ الله فإنّه شركٌ أكبرُ ينافي التّوحيدَ.

وقولُه ﷺ: «**باب قول الله تعالى:** ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾» يريدُ: بيانَ ما جاءَ في تفسيرِ الآيةِ.

والآيةُ التي قبلها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، يعني آدم وحواء عليهما السلام. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ يعني وطِئَها.

﴿حَمَلَتْ﴾ يعني: عَلِقَتْ رَحِمُها بالنُّطْفَة.

﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ هذا شأنُ الحملِ في أوّلِ أطوارِهِ: كونُه نُطفةً، ثم عَلَقَة، ثم مُضْغَة، ويكون خفيفًا في هذه الأطوارِ.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ يعني: ما أجلسها ولا عوّقها عن العمل، فهي تمرُّ وتمشي وتقومُ وتقعدُ.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ يعني: في طَوْرِ نفخِ الروحِ فيه.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ ﴿دَّعَوَا﴾ دعا آدمُ وحواءُ، وطلبا من الله ﷻ.

﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ رزقتنا مولودًا سَوِيًّا في خِلْقَتِهِ.

قَالَ ابنُ حَزمٍ[1]: اتَّفَقُوا عَلَى تَحرِيمِ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ اللهِ؛ كَعَبدِ عَمرو، وَعَبدِ الكَعبَةِ، وَمَا أَشبهَ ذَلِك. حَاشَا عَبدَ المُطَّلِبِ.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لأنَّ هذا هو الواجبُ في النعمةِ أن تُشكر.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ استجابَ الله دعوتَهما وآتاهُما ولدًا إنسانًا سويًّا صالحًا.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ بأن سمّياه (عبد الحارثِ)، فعبّداهُ لغيرِ الله.

قال: «**اتَّفَقُوا**» يعني: أجمعوا.

«**عَلَى تَحرِيمِ كُلِّ اسمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيرِ اللهِ**» كـ(عبدِ الحُسين)، و(عبد الرّسول) و(عبد الحارث) وغيرِ ذلك، لأنَّ التعبيدَ يجبُ أن يكونَ لله ﷻ.

قال: «**حَاشَا**» حاشا: كلمةُ استثناءٍ. «**عَبدَ المُطَّلِبِ**» هو جدُّ الرّسولِ ﷺ.

ولكِنْ ليسَ الأمرُ كما قالَ ؒ فلا يجوزُ أن يُسمَّى أحدٌ الآنَ عبدَ المطّلِب، فلا وجهَ للاستثناءِ، وإنَّما يُقالُ عبدُ المطّلِبِ لجدِّ الرسولِ خاصةً، أما بعدَ الإسلامِ فلا يجوزُ أن يُسمَّى أحدٌ بهذِهِ الأسماءِ.

قالَ ابنُ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**فَأَتَاهُمَا**» أي آدم وحواء «**إِبلِيسُ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ**» يشيرُ إلى القصةِ التي ذكرَها اللهُ ﷻ في كِتابِهِ من وَسْوَسَة الشيطانِ لآدمَ عليه السلام لَمَّا حرَّمَ اللهُ عليه أن يأكُلَ من شجرةٍ معيَّنةٍ في الجنَّةِ، وجاءه الشيطانُ وزيَّنها له وأغراه بالأكلِ منها، فعصى ربَّه وأكلَ منها، فحصلتِ المصيبةُ، وأُخرجَ من الجنَّةِ بسببِ ذلكَ، وأُهْبِط إلى الأرضِ.

---

(١) **ابنُ حزمٍ**: هو عالمُ الأندلسِ أبو محمدٍ عليُّ بنُ أحمدَ بنِ سعيد بنِ حزم القرطبيُّ الظاهريُّ، تُوفِّي سنة ٤٥٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: قَالَ: «لَمَّا تَغَشَّاهَا آدمُ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا إِبلِيسُ. فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخرَجتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ لِتُطِيعَانِي أَو لَأجعَلَنَّ لَهُ قَرْنِي أَيْلٍ فَيَخرُجُ مِن بَطنِكَ فَيَشقّه، وَلَأفعَلَنَّ، وَلَأفعَلَنَّ، -يُخَوِّفُهُمَا- سَمِّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ. فأَبيَا أَن يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَت، فَأَتَاهُمَا. فَقَالَ مِثلَ قَولِهِ: فَأَبيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا ثُمَّ حَمَلَت فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ، فَذَلِكَ قَولُهُ ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾» رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ(١)، ....

«**لِتُطِيعَانِي**» أي: تمتثلانِ ما آمركما بِهِ.

«**أَو لَأجعَلَنَّ لَهُ قَرْنِي أَيْلٍ**» الأَيِّل هو ذكرُ الأوعالِ. «**فَيَخرُجُ مِن بَطنِكَ فَيَشقّه**» يعني: بقرنيه. «**وَلَأفعَلَنَّ -يُخَوِّفُهُمَا-**» من التخويفاتِ والتهديداتِ، فلم يلتفتا إليه، ولم يطيعاهُ لأنه عدوُّهما.

«**فَخَرَجَ مَيِّتًا**» وهذا من بابِ الامتحانِ والابتلاءِ من الله سبحانه وتعالى.

«**ثُمَّ حَمَلَت فَأَتَاهُمَا فَذَكَرَ لَهُمَا**» ذلك، لأنَّ الشيطانَ يحاوِل مع الإنسانِ ولا ييأس.

«**فَأَدرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبدَ الحَارِثِ**» والحارث قيلَ: هو اسمُ إبليسَ، قبل أن تحْصُلَ عليهِ اللعنةُ.

«**فذلك قولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]**» أي: هذا تفسيرُ هذهِ الآيةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٦٥٤) وابن جرير في «تفسيره» (٩/ ١٤٦). قال ابن كثير في «تفسيره»: وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس أخرجه عن أُبي بن كعب. ثم قال: وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم**» اهـ.

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَم يَكُن فِي عِبَادَتِهِ(١). **وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن مُجَاهِدٍ فِي قَولِهِ:** ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩]، **قَالَ: أَشْفَقَا أَن لَا يَكُونَ إِنسَانًا**(٢). **وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَن الحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيرِهِمَا.**

قوله: «**بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَم يَكُن فِي عِبَادَتِهِ**» وشركُ الطاعةِ شركٌ أصغرُ لا يُخرِج من الملّةِ، لا سيّما وأنّهما لم يفعلا هذا قصدًا للمعنى، وإنّما فعلاهُ من بابِ حُبِّ الولدِ، ومن أجلِ سلامتِهِ فقَطْ، ومع هذا سمَّاهُ اللهُ شركًا.

قوله: «**بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَن مُجَاهِدٍ فِي قَولِهِ:** ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾، **قَالَ: أَشْفَقَا أَن لَا يَكُونَ إِنسَانًا**» أي: خافا من ذلك.

«**وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَن الحَسَنِ**» هو: الحسنُ البصريُّ.

«**وَسَعِيدٍ**» هو: سعيدُ بنُ المسيِّب، وهما من أئمّةِ التّابعينَ.

وهو الذي اختارَه الشيخُ المصنِّف: محمدُ بنُ عبدِ الوهابِ، واختاره الشارحُ الشيخُ: سليمانُ بنُ عبدِ اللهِ، وأنَّ هذا الشركَ المذكورَ في الآيةِ وقَعَ من آدمَ وحوَّاءَ، لكنّه شركٌ في الطاعةِ وليسَ في العبادةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٤٢٦) وابن جرير (٩/ ١٤٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٤١٥).

الباب الواحد والخمسون

باب قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ [الأعراف:١٨٠].

....

هذا البابُ عقَدَه الشيخُ رحمه الله في كتابِ التوحيدِ من أجلِ بيانِ وجوبِ إثباتِ أسماءِ الله وصفاتِهِ، ومن أجلِ أن يُبيِّن التوسُّلَ المشروعَ والتوسُّلَ الممنوعَ، لأنَّ مسألةَ التوسُّل ضلَّ فيها خلْقٌ كثيرٌ من قديمِ الزّمانِ، فالمشركونَ يعبُدون غيرَ الله ويسمُّونَ معبوداتِهم وسائلَ إلى الله، فيقولونَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:٣]، قالَ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، هم يعلمونَ أنّها لا تخلُق ولا ترْزُق ولا تُحْيي ولا تُميت، وإنَّما زعموا أنَّها تتوسّطُ لهم عندَ الله عز وجل، من بابِ الوسيلةِ، فردَّ اللهُ تعالى عليهم في القرآنِ بأنَّ هذا التوسُّلَ وهذا العمل كفرٌ وشركٌ، وأنَّه لم يَشْرَعْهُ سبحانه وتعالى لعبادِهِ.

قالَ: «**وقولُه تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾» إخبارٌ من اللهِ جل جلاله أنَّ لهُ الأسماءَ وأنَّها حُسنى.

والحسنى: أي: البالغةُ في الحُسنِ أعلاهُ، لا شيءَ أحسنُ منها.

ولا يعلمُ عددَها إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى كما قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ**»(١)، فاللهُ جل جلاله له أسماءٌ كثيرةٌ، منها ما أنزلَهُ في كتابِهِ، ومنها ما علَّمه بعضَ خلْقِهِ ولم يُنزلْهُ

---

(١) تقدم تخريجه في أول الباب السابع والأربعين.

في كتابِهِ.

وأمَّا قولُه ﷺ: «إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1] فليسَ المرادُ الحصرَ، وإنَّما هذهِ التسعةُ والتسعون موصوفةٌ بأنَّ مَن أحصاها دخَلَ الجنَّةَ،

ومعنى إحصائِها: عدُّها، ومعرفةُ معناها، والعملُ بمقتضاها.

فهذه الآيةُ تدلُّ: على إثْباتِ الأسماءِ للهِ تعالى رَدًّا على المشركينَ وعلى الجهميّةِ ومَن نفى أسماءَ اللهِ ﷻ.

وفيها: مشروعيَّةُ التوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بها، ودعائِهِ بها: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يعني: توسَّلوا إلى اللهِ بها، بأَنْ تقولَ: يا رحمنُ ارحمني، يا غفورُ اغفر لي، يا كريمُ أكرِمني، يا توَّابُ تُبْ عليَّ.

ثمَّ قالَ: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ ﴿وَذَرُواْ﴾ يعني: اترُكوا.

والإلحادُ في اللغةِ: المَيْل عن الشيءِ،

أما الإلحاد في أسماءِ اللهِ: فذكروا له عدَّةَ معانٍ:

النوع الأول: جُحودها ونفيُها كما نفتْها الجهميَّةُ، وهذا أعظمُ الإلحادِ فيها.

النوع الثاني: تأويلُها عما دلَّتْ عليه، كما فعلتِ المعتزلةُ فإنهم يُثبتونَ الأسماءَ ولكنَّهم ينفونَ معانيَها وما تدلُّ عليه من الصِّفاتِ، ويجعلونها ألفاظًا مجرَّدةً لا تدلُّ على شيءٍ.

النوع الثالث: تسميةُ المخلوقينَ بأسماءِ اللهِ، مثلَ ما فعلَ المشركونَ من تسميةِ اللاتِ من

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾: يُشرِكُونَ. وَعَنهُ: سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ. وَعَن الأَعْمَشِ[1]: يُدخِلُونَ فِيهَا مَا لَيسَ مِنهَا.

اسمِ الإلهِ، والعُزّى من اسمِ العزيزِ، فجعلوا أسماءَ الله أسماءً لمعبوداتِ المشركين،

النوع الرابع: أن يدخلَ فيها ما ليسَ منها. فدلَّ على أنّ الذي يُنكرُ أسماءَ الله، أو يؤوِّلُها بغيرِ معانيها الصحيحةِ، أو يُدْخِلُ فيها ما ليسَ منها أو يحرِّفها إلى مسمَّياتِ الأصنامِ؛ أنّه ملحدٌ متوعَّدٌ بأشدِّ الوعيدِ.

ثم ذكَرَ عن ابن أبي حاتمٍ رحمه الله، عن ابنِ عبَّاسٍ: «﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾: **يُشركون**» أي: يُشركونَ في أسماءِ الله.

«**وَعَنهُ**» أي: ابن عبَّاسٍ.

«**سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالعُزَّى مِنَ العَزِيزِ**» أي: أنهم سمّوا الأصنامَ الكبارَ المعروفةَ عندَ العربِ (اللات) و(العُزّى) اشتقّوا لها من أسماءِ الله.

«**وَعَن الأَعْمَشِ: يُدخِلُونَ فِيهَا مَا لَيسَ مِنهَا**» لأنَّ القاعدةَ في أسماءِ الله: ألا يُسمَّى إلَّا بما سمَّى به نفسَه، أو سمَّاهُ به رسولُهُ ﷺ، فما لم يسمِّ اللهُ به نفسَه ولم يسمِّه به رسولُه ﷺ فلا يجوزُ أن يُطلَق على الله، لكنَّ المشركونَ سمَّوا اللهَ بما لم يُسمِّ به نفسَه، وهذا من الإلحادِ في أسماءِ الله، كما سمَّتِ النَّصارى اللهَ عز وجل بالأبِ.

---

(١) **الأعمشُ**: هو سليمانُ بنُ مهرانَ الكوفيُّ الفقيهُ ثقةٌ حافظٌ ورعٌ، مات سنة ١٤٧هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الباب الثاني والخمسون

باب لا يقال: السلام على الله

فِي «الصَّحِيحِ»(١) عَنِ ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى الله؛ فَإِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ».

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيدِ: أنَّه لَمَّا كانَ السلامُ من أسماءِ الله ﷻ فإنَّه لا يُقالُ: «**السَّلَامُ عَلَى اللهِ**» لأنَّه هو السَّلامُ ﷻ.

وأيضًا: لَمَّا كان معنى السَّلامِ الدعاءِ للمسلَّمِ عليه بالسَّلامةِ من الآفاتِ، واللهُ ﷻ منزَّهٌ عن أَنْ ينالَه شيءٌ من النقصِ أو من الآفاتِ أو من المكروهاتِ، فمَنْ دعا للهِ فقد تنقَّصَ اللهَ ﷻ، وهذا يُخِلُّ بالتوحيدِ.

فقولُه: «**لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللهِ**» هذا نهيٌ منه ﷺ عن هذهِ الكلمةِ، والنهيُ يقتضي التحريمَ.

ثمَّ بيَّن ﷺ السببَ في هذا النَّهي فقالَ: «**فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ**» أي: أنَّ «**السَّلَامَ**» من أسماءِ اللهِ تعالى.

و«**السَّلَامُ**» من أسمائِهِ ﷻ معناهُ: السَّالمِ من الآفاتِ والعُيوبِ والنقائصِ.

وأيضًا «**السَّلَامُ**» هو الذي يُطلَبُ منه السَّلامُ، كما كانَ النبيُّ ﷺ إذا سلَّم من الصلاةِ قبلَ أن ينصرفَ إلى أصحابِهِ يستغفرُ الله ثلاثًا وهو متوجِّهٌ إلى القبلةِ، ثمَّ يقولُ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٣٥) ومسلم (٤٠٢).

....

وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ»[1] «**وَمِنْكَ السَّلَامُ**»: أنتَ الذي تمنحُ السلامَ لعبادِك، وأنتَ الذي يُطلَب منك السلامُ، بمعنى: أنَّ العبادَ يسألونَكَ أن تسلِّمهم من الآفاتِ والنقائِص والمكارِهِ.

(١) أخرجه مسلم (٥٩١).

الباب الثالث والخمسون

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

فِي «الصَّحِيحِ»[1] عَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».

وَلِمُسلِمٍ[2]: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

«عَن أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: لَا يَقُلْ أَحَدُكُم: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ» علَّل النبي ﷺ هذا النهي بأمرينِ:

الأمر الأوّل: أنَّ هذا يدلُّ على الفُتورِ من السائِلِ، والمطلوبِ من السّائلِ العزمِ.

الأمر الثَّاني: أنَّ هذا يُشعرُ بأنَّ السائلَ يخافُ أنَّ اللهَ يفعلُ هذا وهو كارهٌ من بابِ المُجامَلة، واللهُ ﷻ لا مُكْرِهَ له، يفعلُ ما يشاءُ ويختارُ سُبْحانه.

«**وفي روايةٍ لمُسلم: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ»**» يعني: يلحُّ على اللهِ في الدعاءِ.

«**فَإِنَّ الله لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**» يعطي ﷻ ما يشاءُ ما لا يعلمُه إلَّا هو، بلا حصرٍ ولا حسابٍ، ولا تنفدُ خزائنُه سُبْحانه. ولذلكَ: يعطي الجنَّةَ التي هي غايةُ المطالبِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩) ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) برقم (٢٦٧٩).

الباب الرابع والخمسون

باب لا يقول: عبدي وأَمَتي

فِي «الصَّحِيحِ»(١) **عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».**

هذا البابُ عقَدَهُ المُصنِّف ﷺ من أجل سدِّ الطّرقِ التي تُفضي إلى الشركِ وحمايةِ جانبِ التوحيدِ، وذلك: بتجنُّب الألفاظ الموهمة التي قد يُفهم منها شيءٌ من الشرك، ولو كان المتكلِّم بها لا يقصدُ المعنى، ومن ذلكَ: لا يقُلْ السيِّدُ والمالكُ لرقيقِهِ: عبدي وأَمَتي. لأنَّ العبادَ عبادُ الله ﷻ، فالعبوديّةُ والتعبيدُ خاصٌّ بالله ﷻ، أما المخلوقونَ فليسَ بعضُهم عبيدًا للبعضِ، فالعبادُ كلُّهم عبادُ الله، مُؤمِنُهم وكَافِرُهم هذهِ العبوديَّةُ العامَّةُ، أما العبوديَّةُ الخاصَّةُ فهي خاصَّةٌ بالمؤمنين، ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٥٣]،

قوله: «**أَمَتِي**»: الأَمَة معناها أيضًا العَبْدَةُ، فلا يُقالُ: هذه أَمَةُ فلانٍ، وإنَّما يُقال: هذه أَمَةُ الله، وهذا تأدُّبٌ مع التوحيدِ ومعَ جنابِ الرّبوبيّةِ.

قوله: «**أَنَّ النَّبيّ ﷺ قالَ**: «**لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ**» هذا نهيٌ من الرَّسولِ ﷺ.

«**أَطْعِمْ رَبَّكَ**» أي: ناوِلْه الطَّعامَ، «**وَضِّئْ رَبَّكَ**» أي: ائتِه بالوضوءِ، أو أعنه على الوُضوءِ.

ثمَّ بيَّنَ النبيُّ ﷺ اللفظَ الذي يقولُهُ المملوكُ لمالكِهِ، وهو: «**سَيِّدِي وَمَوْلَايَ**» كما بيَّنَ اللفظَ الذي يقولُهُ المالكُ لمملوكِهِ، وهو «**فَتَايَ، فَتَاتِي وَغُلَامِي**»، لأنَّ هذهِ الألفاظَ لا محذورَ فيها، فتكونُ بدائلَ للألفاظِ المحذورةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥٢) ومسلم (٢٢٤٩).

الباب الخامس والخمسون

باب لا يُرَدُّ من سأل بالله

عَن ابنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، ....

قولُ الشيخِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**باب لا يُرد مَن سأل بِالله**» لأنَّ هذا فيهِ تعظيمٌ لله ﷻ، وهو من كمالِ التوحيدِ، أمَّا إذا رُدَّ السائلُ بالله ففيهِ إساءةٌ في حقِّ الله ﷻ.

والسُّؤالُ باللهِ جائزٌ، قالَ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ [النساء:١] يعني: يسألُ بعضُكم بعضًا باللهِ، وفي هذا الحديثِ: «**مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ**» فدلَّ على جواز السّؤالِ باللهِ.

قوله ﷺ: «**مَنْ سَأَلَ بِاللهِ**» كأنْ يقولَ: أسألُك باللهِ، أي: أُقسم عليك باللهِ لتعطينِّي كذا أو كذا.

«**فَأَعْطُوهُ**» هذا أمرٌ مِنَ النَّبيِّ ﷺ بإعطاءِ مَن سَأَلَ باللهِ، وظاهرُهُ الوُجوبُ.

ولكِنْ هذا فيه تفصيلٌ؛ فإذا سأَلَ باللهِ شيئًا له فيه حقٌّ كالذي يسأَلُ من بيتِ المالِ؛ وجَبَ إعطاؤُهُ، وكذلكَ إذا سألكَ مضطرٌ إلى شيءٍ من طعامٍ أو كسوةٍ أو غيرِ ذلكَ، وأنتَ عندَك فضلٌ زائدٌ عن حاجتِكَ، فإنَّه يجبُ عليك أن تُعطيَهُ دفعًا لضرورتِهِ، وإنْ لم تُعْطه فقَدْ عصيتَ اللهَ.

أما إذا سأَلَ شيئًا ليسَ له فيه استحقاقٌ، وهو ليسَ مُحْتاجًا ولا مُضْطرًا؛ فهذا يستحبُّ للمسؤولِ، فإن لم يُعطِه في هذهِ الحالةِ الأخيرةِ يكونُ فاعلًا لمكروهٍ، وإذا أعطاهُ كانَ فاعلًا لمُسْتحبٍّ.

«**وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ**» استعاذ: طلبَ العوذ، وهو: اللُّجوء.

فمن استعاذَ باللهِ من شرٍ فإنَّه يجِبُ عليكَ أن تُعيذَه، ولا يجوزُ لك ألا تُعيذَه.

وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَن صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونهُ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَواهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ[(١)] بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

«**وَمَنْ دَعَاكُمْ**» أي: طلبَ منكم حضورَ مناسبةٍ عندَه؛ كأنْ دعاكم إلى حُضورِ طعامِ وليمةٍ، فإنه يجِبُ عليكم الإجابةُ، إلَّا إذا كانَ هُناك مانعٌ، لأنَّ هذا من حقِّ الأُخوّةِ.

العلماءَ يقولون: إجابةُ الدعوةِ إنَّما هي خاصَّةٌ بوليمةِ العُرسِ، أما ما عداها من الولائِم فيُسْتحبُّ حُضورُها.

«**وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ**» يعني: مَن أحسنَ إليك بإحسانٍ مالي أو عملي أو قولي.

حتَّى ولو كانَ صانعُ المعروفِ كافرًا فإنّك تكافئُهُ على معروفِهِ، لأنَّ هذا من بابِ مكارمِ الأخلاقِ ومن بابِ قطعِ المِنَّةِ ومن بابِ جزاءِ الإحسانِ بالإحسانِ:

«**فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوهُ فَادْعُوا لَهُ**» أي: ادعوا له بالخيرِ والتيسيرِ والتوفيقِ.

«**حَتَّى تُرَوْا**» بضمِّ التّاءِ، يعني: تظنُّوا، ويجوزُ الفتحُ، بمعنى: تعلَموا.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) والنسائي (٢٥٦٧).

الباب السادس والخمسون

باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عَن جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا يُسأَلُ بِوَجهِ الله إِلَّا الجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

هذا البابُ عقدَهُ الشَّيْخُ رحمه الله في «**كتاب التوحيد**» لأنَّ تعظيمَ صفاتِ الله سبحانه وتعالى من تعظيمِ الله، وتعظيمُها من التوحيدِ، لأنه تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وأمَّا عدمُ تعظيمِها فإنَّه تنقُّصٌ للتَّوحيدِ، لأنَّه تنقُّصٌ لله عز وجل.

«**وَوَجْهُ الله**» صفةٌ من صفاتِه سبحانه وتعالى الذَّاتيَّةِ، تواتَرت بإثباتِهِ الأدلَّةُ في كتابِ الله وفي سُنَّةِ رسولِهِ ﷺ، وأجمَعَ عليه علماءُ أهلِ السنّةِ والجماعةِ: قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٧]

والسنَّة: فيها أحاديثُ كثيرةٌ في إثباتِ الوجهِ لله عز وجل، مثلُ الحديثِ الذي ساقَه المُصنِّف: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ الله إِلَّا الْجَنَّةُ**»، ومثلُ حديثِ: «**أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلُمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة**»(٢).

فقوله ﷺ: «**لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ الله**» يثبت أنَّ لله وجهًا، لكنَّ هذا الوجهَ عظيمٌ يعظَّم، ولا يُسأَلُ به الأشياءُ الحقيرةُ كمتاعِ الدُّنيا وأطماعِ الدُّنيا، وإنَّما يُسأل به شيءٌ عظيمٌ يليقُ بعظمتِه وهو الجنَّةُ، لأنَّ الجنةَ هي أعظمُ المطالِبِ، وكلُّ ما دونَ الجنَّةِ فإنَّه حقيرٌ، إلَّا إذا كانَ يُوصِّلُ إلى الجنَّةِ من الأعمالِ الصَّالحةِ، فإنَّه يُسألُ بوجهِ الله.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٧١) وابن منجه في «الرد على الجهمية» (ص٩٨) والبيهقي (٤/ ١٩٩).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٨٥١) والطبراني في «الدعاء» (٩٥٧) وابن منده في «الرد على الجهمية» (٩٦) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ١١١).

الباب السابع والخمسون
بابُ ما جاء في اللّو

وَقولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: «**باب ما جاء في اللّو**» لو: حرفٌ، يسمِّيه النُّحاة حرفَ امتناعٍ لامتناعٍ، تقول- مثلًا- لو جاء زيدٌ لأكرمتُك، لو أطعتني لأكرمتُك، فامتنعَ الإكرامُ لامتناعِ المجيءِ أو امتناعِ الطَّاعةِ.

قولُه: «**باب ما جاء في اللّو**» يعني: من النَّهي عن ذلكَ.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩]، كلُّ شَيْءٍ فإنَّ اللهَ خلقَهُ بقدَر، مقَّدرٌ خلقُه ومقدَّرٌ إيجادُه، ومقدَّرٌ كلُّ تفاصيلِه، لا يوجدُ في هذا الكونِ شيءٌ إلَّا وهو مقدَّرٌ من خيرٍ أو شرٍّ.

فالإيمانُ بالقدرِ هو أحدُ أركانِ الإيمانِ الستَّةِ، وهو داخلٌ في التوحيدِ، وعدمُ الإيمانِ بالقدرِ يتنافى مع التَّوحيدِ ويتنافى مع الإيمانِ، فمَنْ كفَرَ بالقدرِ فإنّه كافرٌ باللهِ ﷻ.

هذا وجهُ إيرادِ المصنِّفِ لهذا البابِ في «**كتاب التوحيد**»، أنَّ جُحودَ القدرِ ينافي التَّوحيدَ، لأنَّه كفرٌ باللهِ ﷻ.

وكلمةُ «**لو**» إذا جاءَ بها الإنسانُ في سياقِ الجزَعِ والسخطِ على ما يحصُل له، فإنَّ هذا نقصٌ في التوحيدِ، وجزعٌ من القدَر.

قال: «**وقول الله تعالى:** ﴿يَقُولُونَ﴾» يعني: المنافقين.

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، أَرْجَعوا سببَ القتلِ إلى أنَّهم ليسَ لهم تدبيرٌ، ولو كانَ لهم تدبيرٌ ما قُتلوا. فردَّ اللهُ عليهم بقولِهِ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ

وَقَولُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وَفِي «الصَّحِيح»(١) عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ: **أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله، وَلَا تَعْجَزَنَّ،** ....

ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ فالبقاءُ في البيوتِ لا يمنعُ من الموتِ، فالذي مكتوبٌ عليه الموتُ في أيِّ مكان سيخرجُ ويذهبُ إلى مكانِهِ الذي مكتوبٌ أنه يقتلُ أو يموتُ فيه.

فهذا هو محلُّ الشاهدِ: «**لو**»، لأنه قالَ هذهِ الكلمةَ من بابِ الجزعِ والتسخُّطِ لقضاءِ اللهِ وقدرِهِ وعدمِ الرضى بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ.

قال: «**وقوله:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾» هذه قالَها عبدُ اللهِ بنُ أبيِّ رأسُ المُنافقينَ.

وقد ردَّ اللهُ عليه بقولِهِ: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إذا كنتُم تزعمون أنكم تمنعونَ الموتَ من هؤلاءِ فامنعوهُ عن أنفسِكم.

قوله: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ**» يعني: بالغ في طلبِه، وابذل الوُسعَ في تحصيلِه، فإنَّ النفعَ مطلوبٌ.

ثمَّ قالَ: «**وَاسْتَعِنْ بِاللهِ**» يعني: لا تعتمدُ على الحرصِ فقط ولكِنْ معَ الحرصِ استعِنْ باللهِ ﷻ، لأنَّه لا غنى لك عن اللهِ، ومهما بذلْتَ من الأسبابِ فإنَّها لا تنفعُ إلَّا بإذنِ اللهِ ﷻ،

ثمَّ قالَ: «**وَلَا تَعْجَزَنَّ**» هذا نهيٌ عن العجزِ.

والعجز معناه: الكسلُ والإهمالُ، وإيثارُ الرّاحة هذا هو المنهيُّ عنه، لأنَّه يفوِّت على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

فَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

المسلمِ خيرًا كثيرًا.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ**» يعني: ممَّا تكرهُ، بعدما تحرصُ على ما ينفعكَ وتستعينُ باللهِ وتترُكُ العجزَ، بعدما تعملُ هذهِ الأسبابَ إذا أصابكَ شيءٌ عكسَ ما تُريد وعكسَ ما تطلُب

«**فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا**» لا ترجع هذا إلى تقصيرِك، ولكن أرجِعه إلى قضاءِ اللهِ وقدرِه.

«**وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**» يعني: أرجِع هذا إلى قضاءِ اللهِ وقَدَره، فالذي منَعَهُ عنكَ ليسَ هو فعلُك أو تركُك، وإنَّما الذي منعَهُ عنك هو اللهُ ﷻ، ولا تدري لعلَّ اللهَ أرادَ بكَ خيرًا وصرَفَ عنك شرًّا، فارْض بقضاءِ اللهِ وقدرهِ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**فَإِنَّ لَو**» أي: قول: «**لَوْ**».

«**تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**» إذا أرجعتَ هذا إلى غيرِ القضاءِ والقدرِ دخَلَ الشَّيطانُ، وصارَ يوسوسُ لك ويُلْقي عليك الأوهامَ ويُلقي عليك القلقَ النفسيَّ، وتُصبح في همٍّ وغمٍّ وحَزَنٍ.

الباب الثامن والخمسون

بابُ النهـي عن سبّ الريح

عَن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ؛ ....

هذا البابُ من جنسِ الأبوابِ السابقةِ التي فيها النَّهْي عن سبِّ الدهرِ، والنَّهْي عن قولِ: (لو) وغيرِ ذلكَ، والنهي عن التنجيمِ، كلُّ ما فيهِ إضافةُ الأشياءِ إلى غيرِ الله ﷻ فإنَّه منهيٌّ عنه، لأنَّ الأُمورَ كلَّها بيدِ الله ﷻ.

وكما سبقَ: أنّه إذا اعتقدَ أنَّ هذهِ الأشياءَ تصنعُ هذهِ الأشياءَ أو تُحدثها؛ فهذا شركٌ أكبرُ، لأنَّه شركٌ في الرّبوبيّةِ. وإنْ كانَ لا يعتقدُ ذلكَ، بل يعتقدُ أنَّ اللهَ هو الخالقُ المدبِّرُ، وإنَّما نسبَ هذهِ الأشياءَ إلى هذهِ المخلوقاتِ من بابِ أنَّها أسبابٌ فقَطْ: فهذا يكونُ محرَّمًا ويكونُ من الشركِ الأصغرِ.

قوله: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ**» هذا نهيٌّ من الرّسولِ ﷺ، ومعنى «**تَسُبُّوا**» يعني: لا تشتموا الرّيحَ وتذمُّوها وتلعنوها، كما كانَ عليهِ أهلُ الجاهليَّةِ أنَّهم يسبّونَ الريحَ إذا جاءَتْ على غيرِ رغبتِهم.

فالواجبُ أنَّ الإنسانَ لا يلومُ الرّيحَ ولا يلومُ غيرَها وإنَّما يلومُ نفسَه، بأن يرجعَ إلى الله ويتوبَ إلى اللهِ ويعلمَ أنَّ اللهَ ما قدَّر عليه هذهِ المصيبةَ إلَّا بسببِ فعلِه ومعصيتِه إلى الله، ثم ينسبُ الأشياءَ إلى اللهِ وأنَّ اللهَ هو الذي قدَّرَها بسببِ فعلِهِ عقوبةً له وأوجدَها فهي مأمورةٌ مُدبَّرةٌ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ [الأعراف:٥٧]، فالله ﷻ هو الذي يُرسل الرِياحَ: يُرسلها بالخيرِ، ويُرسلها أيضًا بالشرِّ والعذابِ، كما أرسلَها على عادٍ: ﴿وَفِى عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صَحَّحَهُ التِّرمِذِيُّ(١).

وقوله: «**فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ**» منها من قوَّتِها، أو من برودتِها، أو من حرارتِها «**فَقُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ. وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ**» هذا هو العلاجُ: إسنادُ الأُمورِ إلى اللهِ دعاءُ اللهِ ﷻ لدفعِ المكروهِ وجلْبِ الخيرِ.

فدلَّ على أنَّ الريحَ تؤمَرَ بالخيرِ وتُؤمر بالشّرِّ، وفي الحديث: «**الرِّيح مِنْ رَوْحِ اللهِ تَأْتِي بالخَيْرَ وَتَأْتِي بالشَرِّ**»(٢)، فهي مأمورةٌ من اللهِ ﷻ ومُدبَّرة مُرسلة.

---

(١) برقم (٢٢٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٧) وابن ماجه (٣٧٢٧).

الباب التاسع والخمسون

باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وَقولُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح:٦]. **قالَ ابنُ القيِّمِ**(١) **فِي الآيَةِ الأُولَى: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ [الذَّي لا يَلِيقُ بِالله]** ....

هذا بابٌ عظيمٌ، فقولُه رحمه الله: «**باب قول الله تعالى:** ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾».

مناسبة هذا الباب لكتابِ التوحيدِ: أنَّ حسنَ الظنِّ باللهِ سبحانه وتعالى من واجباتِ التَّوحيدِ، وسوءُ الظنِّ باللهِ عز وجل ينافي التَّوحيدَ.

قولُه: «**باب قول الله تعالى**» يعني: ما جاءَ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ الكريمةِ من آلِ عمرانَ والآيةِ الثانيةِ من سورة الفتحِ، كلاهُما في موضوعٍ واحدٍ، وهو: سوءُ الظنِّ باللهِ سبحانه وتعالى.

ففي سورةِ آلِ عمرانَ سمَّاهُ ظنَّ الجاهليَّةِ، وفي سورةِ الفتح سمَّاهُ ظنَّ السّوءِ.

قالَ في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ لأنَّ الجاهليةَ عدمُ العلمِ، فالذي ظنَّ هذا الظنَّ الخاطئَ سببُهُ عدمُ العلمِ باللهِ سبحانه وتعالى وبأسمائِهِ وصفاتِه وحمْدِه وحكمتِهِ.

وقَالَ في سورةِ الفتحِ: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ يعني: إساءَةَ الظنِّ باللهِ عز وجل، فحسنُ الظنِّ باللهِ توحيدٌ وسوءُ الظنِّ باللهِ كفرٌ.

«**قَال ابن القيِّم: فُسِّر هذا الظَّنّ في الآية الأولى**» يعني: آية آلِ عمرانَ.

---

(١) في «زاد المعاد» (٣/ ٢٢٨-٢٣٥).

بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضْمَحِلُّ. وَفُسِّرَ بأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَم يَكُن بقَدَرِ الله وَحِكمَتِهِ. فَفُسِّرَ بِإِنكارِ الحِكمَةِ، وَإِنكَارِ القَدَرِ وَإِنكَارِ أَن يُتِمَّ أَمرَ رَسُولِهِ، وَأَن يُظهِرَهُ اللهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

«**بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ**» وهذا ظنُّ الجاهليَّةِ.

«**وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضْمَحِلُّ**» وهذا تكذيبٌ لقولِهِ تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]، والتكذيبُ لوعدِ الله كفرٌ.

«**وَفُسِّرَ بأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَم يَكُن بقَدَرِ الله وَحِكمَتِهِ. ففُسِّر بإنكار الحكمة، وَإِنكَارِ القَدَرِ، وَإِنكَارِ أَن يُتِمَّ أَمرَ رَسُولِهِ، وَأَن يُظهِرَهُ اللهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**» يعني في ذلكَ ثلاثةَ تفاسيرٍ: إِنْكار الحكمةِ في أفعالِهِ ﷻ، وإِنْكار الحكمةِ: كفرٌ وضلالٌ، لأنَّ اللهَ وصف نفسَه بالحكمةِ، وسمَّى نفسَه بالحكيم، والحكمةُ: وضعُ الشيءِ في موضِعِهِ.

فمن أنكَرَ حكمةَ اللهِ فإنَّه يكفُر بذلكَ، بخلافِ مَنْ أثبتَها وأوَّلَها فإنَّه يُعتبر ضالًّا في هذا التأويلِ، لأنَّ اللهَ ﷻ حكيمٌ لا يفعلُ شيئًا إلَّا لحكمةٍ عظيمةٍ، قد تظهرُ لنا وقد لا تظهرُ،

وفسَّر بـ«**إِنكَارِ القَدَرِ**» وهذا أيضًا كفرٌ باللهِ، لأنَّ القدرَ هو الركنُ السَّادسُ من أركانِ الإيمانِ.

وفسّر بـ «**إِنكَارِ أَن يُتِمَّ أَمرَ رَسُولِهِ** ﷺ، **وَأَن يُظهِرَهُ اللهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**» وهذا هو التفسير الثالث، هو أنَّ اللهَ لا ينصُر رسولَه، وهذا تكذيبٌ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر:٥١].

قوله: «**وَأَنَّ أَمرَهُ سَيَضْمَحِلُّ**» يعني: أنَّ هذا الدينَ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ سيزولُ نهائيًا

وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوءِ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُشرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتحِ. وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوءُ لأَنَّهُ ظَنَّ غَيرَ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ. وَمَا يَليقُ بِحِكمَتِهِ وَحَمدِهِ وَوَعدِهِ الصَّادِقِ.

ولا يبقى منه شيءٌ، مثلَ سائرِ الدعواتِ والمذاهبِ الباطلةِ، فمن ظنَّ هذا فقد ظنَّ بربِّهِ ظنَّ السَّوء.

والله لم يُجرِ هذه النكباتِ لأجلِ أن يُزيلَ أهلَ الدينِ ويُزيلَ الدينَ، إنَّما أجرى هذه النكباتِ على الدينِ وعلى أهل الدينِ ابتلاءً وامتحانًا من أجل الرّجوعِ إليه ﷻ أو لخطأٍ ارتكبوهُ ووقعوا فيه، فاللهُ يريدُ أن ينبِّهَهم من أجلِ أن ينقُّوا صفوفَهم من الدّخيلِ ومن الخطأِ، فيرجعوا إلى اللهِ ﷻ، فيُعيدُ لهم اللهُ النصرَ والتمكينَ، هذه سنَّةُ اللهِ ﷻ في خلْقِهِ.

قوله: «**وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوءِ**» أي: مَن نفي القدرَ، وأنَّ حدوثَ الأشياءِ بدون إرادتِه ﷻ، وبدونِ قدَره؛ فقد ظنَّ بربِّهِ ظنَّ السّوءِ، ووصفَ ربَّه بالعجزِ والجهلِ وعدمِ العلمِ، تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ.

قوله: «**وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوءُ؛ لأَنَّهُ ظَنَّ غَيرَ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبحَانَهُ**» ظنٌّ ما لا يليقُ به ﷻ وهو العَبث.

«**وَمَا يَليقُ بِحِكمَتِهِ وَحَمدِهِ وَوَعدِهِ الصَّادِقِ**» لأنَّه ﷻ محمودٌ على كلِّ حالٍ، على ما يكره العباد وعلى ما يحبّون، لأنَّه من قِبَل الله محمود، فإيقاعُ العقوبةِ فيمن يستحقُّها عدلٌ منه ﷻ يُحمد عليه، وإيقاعُ الهلاكِ بالأُمم الكافرةِ يُحمد عليه ﷻ لأنَّه جزاءٌ، ونزولُ النعَم بأهلِ الإيمانِ والنَّصْر والتَّوْفيق وأهل الاتِّباعِ فضلٌ من اللهِ ﷻ، فهو المحمودُ على كلِّ حالٍ على المحامِد وعلى المكارِهِ.

فَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً يَضمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَو أَنكَرَ أَنَّ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَو أَنكَرَ أَن يَكُونَ قَدَرُه لِحِكمَةٍ بَالِغَةٍ يَستَحِقُّ عَلَيهَا الحَمدَ- بَل زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ- فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. وَأَكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِالله ظَنَّ السَّوءِ فِيمَا يَختَصُّ بِهِم، وفِيمَا يَفعَلُهُ بِغَيرِهِم، وَلَا يَسْلَمُ مِن ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الله وَأَسمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَمُوجِبَ حِكمَتِهِ وَحَمدِهِ، فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى الله، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِن ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوءِ.

قال ابنُ القيِّم: «**فَمَن ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُستَقِرَّةً يَضمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَو أَنكَرَ أَنَّ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ**» هذا إعادةٌ من الإمامِ ابنِ القيِّم ﵀ لتقريرِ هذهِ المسألةِ العظيمةِ.

«**أَوْ أَنكَرَ أَن يَكُونَ قَدَرُه لِحِكمَةٍ بَالِغَةٍ يَستَحِقُّ عَلَيهَا الحَمدَ- بَل زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**» من ظنَّ أنَّ اللهَ يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مُستقرَّة، اللهُ قد يُديل الباطلَ على الحقِّ أحيانًا، لكنَّ هذه الإدالةَ مؤقَّتةٌ لحكمةٍ، وهي أنَّ أهلَ الحقِّ يتنبّهونَ ويتداركونَ الخطأَ والنقصَ الذي حصلَ فيهم

فاللهُ ﷻ قد يُجازي عبدَه المؤمنَ وهو يحبُّه، ويعاقبُهُ لأنَّه يحبُّهُ؛ من أجلِ أن يخلِّصَهُ من هذا الذنبِ، حتى يوافيَ ربَّه طاهرًا نقيًّا ويدخُل الجنَّةَ.

أمَّا الكافرُ وعدوُّ الله فإنَّ اللهَ يصبُّ عليه النعمَ للاستدراجِ ويُمسكُ عنه بالعُقوبةِ حتى يوافيَ القيامةَ وهو محمّلٌ بالذّنوبِ فيكونِ من أهلِ النَّارِ، هذهِ حكمةُ الله ﷻ.

ثمَّ قال ابنُ القيِّم ﵀: «**فليعتنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسِهِ بهذا**» فليتأمّلْهُ تأمُّلًا جيِّدًا، وهو أمرُ أفعالِ الله تعالى في عِباده، وليعلَمْ أنَّه لا يفعلُ شيئًا إلَّا لحكمةٍ وقضاءٍ وقدرٍ.

وَلَو فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيتَ عِندَهُ تَعَتُّبًا عَلَى القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنبَغِي أَن يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ ومُستكثِرٌ. وفَتِّشْ نَفسَكَ، هَل أَنتَ سَالِمٌ من ذلكَ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنهَا تَنْجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ ** وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخالُكَ نَاجِيًا

وهذا موجودٌ في بعضِ بني آدمَ: «**ولو فتَّشتَ مَنْ فتَّشت؛ لرأيت عنده تَعَتُّبًا على القدر وملامَة له**» كما كانَ من إبليسَ، وما نتجَ عن تكبُّرِ إبليسَ وتعنُّته على اللهِ ﷻ. وكذلك بالنسبةِ لمن تشبَّه به في الاعتراضِ على اللهِ في أفعالِهِ ﷻ وفي تصرُّفِهِ في ملكِهِ ﷻ، وأنَّه ينبغي أن يكونَ كذا وكذا.

ثمَّ قالَ: «**وفتِّش نفسَك هل أنت سالم؟**» يجبُ على الإنسانِ أَنْ لا يزكِّي نفسَه أبدًا، يقولُ اللهُ ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم:٣٢]، بل دائمًا الإنسانُ يتَّهِمُ نفسَه بالتقصيرِ في حقِّ اللهِ تعالى.

أَمَّا التزكيةُ التي أثنى اللهُ تعالى على أصحابِها في قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾ [الشمس:٩] فالمرادُ بتزكيةِ النفسِ هنا تطهيرُها بالأعمالِ الصالحةِ وتركِ الأعمالِ السيِّئةِ، هذه تزكيةُ النفسِ، شغلُها بالأعمالِ الصَّالحةِ وتجنيبُها للأعمالِ السيِّئةِ.

وقوله: «**فتِّش نفسَكَ هل أنتَ سالم؟**» يعني: لا تشتغِلْ بعيوبِ النَّاسِ وتنسى نفسَك، فتِّش نفسَكَ هل أنتَ سالمٌ من هذا التعنُّت والملامةِ على القدَر والاعتراضِ على اللهِ ﷻ في الحوادثِ؟

قوله: «**فإنْ تنجُ منها**» يعني: من هذهِ المصيبةِ.

«**فَإِنْ تَنْجُ مِنهَا تَنْجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ ** وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخالُكَ نَاجِيًا**»

يعني: لا أظنُّك تنجو من هذهِ الفتنةِ.

□

الباب الستون

باب ما جاء في منكري القدر

وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَو كَانَ لَأَحَدِهِم مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله، ....

هذا البابُ عقدَهُ الشيخُ رحمه الله ليبيِّن أنَّ الإيمانَ بالقدَرِ من الإيمانِ بربوبيةِ الله، وأنّ مَن أنكرَ القدرَ فقَد أشركَ في توحيدِ الربوبيّةِ.

والقدَر: إحاطةُ الله سبحانه وتعالى بالأشياءِ وعلمُه بها قبلَ كونِها، ثم كتابتُه لها في اللّوحِ المحفوظِ، فكلُّ ما يقعُ في هذا الكونِ فهو داخلٌ في علمِ الله سبحانه وتعالى الأزليِّ وفيما كتَبَهُ في اللّوحِ المحفوظِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد:٢٢].

وفي السنَّةِ النبويَّة أحاديثُ في الصّحاحِ وغيرِها، ساقَ المصنِّفُ منها طَرَفًا في هذا البابِ.

وأجمعَ على ذلكَ المسلمونَ، إلَّا مَنْ ضلَّ وانحرفَ عن منهجِ السَّلفِ من الفرقِ الضالَّةِ، وهؤلاءِ محجوجونَ بالكتابِ والسنَّةِ وإجماعِ الأُمَّةِ.

قال: «**وَقَالَ ابنُ عُمَرَ**» ابن الخطَّاب رضي الله عنهما، «**وَالَّذِي نَفسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ لَو كَانَ لَأَحَدِهِم مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنهُ حَتَّى يُؤمِن بِالقَدَرِ**» سببُ مقالةِ ابنِ عمرَ هذهِ: أنَّه لَمَّا وُجد في آخرِ حياتِهِ رضي الله عنه مَنْ يُنكر القدَر، وسُئل عن ذلكَ، أجابَ هذا الجوابِ.

قوله: «**لَو كَانَ لَأَحَدِهِمْ**» أي هؤلاءِ الذين يُنكرونَ القدرَ.

«**مِثلُ أُحُدٍ ذَهَبًا**» هذا أبلغُ تقديرٍ وأكثرُ تقديرٍ.

«**ثُمَّ أَنفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله**» النفقةُ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ من أعظمِ النفقاتِ أجرًا، فهو مبلغٌ

مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنهُ حَتَّى يُؤمِن بِالقَدَرِ. ثُمَّ استَدَلَّ بِقَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤمِنَ بالله، ومَلَائِكَتِهِ،

كبيرٌ صُرِف في مصرفٍ عظيمٍ، يُرجى لصاحبِه الأجرُ العظيمُ، ولكن هؤلاءِ إذا أنفقوا هذا المبلغَ في هذا المصرِف العظيمِ وهم يُنكرونَ القدرَ فإنَّ اللهَ لا يتقبَّلُه منهم، لأنَّهم لم يؤمنوا باللهِ ﷻ، واللهُ لا يقبلُ إلَّا من المُؤْمنين: «**مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنهُ حَتَّى يُؤمِن بِالقَدَرِ**» فدلَّ هذا على كفرِهم، لأنهم لم يؤمنوا بالقضاء والقدر.

وقوله: «**ثُمَّ استَدَلَّ**» إلخ. أي: لم يقُلْ هذا القولَ مِنْ عندِهِ بل لَمَّا قالَ هذهِ المَقالةَ العظيمةَ، ذكر دليلَها من سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ.

قوله: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤمِنَ باللهِ، ومَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ**» ذكر ستَّةَ أركانٍ للإيمانِ.

فأركانُ الإيمانِ: الإيمانُ باللهِ، وهو: التصديقُ الجازمُ بوحدانيَّةِ اللهِ ﷻ، واستحقاقِه للعبادةِ وحدَه لا شريكَ له، وذلكَ يشملُ أنواعَ التوحيدِ الثلاثةَ: الإيمانَ بتوحيدِ الرّبوبيَّةِ، والإيمانَ بتوحيدِ الأُلوهيَّةِ، والإيمانَ بتوحيدِ الأسماءِ والصفاتِ.

فمن جحَدَ نوعًا من هذهِ الأنواعِ لم يكُنْ مؤمنًا باللهِ ﷻ.

«**وَمَلائِكَتِهِ**»: تؤمنُ أنَّ للهِ ملائكةً، خلقَهم ﷻ من نورٍ، خلقَهُم لعبادتِه: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، ينفّذون أوامرَه ﷻ في مُلكِهِ، كلُّ نوعٍ من الملائكةِ له عملٌ خاصٌّ في هذا الكونِ يأمرُ اللهُ تعالى به.

فالإيمانُ بالملائكةِ من الإيمانِ بالغيبِ، لأننا لا نراهم ولكنَّ اللهَ أخبرَنا عنهم، وأخبرنا عنهم رسولُه ﷺ، فنحنُ نؤمنُ بهم.

وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، ....

ومن لم يؤمِنْ بالملائكةِ أو لم يؤمِنْ ببعضِهم؛ فإنَّه كافرٌ باللهِ ﷻ.

«**وَكُتُبِهِ**» وهي: الكتبُ التي أوحاها اللهُ تعالى إلى رُسلِهِ، مثلُ: التوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ والزَّبورِ، وصحفِ إبراهيمَ، إلى غيرِ ذلكَ من الكتبِ التي ينزِّلُها اللهُ على رسلِهِ بواسطةِ جبريلَ -عليهِ الصلاةُ السَّلامُ-، فيها أوامرُ اللهِ ﷻ ونواهيهِ، وفيها إصلاحُ البشريَّة.

فمن لم يؤمِنْ بالكتبِ من أوَّلِها إلى آخرِها فإنَّه كافرٌ، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:١٣٦]، فلا بدَّ من الإيمانِ بجميعِ الكُتبِ.

ومَنْ آمنَ ببعضِ الكتبِ وكفرَ ببعضِها كاليهودِ والنَّصارى فهم كفَّارٌ أيضًا.

إنَّما الإيمانُ هو: الإيمانُ بجميعِ الكتبِ من أوَّلها إلى آخرِها: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [البقرة:٨٥].

«**وَرُسُلِهِ**» كذلك يجبُ الإيمانُ بجميعِ الرُّسلِ من أوَّلِهم إلى آخرِهم، من سمَّى اللهُ منهم ومن لم يسمِّ، نؤمنُ بجميعِ الرُّسُلِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

فمن آمنَ ببعضِهم وكفرَ ببعضِهم فهو كافرٌ بالجميعِ، كحالةِ اليهودِ والنَّصارى الذين يكفُرونَ بمحمَّدٍ ﷺ، واليهودُ يكفُرون بعيسى وبمحمَّد- عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-.

وكذلكَ من لم يُؤمنْ بالرسل أصلًا كالوثَنينَ والدهريينَ والملاحدةَ: فهم أغرقُ في الكُفرِ وأبعدُ في الكُفرِ والعياذُ بالله.

وَاليَومِ الآخِرِ، وَتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)].

«**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**» يوم القيامة، يجبُ الإيمانُ باليومِ الآخِرِ، وهو: ما بعدَ الموتِ ممَّا أخبرَ اللهُ تعالى به وأخبرَ به رسولُه ﷺ من أحوالِ البَرْزَخ، ثمَّ البعثِ والنُّشورِ، والقيامِ من القُبورِ، ثم الوُقوفِ في المحشَر، ثمَّ الحسابِ، ثمَّ الميزانِ، ثم تطايُر الصُحُفِ فالمؤمنُ يأخُذ كتابَه بيمينهِ وغيرُ المؤمنِ يأخذُ كتابَه بشمالِه، ثمَّ المُرور على الصّراطِ، ثمَّ الاستِقْرار في الجنَّةِ أو في النَّار، هذا كلُّه يشملُه الإيمانُ باليومِ الآخِرِ. فمن لم يؤمِنْ باليومِ الآخرِ فإنَّه ولو آمَنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِهِ ورسلِهِ إذا جحَدَ البعثَ واليومَ الآخرَ كان كافرًا بالجميعِ.

قوله: «وتُؤْمِن بِالْقَدَرِ» هذا هو محلُّ الشَّاهدِ، وهو أن تؤمنَ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ، وأنَّه لا يجري في هذا الكونِ شيءٌ إلَّا قد علمَهُ اللهُ في الأزَل وكتبَهُ في اللّوحِ المحفوظِ وشاءه وأرادَه ﷻ ثم خلقَه وأوجَدَه. **فالإيمانُ بالقضاءِ والقدرِ يتضمنُ أربعَ مراتبٍ:**

المرتبة الأولى: الإيمانُ بعلمِ اللهِ الأزَلي بكلِّ شيءٍ، وأنَّه يعلمُ ﷻ ما كانَ وما يكونُ وما لم يَكُنْ لو كانَ كيفَ يكونُ، كلُّ ذلك يعلمُه اللهُ سُبْحانه، لا يَخْفى عليه شيءٌ: فالإيمانُ بأنَّ اللهَ عالمٌ بكلِّ شيءٍ لا بدَّ منه. ومن جحَدَ علمَ اللهِ فهو كافرٌ.

المرتبة الثَّانية: أنَّ اللهَ كتب في اللّوحِ المحفوظِ كلَّ شيءٍ. فالذي يُنكِرُ الكتابةَ في اللَّوحِ المحفوظِ لم يكُنْ مؤمنًا باللهِ ﷻ ولم يكُنْ مؤمنًا بالقدَر.

المرتبة الثَّالثة: إرادةُ اللهِ ومشيئتُه للأشياءِ، فكلُّ شيءٍ يقعُ ويوجدُ فهو بإرادةِ اللهِ.

المرتبة الرَّابعة: خلْقُ الأشياءِ، فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ فهو من خَلْق اللهِ سُبْحانه ﴿ٱللَّهُ

(١) برقم (٨).

وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ[1] رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ لابنِهِ[2]: يا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَم، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ ....

﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزُّمَر:٦٢]، فكلُّ شيءٍ في هذا الكونِ فهو مِنْ خلْقِهِ سبحانه وتعالى، من خيرٍ أو شرٍّ، من كفرٍ وإيمانٍ، طاعةٍ ومعصيةٍ، غنًى أو فقرٍ، مرضٍ أو صحَّة، حياةٍ أو موتٍ، إلى غيرِ ذلكَ. لكنِ الشرَّ بالنسبةِ إليه لا يكونُ شرًّا، لأنَّه خلقَهُ لحكمةٍ ووضعَهُ في موضعِهِ، فهو بالنسبةِ إليه ليسَ شرًّا، وإنَّما هو شرٌّ بالنسبةِ لمَنْ وقَعَ عليه ومن قُدِّر عليه بذُنوبِهِ ومعاصيهِ، أما بالنسبةِ لله فهو خيرٌ، لأنَّه عدلٌ منه سُبْحانه.

هذهِ مراتبُ الإيمانِ بالقدرِ، وأهلُ السنَّةِ والجماعةِ يؤمنونَ بها كلِّها.

قوله: «**يا بُنَيَّ**» (يا): هذهِ حرفُ نداءٍ، و(بُني) تصغير (ابن)، وذلكَ من أجلِ العطفِ والشَّفقة. «**إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**» طَعْم الإيمانِ: حلاوتهُ ولذّته، وذلكَ لأنَّ الإنسانَ إذا آمنَ أنَّ ما يجري عليه هو بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ؛ فإنَّه يستريحُ، لا يجزعُ عندَ المصيبةِ، ولا يفرح فَرَح بَطَرٍ عندَ النعمةِ، لأنَّه يؤمنُ أنَّ هذا بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ، فيرتاحُ ضميرُه وتطمئنُّ نفسُه ولا يجزعُ ولا يسخطُ.

ثمَّ قالَ: «**سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَم، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ! وَمَاذَا أَكْتُبُ؟**» القلمُ هو: خلْقٌ من خلْقِ اللهِ سبحانه وتعالى، لا يعلمُ مقدارَه وصفتَهُ وكيفيَّته إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، لأنَّه من عالمِ الغيْبِ. والمكتوبُ فيه هو: اللوحُ المحفوظُ.

---

(١) هو عبادةُ بنُ الصامتِ بن قيسِ الأنصاريُّ الخزرجيُّ أحدُ النقباءِ بدريٌّ مشهورٌ، توفي سنة ٣٤هـ وله ٧٢ سنة.

(٢) **ابنه**: هو الوليدُ بنُ عبادَةَ، وُلِدَ في عَهْدِ النبيِّ ﷺ، وهو مِنْ كبارِ التابعين، وماتَ بعدَ السبعينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»[1]. وَفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ[2]: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهبٍ[3] قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، أَحْرقَهُ اللهُ بِالنَّارِ»[4].

«**فَقَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**» فهذا فيه: أنَّ كلَّ ما يجري في هذا الكونِ فهو مكتوبٌ بالقلَم -بقلم المقاديرِ- في اللَّوحِ المحفوظِ، من أوَّلِ الخلْقِ إلى آخرِ الخلْقِ، حتَّى تقومَ السَّاعةُ، لا يخرُج عن هذا شيءٌ في هذا الكونِ أبدًا، ثم قالَ عُبادةُ رضي الله عنه: «**يَا بُنَيَّ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»**» مَنْ مَاتَ على غيرِ الإيمانِ بالقضاءِ والقدرِ ولم يتُبْ إلى اللهِ سبحانه وتعالى قبلَ موتِه فإنَّ محمدًا ﷺ بريءٌ منه.

قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمُ، فَقَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» روايةُ أحمد مثلُ روايةِ أبي داودَ والترمذي، وفيها: أنَّ اللهَ جل جلاله أمرَ القلمَ عندما خلقَه أن يكتُبَ مقاديرَ الأشياءِ، إلَّا أنَّ لفظةَ روايةِ أحمدَ: (إلى يومِ القيامة)، والرِّواية التي قبلَها: (إلى أن تقوم الساعة)، والمعنى واحد.

«**ولابنِ وَهبٍ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَمَنْ لَمْ يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، أَحْرقَهُ اللهُ بِالنَّارِ**» هذا نوعٌ آخرُ من الوعيدِ، وهو أنَّ مَن أنكرَ القضاءَ والقدرَ فإنَّ اللهَ يُحرقُهُ بالنَّار، فدلَّ على أنَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥).

(٢) في «المسند» (٥/ ٢١٧).

(٣) **ابنُ وهبٍ**: هو عبدُ اللهِ بنُ وهبِ بنِ مسلمٍ المصريُّ الثقةُ الفقيهُ صاحبُ مالكٍ، وُلِدَ سنة ١٢٥هـ، وتوفي سنة ١٩٧هـ.

(٤) في كتاب «القدر» (٢٦).

وَفِي «المسنَدِ» وَ«السُّنَنِ»(١) عَن ابن الدَّيلَمِي(٢) قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبي فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ،

الإيمانَ بالقضاءِ والقدرِ أمرٌ واجبٌ، وأنَّ إنكارَه موجبٌ لدُخولِ النارِ إمَّا لكفرِهِ وإمَّا لبدعتِهِ، فالمنكرُ للقضاءِ والقدرِ إنْ كان مع هذا يجحدُ علمَ اللهِ ﷻ فهذا كفرٌ. أمَّا إنْ كانوا يُقرُّون بالعلم ويُنكرون القدرُ فهذا بدعةٌ شنيعةٌ والعياذُ باللهِ، قد تقرب من الكفرِ، وهو ما عليهِ متأخِّروهُم.

قالَ: «**أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ**» هكذا طلبةُ العلمِ الذينَ يبحثونَ عن الحقيقةِ، ويبحثونَ عن العلمِ النَّافعِ إذا أَشْكَلَ عليهم شيْءٌ، لا يَعْتَمدون على رأيِهم، وإنَّما يرجعونَ إلى أهلِ العلمِ.

«**فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ**» يعني: أخبرني بشيءٍ عن رسولِ اللهِ ﷺ.

«**لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي**» هذا دليلٌ على أنَّ الإشكالَ يزولَ بالعلمِ، وعلى أنَّ الوساوسَ تزولُ بالعلم النَّافع، لا شفاءَ لها إلَّا العلمُ، والعلمُ إنَّما يُطلَبُ عندَ أهلِه.

«**فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ**» لأنَّ العملَ وإنْ كانَ جليلًا فإنَّه لا يُقبل إلَّا إذا صحَّتِ العقيدةُ، ومِنْ صحَّةِ العقيدةِ: الإيمانُ بالقضاءِ القدَرِ.

«**وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**» تطابقَتْ كلمةُ أُبيٍّ بن كعبٍ معَ كلمةِ ابنِ عمرَ ومع كلمةِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ ﷺ، لأنَّهم يأخذونَ من مصدرٍ واحدٍ وهو سُنَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ، ولا يقولونَ شيئًا من عندِ أنفسِهم.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٨٢)، وأبو داود (٤٦٩٩) وابن ماجه (٧٧).

(٢) **ابْنِ الدَّيْلَمِيُّ**: هو عبدُ اللهِ بنُ فيروزِ الديلميُّ، ثقةٌ مِنْ كبارِ التابعين، وأبوهُ فيروزٌ قاتلُ الأسودِ العنسيِّ الكذابِ.

وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنتَ مِن أَهلِ النَّارِ». قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ ابْنَ الْيَمانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُم حَدَّثَنِي بِمِثلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ. رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «صَحِيحِهِ»(١).

«**لَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنتَ مِن أَهلِ النَّارِ**» هذا أيضًا مطابِقٌ لحديثِ رسولِ الله ﷺ الذي مرَّ قريبًا: «**مَنْ لَمْ يُؤمِن بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، أَحْرقَهُ الله بِالنَّارِ**».

قال: «**فَأَتَيْتُ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ ابْنَ الْيَمانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ**» هؤلاءِ أقطابٌ من أقطابِ العلمِ، من صحابَةِ رسولِ الله ﷺ.

ويُروى: أنَّ أُبيَّ بن كعب أحالَه إلى عبدِ الله بن مسعودٍ، ولَمَّا أجابه عبدُ الله بنُ مسعودٍ أحالَه على حُذيفةَ بنِ اليَمانِ، ولَمَّا أجابه حُذيفةُ بنُ اليَمانِ أحالَه على زيدِ بنِ ثابتٍ، فكلُّ واحدٍ منهم يُحيلُه على أخيهِ لأجلِ أن يزولَ ما في قلبِهِ.

يقولُ ابنُ الديلميُّ: «**فَكُلُّهُم حَدَّثَنِي بِمِثلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ**» أنَّ الإيمانَ بالقضاءِ والقدرِ أمرٌ لا بدَّ منه، ولا يقبلُ اللهُ من أحدٍ عملًا إلَّا به، ومن لم يُؤمن به فهو من أهلِ النَّارِ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ والسَّلامةَ.

---

(١) كذا قال: (رواه الحاكم في «صحيحه»)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٧٢٧).

الباب الواحد والستون

باب ما جاء في المصوِّرين

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَو لِيَخْلُقُوا شَعِيرةً». أَخرَجَاهُ[1].

هذا البابُ عقدَهُ المصنِّفُ ﷺ في «**كتاب التوحيد**» لأنَّ التصويرَ سببٌ من أسبابِ الشِّركِ، ووسيلةٌ إلى الشِّركِ الذي هو ضدُ التّوحيدِ، كما حَدثَ لقومِ نوحٍ لَّما صوَّروا صورَ الصالحين ونصبوها في مجالِسِهم وآل بهم الأمرُ إلى أنْ عبدوهم من دونِ الله، فأوَّلُ شركٍ حصَلَ في الأرضِ كانَ بسببِ التَّصويرِ.

فقولهُ ﷺ: «**باب ما جاء في المصوِّرين**» يعني من الوعيد الشَّديدِ والنهي والزَّجرِ عن ذلكَ.

قوله: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا من المصوِّر.

قوله تعالى: «**يَخْلُقُ كَخَلْقِي**» يعني بذلك المُصوِّر، لأنَّ المُصوِّر يحاولُ أن يوجدَ صورةً تُشبهُ الصورةَ التي خلَقَها اللهُ ﷻ، لأنَّ اللهَ ﷻ تفرَّدَ بالخلْق، تفرَّد بالتَّصويرِ.

وقوله: «**فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً**» هذا أمرُ تعجيزٍ وتحدٍ، وهو تحدٍّ قائمٌ إلى يوم القيامةِ.

«**أَو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً**» حبّةً من النّباتِ: حبّةَ بُرٍّ أو دخنٍ أو غيرِ ذلكَ من الحبوبِ.

«**أَو لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً**» أي: حبَّةَ شعيرٍ، هم يستطيعونَ أن يعملوا صورةَ حبَّةٍ، صورةَ شعيرٍ، صورةَ ذرةٍ، لكن لا يستطيعونَ أن يجعلوا فيها الخواصَّ التي يجعلُها اللهُ في هذا المخلوقِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١).

وَلَهُمَا(١) عَن عَائِشَةَ ﵂: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ». وَلَهُمَا(٢) عَن ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ». وَلَهُمَا(٣) عَنهُ مَرفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا، كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

قوله ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يدلُّ على أنَّ التصويرَ حرامٌ مغلَّظُ **التحريمِ وأنَّه كبيرةٌ** من كبائرِ الذُّنوبِ.

«الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ» يعني: يحاولون أنْ يوجدوا صورةً تُشْبه خلقَ اللهِ ﷻ، فالمُضاهاةُ معناها: المشابهةُ.

قال: **«وَلَهُمَا عَن ابنِ عَبَّاسٍ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»**. هذا الحديثُ أيضًا فيه وعيدٌ شديدٌ، فقولُه: **«كُلُّ مُصَوِّرٍ»** هذا يشملُ جميعَ أنواعِ التصويرِ.

وقوله: **«يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ»** أي: كلُّ صورةٍ صوَّرها بأيِّ وسيلةٍ، كثُرت الصورُ أو قلَّت، تُحْضَر هذهِ الصورُ التي صوَّرها يومَ القيامةِ، ويُجعلُ في كلِّ صورةِ نفسٍ يعذّبُ بها في جهنَّمَ، هذه الصورُ تصلاه بالعذابِ يومَ القيامةِ.

قوله: **«وَلَهُمَا عَنهُ مَرفُوعًا: مَنْ صَوَّرَ صُورَةً كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»** أي: تُحضر الصورُ كلُّها التي صَنَعها، ويؤمَر بأن ينفُخ فيها الأرواحَ، وهل يستطيعُ أن ينفُخ الأرواح؟

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٤) ومسلم (٢١٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٢٥) ومسلم (٢١١٠)، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٣) ومسلم (٢١١٠).

وَلِمُسلِمٍ[(١)] عَن أَبِي الهَيَّاجِ[(٢)] قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَّا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ؟ أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

ولكنَّ هذا من بابِ التعجيزِ والعذابِ، بأن يُحَمَّلَ ما لا يستطيعُ وما لا يُطيقُ والعياذُ باللهِ فيطولُ عذابُه.

قوله: «**عَن أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: أَلَّا أَبْعَثُكَ**» أي: أُرسلك.

«**عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ؟**» أي: أرسلني إليه رسولُ اللهِ ﷺ وكلَّفَني به،

«**أَنْ لَا تَدَعَ صُورَةً**» تعُمُّ كلَّ صورةٍ مُجسَّمَةٍ أو مرسومةٍ أو مُلْتقطةٍ بالآلةِ.

«**إِلَّا طَمَسْتَهَا**» وطمسُها يكونُ بإتلافِها، أو بقطعِ رأسِها، حتى تُصبحَ مُجرَّدَ شكلٍ بدونِ رأسٍ،

فقوله: «**وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ**» المشرف: المرتفع، بأن يُبنى على القبرِ بنايةً من أجلِ تعظيمِ القبرِ، كما يُفعلَ من بناءِ الأضرحةِ، أو يزادُ عليها غيرُ ترابِها حتى تصبحَ مرتفعةً أكثر من شبرٍ، أو تُجصَّص القبورُ ويُكتبُ عليها، وما أشبهَ ذلك، فهذا كلُّه حرامٌ، لأنَّه وسيلةٌ إلى الشركِ.

ولاحظوا كونَ الرَّسولِ ﷺ جمَعَ بينَ طمْسِ الصورةِ وتسويةِ البناءِ على القُبورِ ممَّا يدلُّكم على أنَّ من العللِ العظيمةِ في منعِ التّصويرِ أنَّه وسيلةٌ إلى الشركِ، فكما أنَّ البناءَ على القُبورِ وسيلةٌ إلى الشركِ، فكذلكَ التَّصويرُ وسيلةٌ إلى الشركِ.

---

(١) برقم (٩٦٩).

(٢) **أبو الهيَّاجِ**: هو حيَّانُ بنُ حصينٍ الأسديُّ، تابعيٌّ ثقةٌ.

الباب الثاني والستون

باب ما جاء في كثرة الحلف

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة:٨٩].

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيدِ: أنَّ الاستهانةَ بالحَلْفِ باللهِ تنقِّصُ التوحيدَ، كما أنَّ تعظيمَ الحلفِ باللهِ من كمالِ التوحيدِ.

قوله: «**بابُ ما جاء**» يعني: من الوعيدِ في حقِّ من كثُر حلفُه.

وكثرةُ الحَلفِ معناها الإكثارُ من الأيمانِ في كلِّ مناسبةٍ، وقد يكونُ في غيرِ داعٍ لليمينِ إلَّا التغريرَ بالناسِ وخداعَ النَّاسِ كحالةِ المنافقينَ، واللهَ ﷻ ذكرَ ذلكَ من صفاتِ المنافقينَ، فقالَ فيهم: ﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧]، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ [المجادلة:١٦]، يعني: سُترةً يتسترّونَ بها أمامَ النَّاس ليصدِّقوهم، وكلَّما قلَّ الإيمانُ أو عُدمَ الإيمانُ في القلبِ حصلَ التهاونُ باليمينِ والحلفِ.

ثمَّ قال: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ ذكرَ العلماءُ لهذه اللفظةِ قولين:

القول الأول: أنَّ معنى ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: لا تحلِفوا، نهيٌ عن الحلفِ، فلا يحلِفُ الإنسانُ إلَّا إذا دعَتْ إلى ذلكَ حاجةٌ، ويكونُ صادقًا في يمينه، كما قالَ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ باللهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ**»(١).

والقول الثاني: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ أي: بالكفَّارةِ إذا حَنثْتُم يعني: كفِّروا عنها، فالكفَّارةُ حفظٌ لليمينِ واحترامٌ لها.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١).

عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخرَجَاهُ[1]**. وَعَن سَلمَانَ**[2] ﷺ**: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِط زانٍ،** ....

قال: «**عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: الْحَلِفُ**» أي: اليمين.

«**مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ**» أي: مروِّجةٌ للسِّلْعة وسببٌ لِنفَاقِها، وهو خُروجُها من يدِ صاحبِها إلى الزّبائنِ.

وقوله ﷺ: «**مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ**» المَحْقُ معناه: الإزالةُ، أي: أنَّ اليمينَ تُزيل الكسْبَ إمَّا بأن تُزيلَ البركةَ منه، ولو بقي، ولا ينتفعُ به صاحبُه، وإمَّا بأن تُزيلَ أصلَ المالِ بالتلَف والآفاتِ.

قوله: «**وَعَن سَلمَانَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: ثَلَاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ الله**» والمعنى: لا يكلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ كلامَ تكريمٍ وتنعيمٍ، فهم يُحرمون من كلامِ اللهِ ﷻ لهم يومَ القيامةِ.

«**وَلَا يُزَكِّيهِمْ**» أي: لا يُطهِّرُهم.

قوله: «**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» أي: موجِع.

فقال: «**أُشَيْمِطُ**» تصغيرُ (أَشْمَط)، والأشْمَطُ هو: الذي بدأَهُ الشَّيْبُ، وصغَّرهُ تحقيرًا له.

«**زَانٍ**» أصلُهُ «زاني» بالياءِ، والزنا قبيحٌ وكبيرةٌ من كبائرِ الذُّنوبِ.

فالزّنا قبيحٌ بكلِّ معاني القُبحِ، ولكنَّه يقبُح من بعضِ الناسِ أكثرَ وأكثرَ، فالزنا من مثلِ هذا الأُشيمطِ قبيحٌ، لأنَّ الأُشيمِطَ لَمَّا أصابَه الشيبُ كان الواجبُ أن يكونَ أبعدَ الناسِ عن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٦).

(٢) سلمانُ الفارسيُّ، أصلُهُ مِنْ أصبهانَ ، أسلمَ عندَ قدومِ النبيِّ ﷺ المدينة وشهِدَ الخندقَ وغيرَهَا، توِّفي سنة ٣٦هـ.

وَعَائِلٌ مُستكبِرٌ وَرَجُلٌ جَعَلَ الله بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِي[1] **بِسَنَدٍ صَحِيحٍ. وَفِي «الصَّحِيح»**[2] **عَن عِمرَانَ بن حُصَينٍ ﷺ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ....**

الزّنا، لأنَّه ضعُفت فيهِ الشهوةُ وداعي الزِّنا، وأيضًا هو يتطلَّعُ إلى الموتِ والانتقالِ إلى الدَّارِ الآخرةِ، فكانَ الواجبُ عليهِ التَّوبة والاستعداد للآخرةِ، والاسْتِعداد للقاءِ اللهِ، فإذا زنى وهو في هذه السنِّ فهذا دليلٌ على قُبحِ أخلاقِهِ، وعلى أنَّ الزنا سجيّةٌ فيه.

الثاني: «عَائِلٌ» المرادُ به: الفقيرُ.

«مُسْتكْبِرٌ» الكبر قبيح، لأنَّ الإنسانَ مطلوبٌ منه التواضُعُ لربِّهِ ﷻ، و لخلقِ اللهِ ﷻ، والكبرُ كلُّه قبيحٌ من كلِّ أحدٍ، ولكنَّ الكبرَ من العائلِ -أي: الفقيرِ- أشدُّ، لأنَّه لا داعيَ للكبرِ فيه، لأنَّ الغني قد يغترُّ بمالِه

لكنَّ العائلَ ليسَ عندَهُ سببٌ للكبرِ، فاستكبارُه من بابِ السجيَّةِ القبيحةِ فيه،

والثالث: وهو محلُّ الشَّاهدِ من الحديثِ للبابِ: **«رجلٌ جعلَ الله بضاعَتَه»** هذا عامٌّ للرجالِ وللنساءِ، أي أنَّه لا يشتري إلَّا بيمينِهِ ولا يبيعُ إلَّا بيمينِهِ، كما فَسَّرهُ ﷺ بقوله: **«لا يشتري إلَّا بيمينِهِ ولا يبيع إلَّا بيمينِهِ»**.

فهو يُكثِرُ من الحِلفِ باللهِ تهاوُنًا، فكانَ جزاؤُه هذهِ العقوباتِ الثلاثَ: لا يكلِّمُه اللهُ، ولا يزكِّيه، وله عذابٌ أليمٌ والعياذُ باللهِ.

قوله: **«عَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ ﷺ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي»** القرنُ

---

(١) في «المعجم الكبير» برقم (٦١١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٠) ومسلم (٢٥٣٥).

ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا- ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

يرادُ به: الجيلُ من النَّاسِ، ويُطلق على الزَّمانِ، ومقدارُ القرنِ من الزَّمانِ: مائةُ سنةٍ.

«**خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي**» يعني: أفضلَ أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ هم القرنُ الذينَ عاصروا الرَّسولَ ﷺ.

«**قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟**» هذا من تحرِّيهِ في الروايةِ رضي الله عنه، وهذه عادتُهم رضي الله عنهم؛ أنَّهم لا يقولونَ ولا يجزمونَ إلَّا بما يتأكَّدونَ من صحَّتِهِ.

«**قال ﷺ: ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**» أي: يشهدونَ بدونِ أن تُطلبَ منهم الشهادةُ، بل يُبادِرونَ بها، ويتسارَعون من دونِ أن تُطلبَ منهم، فهذا دليلٌ على استخفافِهم بها، وهذا نقصٌ في التَّوحيدِ، فيكونُ فيه مطابَقةٌ للترجمةِ وهي قولُ الشيخِ رحمه الله: «**باب ما جاء في كثرة الحلف**» لأنَّ الشهادةَ حلفٌ.

وقوله: «**وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُوفُونَ**» **النَّذر** لغةً: التزامُ الشيءِ، وشرعًا: التزامُ طاعةٍ لله لم تكُنْ واجبةً بأصلِ الشَّرعِ، فإذا التزمَ عبادةً لله فإنَّها تجبُ عليه، ويجبُ عليهِ الوفاءُ بها فإن لم يفِ به كان عاصيًا وتاركًا لواجبٍ يعاقَب عليه.

ثمَّ قالَ: عليه الصلاة والسلام مبيِّنًا علامةَ هؤلاءِ: «**وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**» يظهرُ فيه سِمَنُ الأجسامِ، وذلك لأنَّهم يُرفِّهون أنفسَهم ويشتغلونَ بملذَّاتِهم وشهواتِهم وينسَوْنَ الآخرةَ وينسَوْنَ الحسابَ، فإذا كان السِّمَن سببُهُ هذَا فهو مذمومٌ، أمَّا إذا كان السِّمَن ليسَ من أجلِ هذا، وإنَّما هو عارضٌ عرَضَ للإنسانِ مع قيامِه بحقِّ اللهِ سبحانه وتعالى، وأدائه لفرائضِ اللهِ، وعملِهِ لآخرتِهِ؛ فهذا ليسَ مذمومًا.

وَفِيهِ[1] عَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَومٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيمِينُهُ شَهَادَتَهُ». وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ[2]: كَانُوا يَضرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحنُ صِغَارٌ.

«**عَن ابنِ مَسعُودٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**» في الحديثِ الأوَّلِ: «**خَيْرُ أُمَّتِي**»، وهنا «**خَيْرُ النَّاسِ**»، أي: جميعُ الناسِ، من هذهِ الأُمَّةِ وغيرِها.

«**ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**» هذا فيه: الجزمُ بما شكَّ فيهِ عمرانُ ﵁، وأنَّ الرسولَ ﷺ ذكرَ ثلاثةَ قرونٍ: قَرْن الصحابةِ، ثمَّ قَرْن التابعينَ، ثُمَّ قَرنْ أتباعِ التَّابعينِ.

«**ثُمَّ يَجِيءُ**» يعني: من بعدِ القرونِ الثلاثةِ.

«**قَومٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيمِينُهُ شَهَادَتَهُ**» يعني: لا يُبالون بالشهادةِ، ولا يُبالون بالأيْمانِ، بل يُسابقونَ إليها، ويُسارعونَ إليها بدونِ تحفُّظٍ، وبدونِ خوفٍ من الله ﷻ، يَحْلفون ويَشْهدون بكثرةٍ. فهذا فيه: ذمُّ كثرةِ الشهادةِ، وذمُّ كثرةِ اليمينِ، والنَّهْي عن كثرةِ الشهادةِ وكثرةِ الحلفِ، لأنَّ في ذلكَ: استخفافًا بهما، فيكونُ منقِّصًا للتوحيدِ.

وقوله: «**قَالَ إِبْرَاهِيمَ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا**» يعني: السَّلف الذينَ أدركَهُم، قيلَ: إنَّه يريدُ: أصحابَ ابنِ مسعودٍ خاصَّةً، وقيلَ: إنَّه يُريد أصحابَ ابنِ مسعودٍ وغيرَهم من السلفِ، كانوا يَضْربون الأطفالَ إذا سمعوهُمْ يشهدونَ أو يَحْلفون، تأديبًا لهم ليربُّوهم على تعظيمِ الشهادةِ وتعظيمِ اليمينِ، حتَّى ينشأوا على ذلكَ.

□

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣).

(٢) **إبراهيمُ**: هو أبو عمرانَ إبراهيمُ بنُ يزيدَ النخعيُّ الكوفيُّ، مِنَ التابعين ومِنْ فقهائِهم، ماتَ سنة ٩٦هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الباب الثالث والستون

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيِّه

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ ....

مناسبةُ هذا البابِ لكتابِ التوحيدِ: أنَّ نقضَ العهودِ فيه نقصٌ في التوحيدِ، لأنَّه يدلُّ على عدمِ احترامِ عهْدِ اللهِ، ومن لم يَحْترمْ عهدَ اللهِ، فإنَّ هذا يدلُّ على نقصِ توحيدِه

وقولُ الشيخِ رحمه الله: «**باب ما جاء في ذمَّة الله وذمَّة نبيِّه**» الذِّمَّة معناها: العَهْد. وما جاءَ يعني: من النَّهْي عن نقضِ العُهودِ من كتابِ الله وسنَّةِ نبيِّهِ ﷺ، وما جاءَ من الوعيدِ في ذلكَ.

قالَ: «**وقول الله تعالى:** ﴿وَأَوْفُوا۟﴾» هذا أمرٌ من اللهِ سبحانه وتعالى بالوفاءِ بالعُهودِ، والوفاءُ: ضدُّ الغدرِ والخيانةِ.

﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ المرادُ به: الميثاقُ الذي يُعقد بينَ النَّاسِ، وأضافَهُ إلى نفسِهِ إضافةَ تشريفٍ؛ ممَّا يدلُّ على تعظيمِ العهدِ،

﴿إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ أي: عاهدتُمْ طرفًا آخرَ من النَّاسِ، وهذا يشملُ الذي بينَ اللهِ وبينَ خلقِهِ والعهدَ الذي بينَ المسلمينَ وبينَ الكُفَّارِ، ويشملُ العهدَ الذي بينَ وليِّ أمرِ المسلمينَ وبينَ الرعيَّةِ، ويشملُ العهدَ الذي بينَ أفرادِ النَّاس بَعْضهم مع بعض.

فهذِهِ العهودُ العامَّةُ والخاصَّةُ يجبُ الوفاءُ بها، لأنَّ نَقْض العُهودِ من علاماتِ المُنافقين، قالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

ثمَّ نهى سبحانه وتعالى عن نقضِ العُهود، فقالَ: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [النحل: ٩١] يعني: العهودُ.

بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ [النحل:٩١]. **وَعَن بُرَيدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا** ....

﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ أي: بعدَ إبرامِها وعقْدِها،

﴿وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ﴾ أي: والحالُ أنَّكم إذا عاهدتُّم فقَدْ جعَلْتُم اللهَ كفيلًا عليكم. والمعنى: أنَّ اللهَ ﷻ ينتقمُ ممَّن نقضَ العَهْد، لأنَّهم إنَّما وثقوا بكم ووثِقْتم بهم باسمِ اللهِ ﷻ، فصارَ اللهُ سُبْحانه كفيلًا وحسيبًا ورقيبًا على الجميعِ.

«**وَعَن بُرَيدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍأَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ**»

وتقوى اللهِ هي: فعلُ أوامرِهِ وتركُ نواهيهِ. سُمِّيت تقوى لأنَّها تقي من عذابِ اللهِ.

«**وَبِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا**» أي: وأوصاهُ بمَنْ معه من المُسْلمينَ ممَّن تحتَ يدِهِ من السريَّةِ أو الجيشِ خيرًا: بأنْ ينصحَ لهم ويتولَّى أمرَهُم يدبِّر شؤونهم وينظرَ في مصالحِهم.

ثمَّ يقولُ ﷺ للأميرِ وللجيشِ وللسريَّةِ، يقولُ للجميعِ: «**اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ**» أي: مُستعينينَ باللهِ.

«**فِي سَبِيلِ اللهِ**» يعني: أنَّ الغزوَ لا يكونُ لطلبِ المُلْكِ أو لطلبِ المالِ أو التسلُّطِ على النَّاسِ، هذا شأنُ أهلِ الجاهليَّةِ.

«**قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ**» القَصْد من الغزوِ هو: قتالُ الكفَّارِ، لكفرِهم، لأنَّ اللهَ خلقَ النَّاسَ لعبادتِهِ ﷻ.

«**اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا**» الغُلول هو: أن يأخذ شيئًا من الغنيمة قبل القِسْمة.

وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا. وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ. فَاقْبَلْ مِنْهُم. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ....

«**وَلَا تَغْدِرُوا**» هذا الشَّاهدُ من الحديثِ للبابِ، والغدرُ هو: الخيانةُ في العهدِ.

«**وَلَا تُمَثِّلوا**» التمثيل معناهُ: تشويهُ جُثَث القتلى؛ بقطعِ آذانِهم أو أُنوفِهم أو أطرافِهم، وهذا لا يجوزُ، لأنَّ جُثَّةَ الآدمي لها حُرْمةٌ حتَّى ولو كانَ كافرًا، فلا يجوزُ التمثيلُ به.

«**وَلَا تَقْتُلُوا وَليدًا**» الوليدُ معناه: الصَّغيرُ من الكُفَّارِ، لأنَّه ليسَ منه خطرٌ على المسلمينَ، كما أنَّها لا تُقتلُ أيضًا المَرْأةُ من الكُفَّارِ، وكذلكَ الشيخُ الكبيرُ الهَرِم لا يُقتل، إلَّا إذا كانَ له رأيٌ ومشورةٌ في الحَرْب، وكذلكَ الرُّهبانُ الذين في الصوامعِ.

قوله: «**وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلَالٍ)**» الخِصال والخِلال بمعنى واحد، ولكن هذا شكٌّ مِنَ الراوي.

«**فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ**» إذا قبلوا أيَّ واحدةٍ من هذه الخلالِ الثلاثِ -أو الخصال- فاقبَل منهم إجابتَهُم وكُفَّ عنهم القتالَ، ولا تقاتِلْهم.

«**ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ**» فالكُفَّارُ يجبُ أن يُدعَوا إلى الإسلامِ أوَّلًا، فإنْ قَبِلوا فالحمدُ لله، لأنَّ هذا هو المقصودُ.

ثم إذا قبلوا الإسلامَ فـ «**ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ**» يعني: من مكانِهم الذي يُقيمونَ فيه.

«**إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ**» وهي المدينةُ في ذاكَ الوقتِ.

فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى. وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ ....

«**فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ**» يعني: إنْ آثروا البقاءَ في بلدهم ولم ينتقلوا إلى المدينةِ فأخبرهم أنّهم يكونونَ كأعرابِ المُسْلمين.

«**يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى**» أي: حُكمُ الإسلامِ، فيكونونَ مسلمينَ، ولكن «**لَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ**» الغنيمةُ هي: ما يستولي عليه المسلمونَ من أموالِ الكُفَّارِ في أثناءِ القتالِ.

«**فَإِنْ أَبَوْا**» يعني أبَوْا الإسلامَ، فينتقلُ معهم إلى الخصلةِ الثانيةِ، وهي: طلبُ الجِزْيةِ. والجزيةُ: مقدارٌ من المالِ يدفعُهُ الكافرُ حتى يُحْقَنَ دمُهُ ويعيشَ تحتَ ظلِّ الإسلامِ وحكمِ الإسلامِ، ويبقى على كفرِهِ.

وقوله: «**فَإِنْ هُمْ أَبَوْا**» يعني: أَبوْا دَفْع الجزيةِ.

«**فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ**» هذه الخصلةُ الثالثةُ، وهي المرحلةُ الأخيرةُ معهم، وهي: القتالُ، لأنّهم أَبَوْا الدخولَ في الإسلامِ، وأَبَوْا دفعَ الجزيةِ، فلم يبقَ إلَّا القتالُ، وقد بلغَتْهم الدعوةُ، وقامَتْ عليهم الحجةُ، انقطعَتْ معذرتُهُم فلم يبقَ إلَّا قتالُهم لأجلِ أَنْ تكونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة:١٩٣].

ثُمَّ قال ﷺ: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ**» المراد بالحِصْن: واحدُ الحُصون، وهي: الأبنيةُ القِلاع التي يتحصَّنُ بها المُقاتِلون. والحصارُ معناه: تطويقُ الحُصون من كلِّ المنافذِ، ومنعهُمُ من

فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا» رَوَاهُ مُسلِمٌ[(١)].

الخروجِ والدخولِ، ووصولُ الأمدادِ إليهم.

«**فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ**» الذمَّة: العَهْد.

«**فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ**» هذا نهيٌ عن ذلكَ؛ احترامًا لذمةِ اللهِ وذمةِ نبيهِ ﷺ من النقضِ وعدمِ الوفاءِ.

«**فَإِنَّكُمْ أَنْ تخفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّة أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ**» الإخفار معناه: النَّقْض، والخفرُ معناه: الحمايةُ، ولا يؤمنُ ممَّن أعطى ذمةً أن ينقضَها، فنقضُ ذمتِهِ أهونُ من نقضِ ذمةِ اللهِ وذمةِ رَسولِهِ ﷺ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ**» يعني: على اجتهادِك، تقولُ لهم: أنا أجتهدُ فيكم في الحكمِ الذي أرى أنَّه حقٌّ وصوابٌ، فإن وُفِّقتُ وأصبتُ فذلكَ من اللهِ ﷻ، وإنْ أخطأتُ فهذا من اجتهادي ولا يُنسبُ إلى اللهِ ﷻ.

ولهذا قالَ في ختامِ الحديثِ: «**فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا**».

---

(١) برقم (١٧٣١).

الباب الرابع والستون

باب ما جاء في الإقسام على الله

عَن جُندُبِ بنِ عَبدِ الله ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ الله لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، ....

قالَ الشيخُ ﵀: «**باب ما جاء في الإقسام على الله**» الإقسامُ على الله هو: الحلفُ على الله، فإنْ كانَ هذا الحلفُ على الله. بأنَّه لا يرحمُ عبادَه ولا يغفر لهم ولا يُدخل أحدًا منهم الجنَّة فهذا محرَّمٌ، وهو سوءُ أدبٍ معَ الله تعالى. فلذلك عقَد المصنِّفُ ﵀ هذا البابَ، وأجملَ في الترجمةِ فقالَ: «**باب ما جاء في الإقسام على الله**» لأنَّ الإقسامَ على اللهِ له وجهانِ:

الأوّل: هو ما ذكرنا، وهذا ممنوعٌ وحرامٌ، ومخلٌّ بالعقيدةِ.

الثاني: أن يكونَ على وجهِ حسنِ الظنِّ باللهِ أن يفعلَ الخيرَ، وأن يغفرَ لعبادِهِ وأَنْ يسقيَهم المطرَ، وأن ينصرَهم على الأعداءِ، فهذا لا بأسَ به، لأنَّه حسنُ ظنٍّ باللهِ، وقد جاءَ في الحديث «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ الله مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلى اللهِ لأَبَرَّهُ**»(١).

قوله: «**قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ**»: «**قَالَ رَجُلٌ**» يعني: ممَّنْ كانَ قبلَنا من الأُممِ.

قولُه: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ**» هذا من النَّوعِ الأوَّلِ، وهو الحلفُ على اللهِ أَنْ لا يفعلَ الخيرَ، وهو المُحرَّم.

«**قَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ**» يتألَّى يعني: يحلفُ.

ثمَّ قالَ ﷻ: «**إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ**» اللهُ ﷻ يغفرُ الذنوبَ، يُوفِّق العبدَ للتوبةِ ولو قَبْلَ الموتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٣) ومسلم (١٦٧٥).

وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رَوَاهُ مُسلِمٌ[1]. وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيرَةَ: أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ[2].

بلحظاتٍ، ثمَّ يتوبُ اللهُ عليهِ ويُدخلُهُ الجنَّةَ، وقد يكونُ الإنسانُ كافرًا عدوًّا لله، ثم يمنُّ اللهُ عليه بالتوبةِ والإسلامِ، ويموتُ في لحظتِهِ ويدخُل الجنَّةَ، وقد يكونُ الإنسانُ على عملٍ صالحٍ وعلى عبادةٍ ثمَّ يرتدُّ عن الإسلامِ في آخرِ لحظةٍ ثمَّ يدخلُ النَّارَ، فالأعمالُ بالخواتيم.

قالَ ﷻ للذي تألَّى عليهِ سُبْحانه: «**وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**» أي: أَبْطَلْته.

فهذهِ الكلمةُ أبطلَتْ عملَهُ.

ففيهِ: خطرُ اللِّسانِ، ولهذا قالَ أبو هريرةَ ﷺ: «**تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ**» يعني: أهلكَتْ دنياهُ وآخرتَهُ.

---

(١) برقم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠١).

الباب الخامس والستون

باب لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه

عَنْ جُبيرِ[1] بنِ مُطعِمٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وَجَاعَ الْعِيَالُ، وهَلَكَتِ الأَمْوَالُ؛ فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ، ....

الاستشفاعُ: طلبُ الشفاعةِ. **والشَّفاعة**: الوساطةُ في قضاءِ الحوائجِ عندَ من هي بيدِهِ.

الاستشفاعُ باللهِ على أحدٍ من خلقِهِ: هذا منكرٌ عظيمٌ، لأنَّ المشفوعَ عندَه يكونُ أعظمَ من الشَّافعِ، فإذا استشفَعَ باللهِ إلى أحدٍ من خلقِهِ فمعناه: أنَّ هذا المخلوقَ عندَهُ أعظمُ من اللهِ، فهذا تنقُّصٌ لجنابِ اللهِ ﷻ، وهذا مُخِلٌّ بالتوحيدِ.

قوله: «**جَاءَ أَعْرَابِيٌّ**» الأعرابي هو: ساكنُ الباديةِ، والغالبُ على سُكَّان الباديةِ الجهلُ.

«**نَهِكَت الأنفس**» يعني: ضعُفت.

«**وَجَاعَ الْعِيَالُ وهَلَكَت الأمْوَالُ**» وذلكَ بسببِ تأخُّر المطرِ، لأنَّ عيشةَ الباديةِ على ما ينزِّلُهُ اللهُ ﷻ من الأمطارِ.

«**فَاسْتَسْقِ لَنَا ربُّك**» وهذه عادةُ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أنَّهم كانوا إذا تأخَّر المطرُ أو انحبسَ المطرُ طلبوا من النَّبي ﷺ أَنْ يستسقيَ لهم. والاستسقاء هو: طلبُ السُّقيا.

ولكنَّ هذا الأعرابيَّ لم يقتصِرْ على ذلكَ بَلْ قالَ: «**فَإِنَّنا نَسْتَشْفِعُ بِالله عَلَيْكَ**» وهذه هي الكلمةُ المنكرةُ، لأنهُ جعلَ اللهَ شافعًا عندَ الرَّسولِ ﷺ، والشَّافعُ أقلُّ درجةً من المشفوعِ عندَه، فهذا تنقُّصٌ للهِ ﷻ.

---

(١)هو جبيرُ بنُ مطعمٍ بنِ عدِي بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ القرشيُّ، كَانَ مِنْ أكابرِ قريش أسلمَ قبلَ الفتحِ، وماتَ سنة ٥٧هـ.

وَبِكَ عَلَى اللهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبحَانَ اللهِ! سُبحَانَ اللهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ. ثُمَّ قَالَ: «ويْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأنَ اللهِ أَعظَمُ مِن ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُستَشفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِن خَلقِهِ...» وَذَكَرَ الحَدِيثَ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ(١).

وقوله: «**نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ**» هذا لا إنكارَ فيهِ في حياةِ النبيِّ ﷺ، لا بعدَ موتِهِ. ومعناهُ: طلبُ الدعاءِ من الرَّسولِ لهم بالسُّقيا، كذلكَ طلبُ الدعاءِ من الصالحينَ الأحياءِ، لا بأسَ به.

ثمّ إنَّه ﷺ نَزَّهَ اللهَ عن هذا التنقُّصِ وهذا الجهلُ الذي وقَع من هذا الأعرابيِّ في حقِّ اللهِ، وقال: «**سُبْحَانَ اللهِ سُبْحَانَ اللهِ**» وهذه عادتُهُ ﷺ، أنَّه كانَ إذا استنكرَ شيئًا يسبِّح، أو أعجبَهُ شيءٌ يسبِّح أو يكبِّر.

قوله: «**حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ**» لَمَّا تأثَّر وغضِبَ، غضِبوا لغضبِ الرَّسولِ ﷺ، وتأثَّروا من تأثُّرِ الرَّسولِ ﷺ، وظهرَ ذلكَ على وجوهِهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

ثمَّ قالَ: «**وَيْحَكَ!**» (ويح) كلمة يُراد بها العِتابُ، أو يرادُ بها الشَّفَقةُ أحيانًا.

«**أَتَدْرِي مَا اللهُ؟**» هذا استنكارٌ من النبيِّ ﷺ وبيانٌ لجهلِ هذا الأعرابيِّ في حقِّ اللهِ.

«**شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ**» لَمَّا أنكرَ ﷺ ذلكَ ونزَّه ربَّه علَّم الجاهلَ ما يجبُ عليه من تعظيمِ اللهِ.

---

(١) برقم (٤٧٢٦).

الباب السادس والستون

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عَن عَبدِ اللهِ بن الشِّخِّيرِ[1] رضي الله عنه قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ....

سبقَ بابٌ يشبهُ هذا، وهو قولُ الشيخِ رحمه الله هناك: «**باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد، وسدِّه كلَّ طريق يوصِّل إلى الشرك**»، فما الفرقُ بينَ البابينِ؟

الفرقُ بينَ البابينِ: أنَّ **جنابَ التوحيدِ معناه**: جانبُ التوحيدِ، وهنا: «**حمى التوحيد**»، وفرقٌ بين الجانبِ وبينَ الحمَى، لأنَّ الجانبَ بعضُ الشيء، وأمَّا الحمى فهو ما حولَ الشَّيءِ.

فهناكَ أرادَ المصنِّفُ رحمه الله أن يبيِّنَ حمايةَ النبيِّ ﷺ للتوحيدِ نفسِه مِنْ أن يقعَ فيه شركٌ.

وهنا أرادَ أن يبيِّن أنَّ النبيَّ ﷺ حمى ما حولَ التوحيدِ، بعدَ حمايتِهِ التوحيدَ، وهذا من بابِ العنايةِ التامةِ بشأنِ التوحيدِ.

«**في حماية النبي ﷺ**» أي: مَنْع النبيِّ ﷺ.

«**حمى التوحيد**» أي: ما حولَ التَّوحيدِ.

«**وسده طرق الشرك**» فالنبيُّ ﷺ سدَّ الوسائلَ والأسبابَ التي تؤدِّي إلى الشركِ وإن لم تكُنْ هي من الشِّرْكِ لكن لَمَّا كانَتْ تؤدِّي إلى الشركِ منعَ منها النبيُّ ﷺ احتياطًا للتَّوحيدِ.

قولُه: «**عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ قال: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ**» وذلكَ عامَ الوُفودِ، وهو العامُ التَّاسعُ من الهجرةِ.

---

(١) **ابنُ الشِّخِّيرِ**: بكسرِ الشين وتشديدِ الخَاءِ هو: عبدُ اللهِ بنُ الشخيرِ بنِ عوفِ بنِ كعبِ بنِ وقدانَ الحريشيُّ، أسلمَ يومَ الفتحِ، وله صحبةٌ وروايةٌ.

فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ[1] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وَعَن أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا! وَيَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ.........

قالوا للرَّسولِ ﷺ يخاطبونَهُ: «**أَنْتَ سَيِّدُنَا**» على عادةِ العربِ أنَّهم إذا قدِموا إلى كبيرٍ مِنْ كبرائِهم أو ملكٍ مِنْ ملوكِهم يَمْدحونَهُ ويفخِّمونه بالألفاظِ.

فقالَ النبيُّ ﷺ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**» أرادَ ﷺ أَنْ يسُدَ الغلوَّ في حقِّه ﷺ.

وقوله ﷺ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ**» يعني القَوْل المُعْتاد معَ الرَّسولِ ﷺ، بأَنْ يُقالَ له: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ، هذا القولُ المُعتاد معه ﷺ، وليسَ فيه غلوٌّ.

وقوله: «**وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**» أي: لا تكونوا رسلًا للشيطانِ يُرسلكم إلى النَّاسِ بالغوايةِ والمديحِ الكاذبِ.

ثمَّ ذكرَ المصنِّفُ الحديثَ الثَّاني فقال: «**عَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّ نَاسًا قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، سَيِّدَنَا ابْنَ سَيِّدِنَا**» أمَّا قولُهم: «**يَا رَسُول اللهِ**» فهذا سليم، لكن قولُهم: «**سَيِّدَنَا ابْنَ سَيِّدِنَا**» هذا الذي استنكَره النبيُّ ﷺ. وكذلكَ قولُهم: «**وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا**» هذا أيضًا استنْكره النبيُّ ﷺ، لأنَّ الرَّسولَ ﷺ لا يريدُ المدحَ، وإنَّما يريدُ أن يوصَف بما وصفَهُ اللهُ تعالى به من الرِّسالةِ والنبوَّةِ، وكفى بذلكَ شَرَفًا له ﷺ.

قوله ﷺ: «**وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ**» يستهوينَّكم: يوقعُكُم في الهوى الذي يضلُّ عن سبيلِ اللهِ ﷻ.

---

(١) برقم (٤٨٠٦).

أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنزِلَتِي التِي أَنزَلَنِي اللهُ ﷻ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ[1] بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

ثمَّ قالَ ﷺ: «**أَنَا مُحَمَّدُ؛ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**» هذا ما يُمْدَحُ بهِ ﷺ؛ العُبوديَّة والرِّسالة.

«**مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنزَلَنِي اللهُ ﷻ**» هذا بيانُ الحكمةِ في منعهِ ﷺ؛ أنَّه خشيَ عليهم في مدحِهم له أَنْ يرفعوهُ فوقَ منزلتِهِ التي أنزلَهُ اللهُ وهي العبوديَّةُ والرِّسالةُ، لئلا يعتقدوا فيهِ جانبَ الرّبوبيّةِ، كما حصلَ للنّصارى في حقِّ عيسى عليه السلام.

فَعَبْدُهُ: فيه منعٌ من الغلوِّ.

وَرَسُولُهُ: فيه المنعُ من تنقُّصِ حقِّهِ ﷺ.

---

(١) في «السنن الكبرى» (١٠٠٧٨).

الباب السابع والستون

باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزُّمر:٦٧].

عَن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، ....

قوله ﷺ: «**باب ما جاء**» يعني: ما وردَ عن النبيِّ ﷺ وعن السَّلَفِ الصالحِ في تفسيرِ هذه الآيةِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزُّمر:٦٧] وهذه آيةٌ عظيمةٌ فيها عبرٌ وعِظَاتٌ، وأنَّ هذا الكونَ بسمائِهِ وأرضِهِ وجبالِهِ وشجرِهِ ومائِهِ وَثَراهُ وجميعِ المخلوقاتِ يجعلُها اللهُ ﷻ يومَ القيامةِ على أصابعِه ويجمَعُها في كفَّيْه ﷻ، فهذا يدلُّ على عظمةِ الله سبحانه تعالى، ويدلُّ على عظمتِهِ وكبريائِهِ وجَبَروته سُبْحانه، ولهذا قالَ ﷻ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظَّموهُ حقَّ تعظيمِه.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ هذا بيانٌ لعظمتِهِ ﷻ

﴿وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ مَن كانَ يقدرُ على هذهِ الأمورِ فإنَّه لا أعظمَ منه ﷻ، كلُّ الكونِ -بمَنْ فيه- كلُّه حقيرٌ وصغيرٌ بالنسبةِ إلى خالقِهِ ﷻ.

قوله: «**عَن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ**» الحَبْر، بفتح الحاء، ويجوزُ الكسرُ، هو: العالِم، وأغلبُ ما يُطلق ذلكَ على علماءِ اليهودِ

«**فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ**» اليهودُ يخاطبونَهُ بهذا الخطابِ، وأحيانًا يقولونَ: يا أبا القاسمِ، ولا يقولونَ: يا نبيَّ الله، أو يا رسولَ الله، لأنَّهم يَجْحدون رسالتَهُ ويَحْسدونه وإنْ كانوا يعترفونَ بأنَّه رسولُ اللهِ وأنَّه نبيُّ اللهِ في قرارةِ أنفسِهم.

إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾» [الزُّمَر:٦٧].

قال الحبرُ: «**إِنَّا نَجِدُ**» يجدونَ ذلكَ في التَّوراةِ.

«**أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ**» الأرضين: جَمْع أَرْض.

«**وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ**»؛ شجرُ الدُّنيا، شجرُ البَرِّ والبَحر،

«**وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ**» الثَّرى يعني: التُّراب:

«**وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ**» يعني: باقي المخلوقاتِ.

فهذهِ خمسةُ أصابعٍ عليها جميعُ المخلوقاتِ العلويةِ والسفليةِ، كلُّ إصبعٍ عليه خلْقٌ من خلقِهِ سبحانه وتعالى.

«**فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ**» ولا أحدَ ينازعُ في هذا، فدلَّ على انفرادِهِ سُبْحانه بالْمُلْك يومَ القيامةِ، يقولُ اللهُ جل جلاله: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [غافر:١٦] ثم يُجيبُ نفسَه فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، ولا أحدَ ينازعُ في هذا فيدّعي شيئًا من ملكِ السماواتِ والأرضِ

قوله: «**فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ**» أي: لَمَّا سمِعَ كلامَ هذا الحَبْر ضَحِك ﷺ سرورًا بهذا لأنَّ هذا إقرارٌ بما جاءَ في القرآنِ، وإقرارٌ بما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ.

«**حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ**» النواجذ هي: أوائلُ الأضراسِ، كانَ ﷺ إذا ضَحِك يتبسَّمُ فقطْ، وإذا بالغَ في التبسُّم بدَتْ نواجذُهُ ﷺ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ[1]: «وَالجِبَالَ وَالشَّجرَ عَلَى إِصْبعٍ ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ». وَفِي رِوَايَةٍ للبُخَارِيِّ[2]: «يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ... وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَى إِصْبَعٍ. أَخرَجَاهُ». وَلِمُسلِمٍ[3] عَن ابن عُمَرَ مَرفُوعًا: «يَطْوِي الله السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ ....

قوله: «وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ: وَالجِبَالَ وَالشَّجرَ عَلَى إِصْبَعٍ» في هذهِ الروايةِ زيادةُ الجبالِ.

«ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ» يحرِّكهنَّ ﷻ.

«فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أنا الله» هذا فيه: بيانُ عظمتِهِ، وربوبيّتِهِ ومُلكِهِ ﷻ، وعظيمِ قدْرتِهِ ﷻ وتقريرُ انفرادِهِ بالمُلكِ.

قولُه: «وَفِي رِوَايَةٍ للبُخَارِيِّ: يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَى إِصْبَعٍ» ذكرَ هنا أنَّ أصابعَهُ سُبحانه استوْعبَتْ كلَّ الخلْقِ وأنْ يقبضَ السماواتِ والأرضينَ بيديهِ وهذا من عظمتِهِ ﷻ.

قال: «وَلِمُسلِمٍ عَن ابن عُمَرَ مَرفُوعًا: «يَطْوِي الله السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟» هذا تحدٍّ منه ﷻ لهؤلاءِ الذين يتجبَّرونَ في الدُّنيا.

والجبَّارون: جَمْع جبَّار، وهو المُتعالي على النَّاس بالقَهْرِ والغلَبة والظُّلمِ والبَطْش بغيرِ حقٍّ.

---

(١) برقم (٢٧٨٦).

(٢) برقم (٤٨١١).

(٣) برقم (٢٧٨٨)، وأخرجه البخاري (٧٤١٢) من طريق عبيد الله عن نافع عن ابن عمر، ومسلم (٢٧٨٨-٢٥، ٢٦) من طريق عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟». وَرُوِيَ عَن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ وَالأَرْضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُم[1]. وَقَالَ ابنُ جرير[2]: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخبَرَنَا ابنُ وَهبٍ قَالَ: قَالَ: ابنُ زَيدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ فِي الكُرسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سبعةٍ أُلقِيَت فِي تُرْسٍ.

«**أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**» جَمْع متكبّر، والمتكبِّر من الخلقِ هو: المُتعالي، الذي يتعالى على النَّاسِ بالظُّلمِ والبَطْش، وكذلك يتعالى على الحقِّ فلا يقبلُهُ.

قوله: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ وَالأَرْضُونَ السَّبعُ فِي كَفِّ الرَّحمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ**» أي: أنَّه ﷻ يطوي السماواتِ السبعَ ويقبضُها بيدِه اليُمنى، ويطوي الأرَضين السبعَ فيأخذهنَّ بشمالِهِ، فتكون في كفِّه ﷻ كخردلةٍ، والخردلةُ هي: أصغرُ شيءٍ يُضرَبُ المثلُ بصغرِها.

قوله: «**وَقَالَ ابنُ جرير: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخبَرَنَا ابنُ وَهبٍ قَالَ: قَالَ: ابنُ زَيدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ فِي الكُرسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سبعةٍ أُلقِيَت فِي تُرْسٍ**» السَّماواتُ السَّبع بالنسبةِ للكرسيِّ تكونُ كالدراهمِ السبعةِ إذا أُلقيَتْ في القاعِ الواسعِ المُسْتدير، فتكونُ نسبتُها ضئيلةً، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكرسيَّ أعظمُ من السَّماوات، وأنَّها بالنسبةِ إليه صغيرةٌ، واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، فمصداقُ هذا في كتابِ الله ﷻ.

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٩٠) وابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٢٥).

(٢) في «تفسيره» (٣/ ١٠).

وَقَالَ(١): قَالَ أَبُو ذَرٍّ رضي الله عنه: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرسِيُّ فِي العَرشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِن حَديدٍ أُلقِيَت بَينَ ظَهرَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرضِ». وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ قَالَ: بَينَ السَّمَاءِ الدُّنيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَينَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَينَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرسِيِّ خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَبَينَ الكُرسِيِّ والمَاءِ خَمسُ مِئَةِ عَامٍ، وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ، ....

وقَدْ جاءَ: «**أنَّ الكرسيَّ موضعُ القدمينِ**»(٢): فهو مخلوقٌ مستقلٌ، عظيمٌ، أكبرُ من السماواتِ على سعَتها، وأعظمُ من السَّماوات على عظمتِها.

قالَ: «**سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرسِيُّ فِي العَرشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِن حَديدٍ أُلقِيَت بَينَ ظَهرَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرضِ**» الكرسيُّ سبَقَ لنا أنَّه مخلوقٌ مستقلٌّ، وأنَّه أعظمُ من السَّماواتِ، لكِنْ هناكَ مخلوقٌ أعظمُ منه وهو العَرْش، والعرشُ هو: سَقْفُ المخلوقاتِ، وأعلى المخلوقاتِ، وأعظمُها. والكرسيُّ بالنسبةِ إلى العرْشِ كحلقةٍ من حديدٍ أُلقيَتْ بينَ ظهراني فلاةٍ من الأرضِ، والفلاةُ هي: المكانُ المُتَّسع من الأرْضِ، لو ألقيتَ فيها حَلْقةً من حديدٍ، فماذا تكونُ نسبةُ الحلْقةِ إلى هذهِ الفلاةِ الواسعةِ؟ قد لا تُرى أو تكونُ شيئًا ضئيلًا، فكذلكَ الكرسِيُّ بالنسبةِ لعرشِ الرَّحمنِ كحلقةٍ من حديدٍ أُلْقِيَت في فلاةٍ واسعةٍ من الأرضِ.

ثمَّ قالَ: «**وَعَنِ ابنِ مَسعُودٍ**» حديثُ ابنِ مسعودٍ هذا يبيِّن المسافاتِ التي بينَ السماواتِ والأرضِ والمسافةَ التي بينَ السماواتِ والكُرْسيِّ، والمسافةَ التي بينَ الكرسيِّ وبين العرْش.

«**قَالَ: بَينَ السَّمَاءِ الدُّنيَا**» يعني: القريبةَ من الأرضِ.

---

(١) أخرجه الطبري أيضًا (٣/ ١٠).

(٢) أخرجه ابن الزمنين في «أصول السنة» (٣٧) وابن خزيمة في «التوحيد» (١٣٠، ١٣١) وعبد الله بن الإمام أحمد في «السنة» (٥٠٨) والدارقطني في «الصفات» (٣٦) موقوفًا على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَاللهُ فَوقَ العَرشِ لَا يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ مِن أَعمَالِكُم. أَخرَجَهُ ابنُ مَهدِيٍّ عَن حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَن عَاصِمٍ عَن زِرٍّ عَن عَبدِ اللهِ، وَرَوَاهُ بِنَحوِهِ المَسعُودِيُّ عَن عَاصِمٍ عَن أَبِي وَائِلٍ عَن عَبدِ اللهِ(١). **قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى. قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ. وَعَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟»** ....

فبيْنَ الأرضِ والسَّماءِ الدُّنيا خَمْسمائةِ عامٍ، وبينَ كلِّ سماءٍ وسماءٍ خَمْسمائةِ عامٍ، وبينَ السماءِ السَّابعةِ والكُرسيِّ خَمْسمائة عامٍ، وبينَ الكرسيِّ والماءِ خَمْسمائة عامٍ وكثافةُ كُلِّ سماءٍ من السَّماواتِ السَّبع خَمْسمائة عامٍ.

إذًا تكونُ المخلوقاتُ: أوَّلًا: الأَرْض، ثمَّ فَوْقها السَّماوات السَّبْع، ثمَّ فوقَ السَّماواتِ السَّبعِ الكُرسيّ، ثمَّ فوقَ الكُرْسيِّ بحرٌ ما بينَ أعلاهُ وأسفله خَمْسُمائةِ عامٍ، وفوقَ الماءِ عرْشُ الرّحمنِ ﷻ، واللهُ ﷻ فوقَ العرْشِ.

ثمَّ قالَ: «**والله فوق العرش**» فهو ﷻ فوقَ مخلوقاتِه، عالٍ على خَلْقِه ﷻ، العليُّ الأعلى.

قوله: «**لا يخفى عليه شيء من أعمالكم**» أي: مع علوِّه على خلْقِهِ لا يَتصوَّرُ أحدٌ أنَّه بعيدٌ عن عبادِه، بل له هذا العلوُّ، ومع هذا لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالِ بني آدمَ، فهو ﷻ فوقَ العرْشِ وعلمُه في كلِّ مكانٍ، لا يَخْفى عليه شيءٌ.

«**وَعَنِ العَبَّاسِ**» عمِّ النبيِّ ﷺ.

قوله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟**» هذا فيه: السُّؤالُ يرادُ به التعليمُ والإرشادُ.

---

(١) أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» (٨١) وابن خزيمة في «التوحيد» (١٤٩) والطبراني (٨٩٨٧)، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٤١٣).

قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وليسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ» أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ(١).

قالَ ﷺ: «**بَيْنَهما مَسِيرَةُ خَمْسِمائَةِ سَنَةٍ**» أي: بينَ السَّماءِ الدُّنيا والأرضِ خمسمائةِ عامٍ.

«**وَبينَ كُلِّ سَماءٍ إِلَى سَماءٍ مَسيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَماءٍ**» هذهِ هي الزيادةُ التي جاءَ بها هذا الحديثُ عمَّا قبلَه، أي: غِلَظ كلِّ سماءٍ وسُمْكها.

«**وَبَيْنَ السَّماءِ السَّابِعَةِ وَالعَرشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ**» هذا بيانُ عمقِ البحْر.

والعرشُ فوقَ الماءِ، وفي الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧].

«**وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وليسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ**» هذا كما سبقَ أنَّ اللهَ ﷻ مستوٍ على عرشِه، عالٍ على خلقِهِ بذاتِهِ ﷻ، ومع علوِّه سُبْحانه على مخلوقاتٍ فإنَّه يعلمُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ، ولا يَخْفى عليه شيءٌ ممَّا يحدُث في هذا الكونِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٤) و(٤٧٢٥) والترمذي (٣٣٢٠) وأحمد (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

وبهذا انتهى اختصار شرحُ هذا الكتابِ المُبارَك على: «**كتاب التَّوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد**».

بتاريخ: ٢٩ رجب ١٤٣٧ هـ، الموافق: ٦ مايو ٢٠١٦

ضحى يوم الجمعة

والحمدُ لله ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِينَ.

المحتويات